12

سلسلة

مَوَازِينُ الْقُرْآنِ

قراءة قرآنية تعيد وزن الأشياء

﴿الَّذِينَ نَافَقُوا﴾

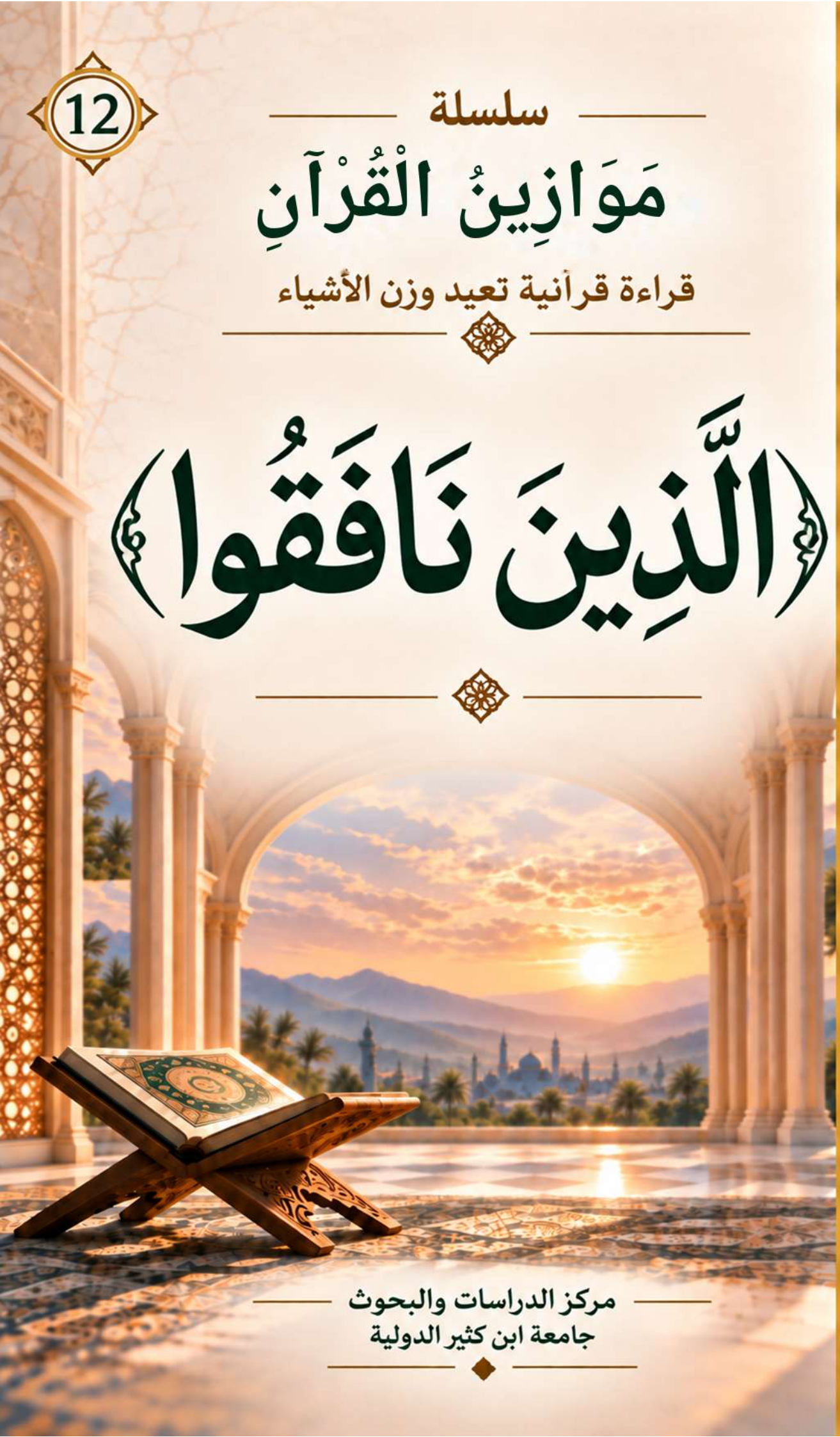

مركز الدراسات والبحوث
جامعة ابن كثير الدولية

بيانات النشر والحقوق

إصدار: مركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
السلسلة: موازين القرآن.
اسم الكتاب: الذين نافقوا - من فساد الباطن إلى إفساد الواقع
رقم الكتاب في السلسلة: الثاني عشر.
الطبعة الأولى: 1448هـ / 2026م
© جميع الحقوق محفوظة لمركز الدراسات والبحوث – جامعة ابن كثير الدولية
ويرحب المركز بإعادة طباعة هذا الكتاب ونشره كما هو، دون تعديل أو حذف أو إضافة، بعد الحصول على موافقة خطية مسبقة من المركز.
هذا الكتاب متاح بموجب ترخيص المشاع الإبداعي نسب المصنف – غير تجاري – منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC ND 4.0-NC-BY).
يُسمح بتحميل الكتاب ونسخه ومشاركته وإعادة نشره لأغراض غير تجارية، مع ضرورة الإشارة إلى صاحب الحقوق والمصدر، وعدم توزيع أي نسخة معدلة أو مترجمة منه دون الحصول على إذن.
رابط الترخيص:
https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/deed.ar
النسخة الرسمية المعتمدة للكتاب:
https://www.ibnkathir-edu.org/ar/research-center/books/althyn-nafkoa
لا يشمل الترخيص أي مواد مملوكة لأطراف أخرى إلا إذا صُرّح بذلك.

إعداد السلسلة
مركز الدراسات والبحوث — جامعة ابن كثير الدولية
الإشراف العلمي على المركز
أ.د. عبدالله آل سيف
الفريق العلمي للمركز
د. عبدالله سالم باهمام
د. صهيب لولح
د. شادية عبدالله بابكر
إسلام موسى
عادل بافرج
المراجعة والتحكيم العلمي
يتم مراجعة وتحكيم الكتب بمجموعة من الأكاديميين والمختصين
كما شارك في إنتاج السلسلة وإخراجها عدد من فرق المركز الإدارية والفنية

مركز الدراسات والبحوث | جامعة ابن كثير الدولية

سلسلة موازين القرآن

عناوين الكتب في السلسلة

- **هو الله** | كيف يبني القرآن معرفة العبد بربه؟
- **إلا ليعبدون** | كيف يوحد القرآن وجهة الإنسان؟
- **زادهم هدى** | مسار القلب بين الهداية والزيغ والعودة
- **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا**
- **ولنبلونكم** | رحلة القرآن في كشف القلوب وبنائها
- **اعلموا أنما الحياة الدنيا** | كيف تنتفع بها من غير أن تستعبدك
- **وتحبون المال حبًّا جمًّا**
- **تلك الدار الآخرة** | الميزان الذي يعيد وزن كل شيء
- **قد أفلح المؤمنون**
- **وقولوا للناس حسنة**
- **كونوا قوامين بالقسط**
- **الذين نافقوا** | من فساد الباطن إلى إفساد الواقع — هذا الكتاب
- **وتلك الأيام نداولها** | كيف يعلّمنا القرآن أن نقرأ حركة الأيام؟
- **إن وعد الله حق**
- **إن هذا القرآن**

مركز الدراسات والبحوث

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروعات مركز الدراسات والبحوث في جامعة ابن كثير الدولية، في إطار عنايته بالبحث والتأليف الشرعي، وبالمشروعات التي تصل هداية الوحي بأسئلة الإنسان الكبرى، وتقرّب أثر العلم من القلب والتصور والسلوك. وينطلق المركز في هذا المسار من أن النصوص الشرعية لا تُطلب لمجرد زيادة المعرفة، بل لتبني رؤيةً صحيحة، وتصحح الموازين، وتهدي الإنسان في علاقته بربه ونفسه والحياة من حوله.

ومن هنا تأتي العناية بالاستقراء، ودقة الفهم، وحسن البناء، وربط المعنى بالواقع من غير أن يتحول الوحي إلى شاهد تابع لفكرة سابقة، ولا أن يطغى التحليل البشري على دلالة النص وسلطانه.

سلسلة موازين القرآن

من هذه العناية جاءت سلسلة «موازين القرآن»: مشروع تأليفي يتتبع موضوعات كبرى كما يبنيها القرآن، ويستنير بالسنة في بيانها وتجسيدها وإتمام مشهدها، ثم يحاول أن يحول ما تكشفه النصوص إلى موازين يرى بها القارئ ربه ونفسه والحياة والناس والنجاح والخسارة، لا إلى معلومات متجاورة فحسب.

ولهذا لا تبدأ السلسلة بفكرة مكتملة ثم تستدعي الآيات والأحاديث لتزيينها، بل تحاول أن تبدأ من الوحي نفسه: تستقرئ نصوصه، وتراعي سياقاتها، وتجمع مشاهدها ومعانيها، ثم تسأل: ما الميزان الذي يبنيه الوحي في القلب؟ وكيف تتغير رؤية الإنسان وعبادته وقراراته إذا صار هذا الميزان حاضرًا فيه؟ فالقرآن هو الأصل الحاكم في بناء الرؤية، والسنة وحي مبين تأتي شارحة ومجسدة ومؤسسة للمعنى بحسب موضعها، ويظل التحليل والتأمل وربط النص بالنفس والواقع خادمًا لهذا الأصل، لا متقدمًا عليه.

والميزان في هذه السلسلة ليس شعارًا ذهنيًا، بل طريقة في النظر والعيش. لذلك تحاول كتب السلسلة أن تنقل القارئ من معرفة النص إلى رؤية الأشياء به، ومن فهم المعنى إلى معايشته، حتى يغلق الكتاب وفي قلبه ميزان يعود إليه بعد القراءة في خوفه ورجائه، وفي نعمته وبلائه، وفي اختياراته وعلاقاته وطريقه إلى الله.

هذا الكتاب

ينطلق هذا الكتاب من حقيقة النفاق الأكبر كما كشفها الوحي: إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ثم يتتبع كيف يعيد هذا الفساد الباطن تشكيل النفس والعقل والخطاب والعمل والموقف. ولا يقف عند تعريف مجرد، بل يقرأ طرائق النفاق كما تتحرك في النص القرآني وفي واقع الإنسان والمجتمع.

وتسير الرحلة من حقيقة النفاق وخطورته وضوابط كشفه، إلى داخل نفس المنافق ومنطقه في تفسير الواقع، ثم إلى أعمال النفاق وخطابه ومواقفه عند الاختبار، ثم إلى أثره في المجتمع والمؤسسات والمجال العام، قبل أن تنتهي إلى المواجهة والوقاية وبناء الصدق. والغاية ليست صناعة قارئ يفتش في سرائر الآخرين، بل بناء ميزان يفرق بين الاسم والحقيقة، ويكشف العمل من غير ظلم، ويرد القارئ أولًا إلى محاسبة نفسه وإقامة الصدق فيها.

ولهذا يحافظ الكتاب على فرق حاسم بين النفاق الأكبر وخصال النفاق العملي، وبين تسمية القول أو الفعل والحكم على شخص بعينه. فالقرآن والسنة هما الأصل الحاكم، والتحليل النفسي والاجتماعي خادم للمعنى لا بديل عنه.

فهرس المحتويات

بيانات النشر والحقوق 2

مقدمة الكتاب: حين يختبئ الباطل في صورة الحق 1

المحور الأول: حقيقة النفاق وخطورته ومنهج كشفه 6

المحور الثاني: داخل نفس المنافق 27

المحور الثالث: عقل المنافق ومنطقه في تفسير الواقع 52

المحور الرابع: أعمال النفاق وخطابه 80

المحور الخامس: المنافق في مواقف الاختبار 101

المحور السادس: النفاق في المجتمع والواقع 122

المحور السابع: المواجهة والوقاية وبناء الصدق 151

خاتمة الكتاب: من كشف النفاق إلى بناء الصدق 175

الملحق: الدليل الموضوعي لآيات النفاق في القرآن 178

مقدمة الكتاب: حين يختبئ الباطل في صورة الحق

الحمد لله الذي أنزل الكتاب هدىً للناس وبيانًا، وفرّق به بين الحق والباطل، وكشف به ما تخفي الصدور، وأظهر طرائق المفسدين وإن تستروا بأسماء الإصلاح، والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي بلّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين.

أما بعد: فليست أخطر العداوات هي التي تقف خارج الصف معلنةً وجهها؛ تلك تُرى، وتُعرف جهتها، ويتهيأ الناس لمواجهتها. وإنما يشتد الخطر حين يدخل الباطل من باب الحق، ويتكلم الإفساد بلسان الإصلاح، ويستفيد العدو من صورة الصديق، ويظهر الإنسان من الإيمان ما يخفي في قلبه نقيضه. هنا لا يكون الخطر في كلمة كاذبة وحدها، بل في حياة معلنة تستر حقيقة أخرى.

ولهذا افتتح القرآن صورة النفاق من الداخل قبل أن يتتبع آثارها في الخارج: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: 8-10]. دعوى ظاهرة، وحقيقة باطنة تنقضها، وخداع يعود على صاحبه، ومرض يزداد، وكذب يحرس البناء كله. ثم جاء الوعيد على قدر حقيقة المرض: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]، وجاء التحذير منهم صريحًا: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 4].

لكن القرآن لا يترك النفاق حبيس الصدر، ولا يقدمه قصةً باطنية لا صلة لها بالحياة. إنه يتتبع حركته حين تمتد إلى المجتمع: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]. وهنا تبدأ رحلة هذا الكتاب: من كفر الباطن، إلى ما يصنعه في الشعور والعقل، ثم إلى اللغة والعمل والموقف، ثم إلى أثر قد يتجاوز الفرد فيصيب الثقة والمعيار والصف والقرار.

لماذا هذا الكتاب؟

للنفاق تعريفه العقدي، وله خصال عملية حذرت منها السنة، لكن الصورة القرآنية أوسع من أن تختصر في تعريف أو قائمة. فالقرآن لا يقول فقط: هؤلاء يكذبون، بل يأخذك إلى الكذب وهو يعمل، وإلى الاسم الجميل وهو يستر الفعل القبيح، وإلى الخوف حين يصنع تفسيرًا للواقع، وإلى المصلحة حين تعيد ترتيب المواقف، وإلى الخطاب حين يتبدل بتبدل الجمهور. ومن هنا يحاول هذا الكتاب أن يقرأ النفاق كما يتحرك في القرآن، لا كما يبدو في قائمة جامدة.

فحين سُمّي الإفساد إصلاحًا قال القرآن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12]. وحين تغيّر الخطاب بتغيّر السامع كشف القرآن الوجهين في مشهد واحد: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14].

ثم ينقلنا القرآن إلى ساعة الخوف، حين لا تبقى الأفكار في هدوئها النظري: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12]، ثم إلى التخذيل الذي يريد أن يصنع من خوفه قرارًا عامًا: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: 13]. ويكشف كيف يُستعمل المال للضغط على الصف: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ [المنافقون: 7].

ويبلغ المشهد ذروته حين تُلبس الوظيفة المضادة للدين لباسًا مقدسًا، فمسجدٌ اسمه مسجد، لكن القرآن لا يحاكم الاسم بل الحقيقة والوظيفة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 107]. ليست هذه الآيات حشدًا للشواهد قبل الكتاب، بل هي الباب الذي يفتحه: أن ترى كيف ينتقل المرض من حقيقة مستورة إلى طريقة في النظر، ثم إلى خطاب، ثم إلى فعل، ثم إلى شبكة أو مشروع أو أثر عام.

ولهذا لا يريد الكتاب أن يصنع قارئًا يحفظ صفات المنافقين ثم يفتش بها في وجوه الناس؛ بل قارئًا يرى حركة المعنى، ويفرق بين الاسم والحقيقة، ولا تغره الصورة إذا ناقضها الأثر، ولا يسمح في الوقت نفسه لبصيرته أن تنقلب إلى ظلم أو جرأة على السرائر.

والنفاق الأكبر هو مركز البحث: إظهار الإسلام وإبطان الكفر؛ وهو الذي نفى القرآن عن أصحابه حقيقة الإيمان فقال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]، وتوعدهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: 145]. أما خصال النفاق العملي فتأتي لترد القارئ إلى نفسه، من غير أن تُسوّى بأصل النفاق الأكبر. قال النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». رواه البخاري (33)، ومسلم (59). وقال ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه البخاري (34)، ومسلم (58). فالكتاب لا يهوّن من خصلة عملية، ولا يجعلها بمجردها حكمًا على باطن صاحبها.

الوحي هو الميزان

القرآن والسنة هما الأصل الحاكم في تعريف النفاق وتسميته وبيان حقيقته وحكمه وآثاره؛ لأن الذي خلق القلب أعلم به: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. لذلك لا يبدأ هذا الكتاب بمصطلح نفسي أو اجتماعي ثم يبحث له عن شاهد من الوحي، بل يبدأ بما سماه القرآن والسنة وكشفاه، ثم يستعين بالتفسير والاستنباط، ويستفيد من علم النفس والاجتماع في شرح بعض الكيفيات البشرية، ومن قراءة الواقع في فحص الصور المتجددة. فالعلوم الإنسانية خادمة في هذا البناء لا حاكمة عليه: قد تساعد في تفسير كيف يعمل التبرير أو الخوف أو ضغط الجماعة، لكنها لا تعيد تعريف النفاق، ولا تخفف اسمًا سماه الوحي، ولا تملك علم القلوب.

وتتحرك المادة في خمس مراتب من غير أن تتحول الصفحات إلى درس في التصنيف: نص شرعي صريح، ودلالة تفسيرية معتبرة، واستنباط من مجموع النصوص، وتحليل نفسي أو اجتماعي محتمل، ثم تنزيل معاصر يفحص الوظيفة والآثار. ويظل ترتيبها حاكمًا في الكتاب كله: ما قاله الوحي لا يُخفض إلى احتمال، وما استنبط من مجموع النصوص لا يُنسب إلى آية بعينها بغير دلالتها، وما يحتمله التحليل البشري

لا يُرفع إلى مرتبة التفسير، وما يسمى في علم النفس أو الاجتماع باسم اصطلاحي لا ينسخ الاسم الشرعي ولا يبدله. فالأصل أن يكتمل ميزان الوحي أولًا، ثم يأتي التحليل تابعًا له ومفسرًا لبعض الحركة البشرية التي تقع تحته.

ومن هنا يبقى فرق لا يجوز أن يضيع: نسمّي القول والفعل بما سماه به الشرع إذا ثبتت حقيقته، فلا نجعل الكذب «إشكالًا في التواصل»، ولا الإرجاف «اختلافًا في النبرة»، ولا الكفر الذي حكم به الوحي مجرد «تصرف غير مناسب». وفي المقابل لا نقفز من وصف فعل أو نمط أو مشروع إلى دعوى علم قلب شخص بعينه. قوة العبارة في وصف الظاهر شيء، والحكم على المعيّن شيء آخر.

والعدل هنا ليس قيدًا خارجيًا على موضوع الكتاب، بل جزء من حاكمية القرآن نفسها. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135]، وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: 8]. فلا يصح أن نتشدد مع الخصم ونتسامح مع الحليف، أو نصف الفعل نفسه بوصفين لأن الفاعلين مختلفان. أول من ينبغي أن يخضع للميزان هو من يحمله.

كيف تُقرأ هذه الصفحات؟

ابدأ بنفسك قبل أن تبدأ بغيرك. حين تقرأ عن المعيار المزدوج اسأل أين يتغير معيارك أنت، وحين تقرأ عن الصورة اسأل ما الذي تحميه من صورتك، وحين تقرأ عن الأعذار اسأل هل تعتذر لتعود إلى الحق أم لتبقى كما أنت. ثم انظر إلى علاقاتك ومؤسستك: هل يصل الخبر الصادق؟ هل يأمن الناصح؟ هل القواعد واحدة للقوي والضعيف؟ وبعد ذلك انظر إلى المجال العام: إلى التفريق، والإرجاف، والتخذيل، واستعمال القيم والمقدسات والمصالح. ترتيب الدوائر مهم؛ لأن من بدأ بالآخرين قبل نفسه قد يتعلم من الكتاب أسماء الأمراض ولا يتعلم العافية.

وقد كان السلف مع قوة إيمانهم يخافون النفاق على أنفسهم؛ قال ابن أبي مليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ، كلهم يخاف النفاق على نفسه». علقه البخاري بصيغة الجزم في صحيحه. ولم يكن هذا شكًا في أصل إيمانهم، بل خوفًا من القلب وبعدًا عن تزكية النفس. ولهذا يذكّر القرآن من يحمل المعيار أن يرده إلى نفسه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 44].

ويربط الكتاب القرآن بالواقع من جهة الوظائف والأنماط، لا من جهة التطابق الآلي. قد يكون مسجد الضرار بناءً في واقعة التنزيل، وقد تتكرر وظيفة الضرار والتفريق في صورة أخرى؛ وقد تكون كلمة الإرجاف في مجلس، ثم تتجدد في وسيط إعلامي أو رقمي. المقصود أن يمنحك الوحي ميزانًا أبصر، لا رخصةً سهلة لتقول عن كل مشروع أو جماعة أو شخص: هذا هو عين ما نزلت فيه الآية.

ومن هنا تتحرك الرحلة في سبعة محاور متصلة: تبدأ بحقيقة النفاق وضوابط كشفه، ثم تدخل إلى النفس التي يعيد الكفر المستور تشكيلها، فإلى العقل الذي قد يجعل الهوى منطقًا، ثم إلى القول والعمل وصناعة الصورة، ثم إلى لحظة الكلفة التي تكشف ما لا تكشفه الشعارات، ثم إلى أثر النفاق في المجتمع والواقع، قبل أن تعود في النهاية إلى السؤال الذي يهم القارئ نفسه: كيف أبني في قلبي وعملي ما يضاد هذا المرض؟

فلا تدخل هذه الصفحات وفي يدك مصباح تبحث به عن وجوه الآخرين وحدهم. اجعله يضيء قلبك أولًا: أين يختل ميزانك؟ وأين تحمي صورتك؟ وأين تخاف خسارةً صغيرة فتفتح للكذب بابًا؟ إن الغاية ليست أن تتقن وصف الصادقين، بل أن تدخل في صفهم؛ ولهذا يجيء الأمر القرآني حيًّا مباشرًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. فالمعرفة التي لا تقود إلى صدق أعمق لم تبلغ بعد وظيفتها.

نسأل الله أن يرينا الحق حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه، وأن يطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأن يجعل هذا الكتاب بابًا إلى بصيرة أعدل، وقلب أصدق، وعمل أقرب إلى الإخلاص.

المحور الأول: حقيقة النفاق وخطورته ومنهج كشفه

المرض الذي يختبئ داخل صورة الإيمان

قد ترى التناقض فتقول: نفاق. وقد ترى الكذب أو الخيانة فتندفع إلى الاسم نفسه. لكن القرآن يضع الأصل في موضع أشد وأدق: النفاق الأكبر ليس مجرد خلل بين قول وعمل، ولا ضعفًا عابرًا، بل أن يظهر الإنسان الإيمان ويستر في باطنه الكفر؛ فيكون جسده داخل المجتمع المسلم، ولسانه بلغته، وقلبه في جهة تناقض ما يعلنه.

وقد لخّص القرآن جوهر هذا الانفصال حين وصف من ظهر نفاقهم في موقف الكلفة: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 167]؛ فالمشكلة ليست مجرد تفاوت بين دعوى وعمل، بل قولٌ يتعمد أن يحجب حقيقة الباطن حين يكون ذلك أصل الموقف.

ولهذا لم يعرض القرآن النفاق عيبًا أخلاقيًّا محدودًا، بل خطرًا يهدد في وقت واحد إيمان صاحبه وقلبه ومصيره، ووعي المجتمع وثقته ووحدته، وقدرة الأمة على مواجهة أعدائها وحماية رسالتها.

وإذا كان الكافر الصريح يقف خارج الصف، فإن المنافق يتحرك داخله، ويتكلم بلغته، ويستعمل رموزه، ويستفيد من الثقة التي يمنحها ظاهر الإسلام، ثم يوجه ذلك كله لخدمة قلب لا يؤمن بما يظهره.

ومن هنا كان فهم النفاق ضرورة إيمانية وواقعية؛ لا لإطلاق الأحكام على الناس، بل لمعرفة المرض كما سماه الوحي، وكشف أعماله وطرائقه وآثاره، وحماية النفس والمجتمع منه.

فالجهل بالنفاق سذاجة تفتح له الأبواب، والتوسع في اتهام الناس به ظلم يحقق غرضه في تفكيك المجتمع. والقرآن لا يعالج أحد الطرفين بإضعاف الآخر: يأمر بالحذر من المنافقين، ويكشف أقوالهم وأعمالهم ومواقفهم، ويبلغ في تسمية الإفساد والكذب والاستهزاء والإرجاف ما لا يترك للباطل ستارًا لغويًا؛ ثم يعلّم المؤمن أن علمه يقف حيث يقف الدليل، وأن من المنافقين من مرد على النفاق حتى خفي على الناس. فليست البصيرة عمًى باسم العدل، وليست جرأةً على الغيب باسم الحذر. وبين السذاجة والظلم يقيم القرآن ميزانًا دقيقًا:

كشف صريح للصفات والأعمال، وعدل صارم في الحكم على الأشخاص والسرائر.

أولًا: ما النفاق؟

النفاق في حقيقته يقوم على فجوة بين الظاهر والباطن، لكن ليست كل فجوة نفاقًا شرعيًّا. فقد يقول المؤمن ما لا يفعله، أو يضعف عن مقتضى إيمانه، أو يغلبه هواه، وهو مع ذلك مؤمن بأصل الدين، مقر بتقصيره، راغب في التوبة.

أما المنافق نفاقًا أكبر فيظهر الإسلام، ويخفي في قلبه الكفر به أو تكذيب شيء من أصوله أو بغضه وعداوته.

وتبدأ سورة البقرة من هذه الفجوة نفسها، لا من مظهر جانبي فيها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]. جملةٌ معلنة تحمل اسم الإيمان، ثم يأتي النفي القرآني فيقطع الطريق على أن تُفهم القضية تقصيرًا في كماله فحسب.

هنا تظهر خطورة النفاق من أول مشهد: اللسان لا يعكس حقيقة القلب، والدعوى لا تصف صاحبها، والصورة الدينية نفسها تصبح ستارًا. ليست المسافة بين إيمان كامل وإيمان ناقص، بل بين قولٍ بالإيمان وباطنٍ نفاه الله عن أصحابه.

والأعجب أن العبارة قد تكون صحيحةً في ذاتها، ثم يكون قائلها كاذبًا في شهادته؛ فالمنافقون يقولون: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ويقرر الله حقيقة الرسالة، ثم يقول: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1]. إن موضع الكذب هنا ليس حقيقة الرسالة، بل دعوى أن الشهادة خرجت من قلب يصدقها.

وهنا يشتد الكشف: قد يُستعمل الحق نفسه في ستر الباطل. لا يحتاج المنافق دائمًا إلى جملة باطلة؛ قد تكفيه جملة صحيحة يقولها لغير غايتها، ويحتمي بها من حقيقة لو ظهرت لسقطت صورته كلها.

ومن هنا يظهر أن جوهر النفاق ليس مجرد قول الباطل، بل استعمال الحق لإخفاء باطل القلب.

المنافق لا يعادي الدين دائمًا بعبارة صريحة؛ فقد يصلي، ويحلف، ويتحدث بلغة الإيمان، ويشارك في أعمال المجتمع المسلم، لكنه لا يفعل ذلك عبوديةً لله، بل حمايةً لنفسه ومصلحته وموقعه.

ولهذا كان النفاق أعمق من الكذب المعتاد؛ لأن الكذب فيه لا يختص بخبر أو واقعة، بل يمتد إلى الهوية كلها. يعيش الإنسان حياة معلنة لا تمثل حقيقته، ويضطر إلى حراسة هذه الصورة كلما تكلم أو تحرك.

إنه لا يكذب في مسألة فقط، بل يجعل وجوده الاجتماعي كله قائمًا على كذبة كبرى.

ثانيًا: النفاق الأكبر والنفاق العملي

جاءت النصوص باستعمال النفاق في معنيين يجب الفصل بينهما؛ لأن الخلط بينهما يوقع في الغلو من جهة، وفي التهوين من جهة أخرى.

1. النفاق الأكبر

وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر. وصاحبه ليس مسلمًا ضعيفًا اجتمعت فيه ذنوب، بل هو كافر في الباطن، وإن جرت عليه في الدنيا أحكام الإسلام بحسب ظاهره ما لم يظهر منه ناقض معتبر.

وأصل هذا النفاق باطنٌ يخالف ظاهر الإسلام، وقد كشف القرآن أصوله الباطنة وما قد يظهر منها في القول والعمل:

1. تكذيب الرسول ﷺ في الباطن، أو تكذيب أصل ثابت مما جاء به.
2. أو بغض الرسول ﷺ، أو بغض شيء مما جاء به من حيث إنه من دين الله، أو كراهية ما أنزل الله لكونه وحي الله وشرعه. وهذه غير ثقل التكليف على النفس أو كراهية مشقته مع الإقرار بأنه حق من عند الله ومحبة شرعه.
3. وقد يظهر فساد أصل الإيمان في قول أو فعل كفري صريح؛ ومن أصرح ذلك الاستهزاء بالله، أو آياته، أو رسوله ﷺ، وقد سمّى القرآن هذا كفرًا ولم يقبل عذر الخوض واللعب.
4. أو الفرح بانكسار الدين، وكراهية ظهوره ونصره؛ عداوةً لأصله لا لمجرد خصومة دنيوية عارضة.
5. ومن أعمال المنافقين التي ذمها القرآن: اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وابتغاء العزة عندهم، ونصرة من يعادي المؤمنين عليهم. وهذا باب تتفاوت صوره وأحكامه؛ فليست المعاملة والبر

والتعاقد والتعاون المباح من هذا الباب، كما لا تُسوّى كل علاقة سياسية أو دنيوية بالتولي الذي يناقض أصل الإيمان.

6. ومن نواقض أصل الإيمان: رد حكم الله، أو بغضه لأنه حكم الله، أو جحد لزومه، أو استحلال الحكم المخالف له، أو اعتقاد أن غيره أفضل منه أو مساوٍ له. أما من حكم أو تحاكم بغير ما أنزل الله لهوى أو مصلحة وهو مقر بأن حكم الله هو الحق الواجب وأن مخالفته معصية، فقد أتى منكرًا عظيمًا ولا يلزم من فعله وحده الكفر الأكبر.

7. وهنا يلزم فرق آخر: ليس كل ناقض من نواقض الإسلام تعريفًا للنفاق الأكبر بذاته؛ فالنفاق الأكبر حقيقته إظهار الإسلام وإبطان الكفر. وقد يكشف قول أو فعل كفري ظاهر ما كان مستورًا، أو يخرج صاحبه من الإسلام من جهة ذلك الناقض؛ أما تسمية النفاق فتبقى مرتبطة بحقيقة الازدواج بين ظاهر الإسلام وباطن الكفر.

وهذا النوع هو الأصل المركزي في هذا الكتاب؛ لأنه النفاق الذي كشف القرآن بنيته العقدية والنفسية والاجتماعية، وتحدث عن أصحابه بوصفهم قوة داخل المجتمع المسلم.

2. النفاق العملي

وهو أن تقع من المسلم خصلة تشبه أعمال المنافقين مع بقاء أصل الإيمان في قلبه. وهنا تأتي السنة لترد خطر النفاق إلى تفاصيل الحياة اليومية؛ فيقول النبي ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». رواه البخاري (33)، ومسلم (59)، ويقول ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه البخاري (34)، ومسلم (58) باختلاف يسير. فـ«منافقًا خالصًا» هنا لا يعني بالضرورة أنه كافر في الباطن، بل أنه استجمع الخصال العملية المذكورة واشتد شبهه بالمنافقين في أخلاقهم.

وقد يجتمع في الإنسان إيمان وخصلة من النفاق، وطاعة ومعصية، وصدق في موطن وكذب في آخر. فلا يحكم عليه بالكفر لمجرد وقوعه في خصلة، كما لا يجوز الاستهانة بها بحجة أنه مسلم.

فالخصلة العملية ليست حكمًا على أصل الدين، لكنها خطر على القلب؛ لأنها تدرب الإنسان على الانفصال بين ما يظهر وما يبطن.

وكلما اعتاد الإنسان أن يقول ما لا يريد، ويعد بما لا ينوي الوفاء به، ويستعمل الثقة لخيانة من وثق به، اتسعت المسافة بين صورته وحقيقته.

وقد يبدأ النفاق العملي زلة، ثم يتحول إلى عادة، ثم إلى طبع يدير به الإنسان علاقاته.

وفي الجهة المقابلة يبدأ الصدق كذلك من تفاصيل صغيرة: أن يقول الإنسان ما يعتقد، وأن يفي إذا وعد، وأن يؤدي الأمانة ولو لم يره الناس. فبناء الضد لا ينتظر لحظة كبرى؛ إنه يردم المسافة بين الظاهر والباطن كل يوم، حتى يألف القلب أن يكون له وجه واحد. ولا يلزم أن يصير صاحبه منافقًا نفاقًا أكبر، لكن اعتياد خصال المنافقين يضعف حساسية القلب تجاه الكذب والخيانة والتلون.

ولهذا يكون النفاق العملي في هذا الكتاب قسمًا مكمّلًا: يرد القارئ إلى محاسبة نفسه ويمنعه من حصر النفاق في الآخرين، من غير أن يزاحم النفاق الأكبر أو يحل محله. والقاعدة الفاصلة أن النفاق الأكبر فساد في أصل الإيمان، أما النفاق العملي ففساد في بعض الأخلاق والأعمال مع بقاء أصل الإيمان.

ثالثًا: النفاق ليس كل تناقض

قد يقع الإنسان في تناقض بين علمه وعمله، أو بين قوله وفعله، ولا يكون منافقًا نفاقًا أكبر. بل يكاد لا يسلم إنسان من صورة من صور التقصير عن مقتضى ما يعلم ويؤمن به.

ومع ذلك فإن القرآن يشتد في ذم انفصال القول عن العمل من غير أن يجعل كل صورة منه نفاقًا أكبر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]؛ فالآيتان تؤسسان خطورة التناقض الأخلاقي نفسه، بينما يبقى الحكم بالنفاق الأكبر متعلقًا بحقيقته العقدية وضوابطه.

وتزيد السنة هذا الفرق وضوحًا في قصة حنظلة الأسيدي رضي الله عنه؛ إذ خاف على نفسه فقال: «نافق حنظلة» لما وجد من تفاوت حال قلبه بين مجلس النبي ﷺ ومخالطة الأهل والمعاش، فبيّن له النبي ﷺ أن دوام القلب على حال واحدة ليس لازمًا، وقال: «يا حنظلة، ساعة وساعة». رواه مسلم (2750).

فالفتور البشري وتفاوت حضور القلب لا يساويان النفاق الأكبر، وإن كان المؤمن لا يتخذ الفتور عذرًا للاستسلام.

فالفرق بين المؤمن العاصي والمنافق ليس أن الأول كامل الاتساق لا يخطئ، بل في أصول أعمق.

المؤمن يعترف بالميزان — قد يخالف المؤمن أمر الله، لكنه يعلم في داخله أنه مخطئ، وأن حكم الله هو الحق. أما المنافق فيجعل هواه حاكمًا، ثم يعيد تشكيل الدين أو الواقع ليبرر هواه.

المؤمن يتألم من التناقض — يشعر بالندم والحياء والخوف، وإن تأخرت توبته. أما المنافق فيعمل على حماية التناقض، وتسميته باسم مقبول، وإقناع الناس بأن ما فعله هو الصواب.

المؤمن يريد ردم الفجوة — يسعى ـ ولو بضعف ـ إلى أن يصلح ظاهره وباطنه. أما المنافق فيحتاج إلى بقاء الفجوة؛ لأنها مصدر سلامته ونفوذه.

المؤمن قد يكذب في واقعة — أما المنافق الأكبر فهويته المعلنة كلها مخالفة لحقيقته الباطنة.

ولهذا لا ينبغي أن يتحول الكتاب إلى تعقب كل ضعف بشري ووصفه بالنفاق. فالخشوع ينقص، والإرادة تضعف، والإنسان قد يخاف أو يبخل أو يطلب ثناء الناس، وكل ذلك يحتاج إلى علاج، لكنه لا يساوي في ذاته إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

ومع ذلك لا ينبغي استعمال هذا التفريق في تهوين التناقض؛ لأن النفاق العملي ينمو من المساحات التي يتسامح فيها الإنسان مع كذبه وخيانته.

المؤمن قد يقع في الازدواج، لكن الخطر أن يتصالح معه، ثم يصنع له خطابًا أخلاقيًّا، ثم يطلب من الآخرين احترامه.

وهنا تبدأ خصلة من خصال النفاق العملي أو طريقة من طرائق المنافقين، من غير أن يلزم منها وحدها النفاق الأكبر.

رابعًا: لماذا كان النفاق أخطر أمراض الإيمان؟

النفاق الأكبر ليس معصية إلى جوار الإيمان، بل هو إبطال للإيمان من داخله. وصاحبه لا يرفض الحق فقط، بل يضيف إلى الرفض خداعًا مستمرًّا للناس، ومحاولة لخداع الله، واستعمالًا للدين الذي لا يؤمن به.

ثم يقلب القرآن مشهد الخداع على صاحبه: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]. يظن أنه يحفظ موقعه بين المؤمنين ويصون باطنه من أن ينكشف، فإذا بالعملية كلها ترتد إلى قلبه هو.

ما حسبه حمايةً صار إفسادًا أعمق: ينتفع بصورة الانتماء، ويتمسك في الباطن بالكفر، ثم يدفع ثمن هذا الجمع من قلبه نفسه. وهنا لا يعود النفاق حيلة اجتماعية فحسب؛ يصبح طريقًا يعاقب صاحبه في داخله قبل أن يراه الناس.

3. النفاق يزيد مرض القلب

ولا يصف القرآن هذا الباطن بالسكون؛ إنه مرض قابل للزيادة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [البقرة: 10]. فالكذب هنا ليس غطاءً فوق قلب سليم، بل جزء من مسار يزداد فيه الفساد كلما أصر صاحبه على حراسته.

المرض هنا ليس ألمًا عارضًا، بل فسادًا في إدراك الحق وإرادته. ومع الاستمرار في الكذب والتهرب من الهداية يزداد المرض؛ لأن القلب لا يبقى على حال واحدة.

كل مرة يسمع فيها المنافق الحق ثم يرفضه، يحتاج إلى تبرير جديد. وكل تبرير يبعده عن الاعتراف. ثم يصبح الرجوع أصعب؛ لأنه لا يتطلب ترك موقف فقط، بل هدم صورة كاملة بناها عن نفسه أمام الناس.

وقد يبدأ الإنسان عالمًا بأنه يكذب، ثم يكرر الكذب حتى يلتبس عليه ما صنعه، ويصبح غير قادر على رؤية نفسه إلا من خلال الرواية التي اختلقها.

وهذا من أشد العقوبات: أن يفسد القلب حتى يعجز عن إدراك فساده.

4. النفاق يطبع على القلب

ثم لا يبقى المرض بلا نهاية؛ يصل المسار إلى عقوبة في موضع الفقه نفسه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. فالطبع في السياق يأتي بعد مسار، لا قبل اختيار الإنسان ولا ظلمًا ابتدائيًّا له.

لم يكن الطبع ظلمًا ابتدائيًّا، بل نتيجة لمسار من الإيمان الظاهر أو الدعوى، ثم الكفر والإصرار. فحين يستمر الإنسان في رفض الحق وحماية رفضه، يفقد شيئًا من قدرته على الفهم والرجوع.

وقد يملك المنافق ذكاءً وفصاحةً وقدرةً على الجدل، لكنه لا يفقه حقيقة ما ينفعه ويضره؛ لأن الفقه القرآني ليس جمع المعلومات فقط، بل وصول الحق إلى القلب واستجابته له.

النفاق يفسد علاقة الإنسان بالله — المؤمن يعبد الله ويرجوه ويخافه، أما المنافق فيتعامل مع الدين بوصفه وسيلة إلى الناس. يصلي ليُرى، ويحلف ليُصدق، ويعلن الانتماء ليحفظ مكانته.

وبذلك تصبح أكثر الألفاظ قداسةً أدوات للمصلحة.

وهذه قسوة شديدة: أن يقف الإنسان في موطن العبادة، ولا يرى فيه إلا الجمهور.

النفاق يجمع الكفر والكذب والخيانة — الكافر الظاهر لا يدعي أنه من المؤمنين، أما المنافق فيضيف إلى كفره خيانة الثقة التي منحها له المجتمع، والعمل من داخله على إضعافه.

ولذلك جاء الجزاء على قدر هذا الجمع بين الكفر والخداع والخيانة: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145]. الدرك الأسفل يهدم الوهم كله: ما بدا طريقًا ذكيًّا لجمع مكاسب الطرفين ينتهي إلى أخفض منازل العذاب.

فليس النفاق طريقًا ذكيًّا يحقق لصاحبه المكاسب من الطرفين؛ قد يحقق له منفعة عاجلة، لكنه يضعه في أخفض منازل العذاب إن لقي الله عليه.

والمفارقة أن المنافق اختار النفاق طلبًا للأمان، فانتهى إلى أعظم الخوف. واختاره لحفظ مكانته، فانتهى إلى أذل المصائر. واختاره ليخدع الآخرين، فكان أول من خُدع به نفسه.

خامسًا: هل للمنافق من توبة؟

على شدة الوعيد لم يغلق القرآن باب التوبة. قال تعالى بعد ذكر الدرك الأسفل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 146].

ولم تكتف الآية بلفظ التوبة؛ لأن النفاق فساد مركب يحتاج إلى رجوع مركب.

تابوا – رجعوا عن الكفر والكذب والوجهين، لا عن بعض الآثار الظاهرة فقط.

وأصلحوا – فمن أفسد الثقة، أو فرق المؤمنين، أو نشر كذبًا، لا تكفيه كلمة يعتذر بها، بل يصلح ما استطاع مما أفسده.

واعتصموا بالله – كان المنافق يطلب الأمان عند الناس وأصحاب القوة، فلا تصح توبته حتى ينتقل اعتماده إلى الله.

وأخلصوا دينهم لله – وهذا علاج أصل المرض؛ لأن النفاق يقوم على جعل الدين لغير الله: للسمعة، والحماية، والمصلحة، والانتماء الاجتماعي.

فالتوبة من النفاق ليست تحسين صورة الإنسان، بل سقوط حاجته إلى الصورة الكاذبة.

وقد تكون توبة المنافق صعبة؛ لأنه لا يواجه ذنبًا سريًّا فقط، بل يواجه شبكة من العلاقات والمكاسب والادعاءات. وقد يحتاج الاعتراف إلى هدم مكانة بناها سنوات.

لكن صعوبة التوبة لا تغلق بابها؛ بل تكشف أن التأخير يزيد الكلفة.

وكل يوم يحمي فيه الإنسان كذبه بكذبة جديدة، يصبح الرجوع أثقل.

ولهذا كانت التوبة هنا أكثر من ندم عابر؛ إنها شجاعة إسقاط الرواية التي عاش بها الإنسان، والعودة إلى الله ولو انكسرت الصورة أمام الناس. وكل اعتراف صادق يقتطع جزءًا من سلطان الكذب، وكل إصلاح لما أفسده يعيد وصل الظاهر بالباطن.

سادسًا: لماذا يظهر النفاق داخل المجتمع المسلم؟

لم يظهر النفاق في مكة بل ظهر في المدينة؛ لأن المسلمين في مكة كانوا مستضعفين، ولم تكن في إظهار الإسلام مصلحة دنيوية تغري الكافر بالتظاهر به.

أما بعد أن صار للمسلمين مجتمع وقوة ومكانة، ظهر من لا يؤمن بهم، لكنه لا يستطيع مواجهتهم صراحة، أو يريد الاحتفاظ بموقعه بينهم.

ومن جهة تفسير ظهوره التاريخي في المجتمع المسلم، يظهر عاملان يساعدان على فهم البيئة التي ينشأ فيها النفاق: قوة لا يستطيع العدو المستور مواجهتها صراحة، ومصلحة دنيوية يمكن تحصيلها من الانتساب الظاهر إليها. وهذا تفسير للظرف المهيئ، لا علة شرعية حاصرة لكل نفاق.

فالنفاق ابن البيئة التي يصبح فيها الانتماء مفيدًا، بينما يبقى القلب رافضًا لحقيقة هذا الانتماء.

الخوف من فقد المكانة — قد يكون الإنسان ذا نفوذ قبل ظهور قوة الحق، ثم يرى أن المجتمع الجديد يهدد موقعه. فلا يملك شجاعة المواجهة الصريحة، ولا تواضع الدخول الصادق، فيختار طريقًا ثالثًا: يظهر الانتماء، ويعمل على حفظ نفوذه من الداخل.

طلب الحماية — قد يظهر الإنسان الإسلام حتى تجرى عليه أحكام المسلمين، ويحفظ ماله ودمه وعلاقاته، من غير أن يدخل الإيمان قلبه.

انتظار تغير موازين القوة — لا يريد المنافق أن يربط مصيره بجهة واحدة؛ فيظهر للمؤمنين أنه منهم، ويحفظ صلته بأعدائهم، حتى يستطيع الانحياز إلى المنتصر.

فقدان الشجاعة على الاختيار — الإيمان الصادق يحتاج إلى قرار، والكفر الصريح يحتاج في بعض البيئات إلى تحمل نتيجة. أما النفاق فيحاول الهروب من كلفة القرارين معًا.

إنه يريد من الإيمان أمنه، ومن الكفر ولاءه الباطن، ومن الطرفين مصالحهما.

لكن هذا الهروب لا ينتج استقرارًا؛ بل ينتج شخصية مذبذبة لا تنتمي بصدق إلى جهة.

ولا ينتج هذا الهروب حيادًا مستقرًّا؛ بل يسميه القرآن تذبذبا : ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: 143].

إنه انتماء معلّق بالمصلحة، لا موقفًا واضحًا اختاره صاحبه وتحمل تبعته.

والتذبذب ليس حيادًا، فالحياد قد يكون موقفًا واضحًا، أما المنافق فيوزع ولاءه الظاهر بحسب المصلحة، ولا يملك أصلًا ثابتًا يرجع إليه.

سابعًا: كيف تصنع البيئة الاجتماعية النفاق العملي؟

كما أن قوة المجتمع المسلم قد تدفع الكافر المستور إلى إظهار الإسلام، فإن بعض البيئات قد تدفع المسلم الضعيف إلى التلون والكذب، حتى تصبح خصال النفاق أسلوبًا للحياة.

ومن هذه البيئات:

بيئة الخوف – إذا كان الصادق يعاقب، والمتملق يأمن، تعلم الناس إظهار ما لا يعتقدون. وقد يبدأ ذلك اتقاءً للضرر، ثم يتحول إلى عادة، ثم إلى قدرة عالية على تبديل الوجوه.

احتكار النفوذ – حين لا تصل الفرص إلا عبر رضا أشخاص محددين، يصبح المدح وسيلة للبقاء، ويضعف استقلال الضمير.

غياب المعايير – إذا لم يعرف الناس لماذا يُقدّم شخص ويُؤخر آخر، لجؤوا إلى العلاقات الخفية، وتعلموا أن الصورة أهم من العمل.

التنافس على المكانة الدينية والاجتماعية :

قد يتحول الحديث عن الخير إلى مجال للظهور، فيصبح الإنسان معنيًّا بأن يبدو صالحًا أكثر من أن يكون صالحًا.

العقوبة على الاعتراف – المؤسسة التي تدمر كل من يعترف بخطئه تعلم الناس الكذب، حتى لو كانت تكثر من الحديث عن الصدق.

التسامح مع المعايير المزدوجة – إذا قبل المجتمع من القريب ما يشنع به على البعيد، صار النفاق العملي جزءًا من الانتماء الجماعي.

وهذا لا يعفي الأفراد من المسؤولية، لكنه يبين أن الوقاية من النفاق لا تقتصر على الوعظ. فالقلب يحتاج إلى تربية، والمجتمع يحتاج إلى عدل، والمؤسسة تحتاج إلى قواعد لا تجعل الكذب أكثر نفعًا من الصدق.

حين يصبح الصدق شديد الكلفة، يحتاج المجتمع إلى مراجعة نظامه، لا إلى لوم الصادقين لأنهم قلوا.

ثامنًا: كيف كشف القرآن المنافقين؟

لم يعتمد القرآن في كشف المنافقين على قراءة الوجوه، ولا على ظنون الناس، ولا على اختبارات نفسية، بل كشفهم بتكذيب ادعاءاتهم بطريقة مباشرة ، ومن خلال الأقوال والأعمال والمواقف التي تظهر ما في النفوس ، ويمكن تلخيص منهجه في معالم :

كشف الدعوى بمقارنتها بالحقيقة — قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، فقال الله: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

فلا يسمح القرآن للإنسان أن يكون المرجع الوحيد في تسمية فعله.

كشف الباطن من خلال المواقف — ظهر شكهم عند الأحزاب، وبخلهم عند الإنفاق، وكراهية التكليف في تبوك، وانتقائيتهم عند التحاكم.

فالمواقف ذات الكلفة تكشف ما تخفيه العبارات في الرخاء.

كشف التناقض بين الخطاب والجمهور — قالوا للمؤمنين: ﴿ءَامَنَّا﴾، وقالوا لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾.

فلا يكتفي القرآن بنقل كل عبارة منفردة، بل يجمع الخطابين حتى يظهر الكذب.

كشف الوظيفة الحقيقية للعمل — مسجد الضرار لم يُحكم عليه من اسمه ومظهره، بل من وظائفه: ضرار، وكفر، وتفريق، وإرصاد.

وهذا ميزان مهم: قد يكون الاسم خيرًا، لكن الأثر يكشف الوظيفة التي يؤديها العمل.

كشف الدافع المستور — قالوا: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾، فكشف القرآن أن القضية أعمق من الحر. وقال أحدهم: ﴿ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّى﴾، فرد القرآن: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: 49].

فلم يكتف القرآن بنقض العذر، بل ردّه إلى حقيقته.

كشف الأثر الاجتماعي – لم يعرض النفاق بوصفه علاقة فاسدة بين الفرد وربه فقط، بل كشف أثره في التفريق، والتثبيط، والإرجاف، وقبض الأيدي، والصد عن سبيل الله.

تسمية العمل باسمه – من أعظم طرائق القرآن أنه ينزع عن العمل الاسم الذي اختاره صاحبه، ويعيد إليه اسمه الحقيقي :

5. الإفساد إفساد، والاستهزاء استهزاء، والإرجاف إرجاف، والكذب كذب، والضرار ضرار.

وهذه التسمية ليست قسوة لفظية، بل حماية للوعي، لأن المجتمع الذي يفسد عنده معنى الأسماء يعجز عن مقاومة الأفعال.

تاسعًا: ما الذي نأخذه من الكشف القرآني؟

كشف الله بواطن المنافقين المعنيين بوحيه دون تعيين ، ولذلك لا يجوز أن ننقل كل ما ذكره القرآن إلى أعيان كل من اشتبهنا فيه. لكننا نستفيد من القرآن في مستويات واضحة :

معرفة حقيقة النفاق – فالوحي هو المرجع في تعريفه، لا علم النفس ولا الانطباع الاجتماعي.

معرفة أعماله وطرائقه – كالكذب، والتلون، والإرجاف، والتثبيط، وتوظيف المقدس، وضرب الثقة.

معرفة آثاره – في القلب والمجتمع والمؤسسة والأمة.

بناء موازين لقراءة الواقع – فننظر في الوظائف والنتائج والمعايير المتكررة، لا في الشعارات وحدها.

معرفة منهج المواجهة – بالكشف، والتثبت، والحذر، والعدل، ومنع الضرر، ومراعاة المآلات.

أما الجزم بأن شخصًا معينًا يبطن الكفر، فليس نتيجة لازمة لمجرد ظهور خصلة أو نمط سلوكي. قد يكون فاسقًا أو خائنًا أو متلونًا أو صاحب هوى، ولا يكون منافقًا نفاقًا أكبر.

والفرق دقيق لكنه ضروري: نستطيع أن نقول: هذا العمل من أعمال المنافقين، ولا يلزم أن نقول: فاعله منافق نفاقًا أكبر.

فقد قال النبي ﷺ في بعض الخصال: إنها من النفاق، مع أن من وقعت منه واحدة لا يخرج بذلك من الإسلام.

6. ليس كل منافق مكشوفًا - حين يبلغ النفاق من التمرس أن يخفى صاحبه -

قد توحي كثرة الصفات التي كشفها القرآن للمنافقين بأن المنافق يمكن دائمًا معرفته من سلوكه أو لغته أو اضطرابه، لكن القرآن نفسه يضع أمامنا ضابطًا بالغ الأهمية.

ثم يضع القرآن حدًّا حاسمًا لأي ثقة زائدة في مهارة القارئ: كان في أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق، ومع ذلك قيل للنبي ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ ضمن قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: 101]. كثرة الصفات لا تحوّل الإنسان إلى قارئ للقلوب؛ بل تجعله أبصر بما ظهر وأشد توقفًا فيما استتر.

فقد كان في المدينة من تمرسوا في النفاق حتى خفيت أعيانهم، ولم يكن ظاهرهم كافيًا للحكم على بواطنهم.

وهذه الآية تهدم وهمًا خطيرًا: أن دراسة صفات المنافقين تمنح الإنسان قدرة على كشف كل منافق بعينه.

فالقرآن يمنحنا معرفةً بالصفات والأعمال والأنماط، لكنه لا يمنحنا علم الغيب.

قد يبلغ الإنسان من إحكام الظاهر أن لا يظهر من أمره ما يكفي للحكم على قلبه. وقد يقع آخر في بعض صفات المنافقين بسبب ضعف أو خوف أو هوى، ولا يكون منافقًا نفاقًا أكبر.

ومن هنا فإن التحليل النفسي أو الاجتماعي لا يتحول إلى أداة تشخيص عقدي. نستطيع أن نرى الكذب، وأن نصف التلون، وأن نثبت التخذيل، وأن نحلل مشروعًا ضراريًّا؛ لكننا لا نملك بمجرد ذلك أن نقول: هذا الشخص يبطن الكفر.

بل إن الآية تؤكد أمرًا آخر: أن بعض النفاق يزداد خطره كلما ازداد صاحبه قدرة على الاندماج في المجتمع، وفهم لغته، وضبط صورته، وإخفاء ما في قلبه.

فالمنافق الساذج قد يكشفه تناقضه سريعًا، أما من مرد على النفاق فقد يتعلم متى يتكلم ومتى يصمت، وما الذي يظهره وما الذي يخفيه، وكيف يقدم لكل موقف العبارة التي تحفظ صورته. ولذلك قد يكون إحكام الظاهر نفسه جزءًا من الخطر، لا دليلًا على سلامة الباطن.

وهنا يُمتحن فهم القارئ للمنهج القرآني: فالقرآن الذي علّمه أن يحذر، وأن يقرأ الأقوال والمواقف، وأن يزن الأعمال بآثارها، لم يمنحه علم القلوب. فمن خرج من هذا الباب يزعم أنه صار يعرف المنافقين بأعيانهم من نظرة أو عبارة أو تحليل، فقد أخذ من القرآن جانب الكشف وترك حدوده. البصيرة أن ترى ما أراك الوحي، وأن تسمي ما سماه، لا أن تزعم وراءه ما لم يثبت لك.

معرفة النفاق لا تنتج عمًى ولا هلعًا؛ بل عينًا أبصر وميزانًا أعدل: ترى الكذب كذبًا، والتلون تلونًا، والتخذيل تخذيلًا، والإفساد إفسادًا، والمشروع الضراري بآثاره الثابتة؛ ثم لا تضيف من عندك كلمةً واحدة عن سريرة لم يقم عليها دليل معتبر.

والقاعدة: قد يكشف القول أو السلوك فعلًا ثابتًا فيسمى باسمه ويحكم عليه بحكمه، وقد يكشف التكرار نمطًا، وقد تكشف البنية والآثار وظيفة مشروع؛ أما الشخص فلا تختصره علامة واحدة، وحقيقة القلب لا تُستخرج من جدول صفات ولا من تحليل نفسي أو اجتماعي، وإنما يقف الحكم فيها عند البينة الشرعية المعتبرة.

عاشرًا: مراتب الوصف والحكم

حتى لا يتحول الكتاب إلى أداة اتهام، يعتمد في جميع محاوره أربع مراتب:

7. المرتبة الأولى : تسمية القول والفعل والحكم عليه في نفسه

يبدأ الميزان من نفس القول أو الفعل: فإذا ثبت الكذب سُمّي كذبًا، وإذا ثبت الإرجاف سُمّي إرجافًا، وإذا وقع الاستهزاء بالله أو آياته أو رسوله سُمّي استهزاءً وحُكم على هذا القول أو الفعل بالكفر كما حكم القرآن، فلا يتحول الاحتياط في الأعيان إلى تردد في حكم الأنواع.

فيقال:

هذا القول أو الفعل يوصف بحكمه الشرعي: فقد يكون معصية، أو خصلة من النفاق العملي، أو كفراً أكبر في نفسه بحسب الدليل. وهذا حكم على النوع، لا حكم آلي على كل شخص نُسب إليه الفعل.

ثم يأتي سؤال الإثبات، وهنا يعمل التثبت القرآني قبل أن يعمل التصنيف: لا يكفي أن يكون الحكم على القول صحيحًا حتى تصح نسبته إلى شخص بعينه، ولا أن يكون الوصف شديدًا حتى يهون التحقق من الواقعة. فإذا ثبت الكذب سمي كذبًا، وإذا ثبت الإرجاف سمي إرجافًا، وإذا ثبت قول حكم الوحي عليه بالكفر بقي حكمه كما جاء؛ أما النقل الناقص واللفظ المحتمل والظن فلا تتحول بقوة المصطلح إلى علم. ثم يأتي بعد ذلك: هل وقع هذا القول أو الفعل من المعيّن فعلًا؟ وهل هو صريح في المعنى أو محتمل؟ فالتثبت من الواقعة لا يغير حكم القول في نفسه، لكنه يمنع بناء الحكم على نقل ناقص أو لفظ محتمل.

8. المرتبة الثانية: وصف النمط

كأن يتكرر التلون، وتتغير الرواية بحسب المصلحة، ويستعمل صاحبه الخطاب الديني لحماية الفساد.

فيقال:

هذا نمط من أعمال النفاق، أو يحمل شبهًا ظاهراً بطرائق المنافقين.

9. المرتبة الثالثة: وصف المشروع أو المؤسسة

كأن يقوم عمل منظم على التفريق والضرار والإرجاف وحماية الباطل.

فيقال:

هذا المشروع يحمل سمات العمل المنافق أو الضراري.

ولا يلزم من ذلك أن يكون كل فرد فيه عالمًا بجميع مقاصده، أو أن يكون منافقًا نفاقًا أكبر.

10. المرتبة الرابعة: الحكم على الشخص المعيّن

إذا كان المراد وصفه بالنفاق الأكبر، فمعناه الجزم بأنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر. وإذا كان المراد الحكم عليه بسبب ناقض ظاهر، فذلك باب آخر يقوم على ثبوت الناقض في حقه ومعرفة حقيقة الواقعة وما يعتبر شرعًا في حكم المعيّن.

ولهذا لا يثبت النفاق الأكبر بمجرد الانطباع أو التحليل النفسي أو تراكم خصال النفاق العملي. كما لا يجوز أن تُتخذ هذه القاعدة ذريعة لخفض حكم قول كفري صريح إلى «تصرف غير مناسب»؛ فحكم النوع يبقى كما جاء به النص، وحكم المعيّن له بابه.

ويبقى ميزان الكتاب كله في جملة واحدة: لا نُلين وصف القول أو الفعل خوفًا من التسرع في المعيّن، ولا نتسرع في المعيّن بحجة صراحة وصف القول أو الفعل. نسمّي ما ظهر باسمه الشرعي، ونقف في الباطن عند حدود البينة.

تنبيه اصطلاحي: الأوصاف التحليلية في الكتاب

يستعمل الكتاب عبارات مثل: «خصلة من خصال النفاق»، و«نمط من أعمال النفاق»، و«مشروع ضراري»، و«ازدواج مؤسسي». وهذه العبارات ليست في رتبة واحدة، ولا يترتب عليها حكم عقدي واحد.

فالخصلة وصف لفعل محدد، والنمط وصف لتكرار مترابط، والمشروع الضراري وصف لوظيفة عمل منظم وآثاره، أما «الازدواج المؤسسي» فيقصد به انفصال القيم المعلنة عن القواعد الفعلية التي تكافئ نقيضها. وهو أدق هنا من نسبة النفاق إلى مؤسسة لا قلب لها ولا اعتقاد.

ولا يعني هذا الاصطلاح أن المؤسسة شخص مكلف يوصف بالنفاق الأكبر، ولا أن جميع العاملين فيها مشتركون في مقصد واحد، وإنما يحاكم النظام بقدر ما يثبته من حوافز وأعمال ونتائج.

وبذلك يبقى الحكم على الباطن منفصلًا عن تحليل السلوك، وتبقى مساءلة المؤسسة ممكنة من غير تحويل المصطلح الاجتماعي إلى حكم بالكفر.

الحادي عشر: ما يشبه النفاق وليس منه بالضرورة

دقة الكشف تقتضي ألا نضع كل السلوكيات المتشابهة في حكم واحد.

وهذا باب يحتاج إلى كبح الظن قبل أن يتحول التشابه إلى اتهام؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: 12]؛ فسلامة المنهج هنا لا تقوم على توسيع الاشتباه، بل على ضبطه حتى لا يُنسب إلى النفاق ما يحتمل تفسيرًا مشروعًا أو ضعفًا بشريًا.

المداراة – قد يلين الإنسان في خطابه دفعًا للشر أو تأليفًا للقلب، مع بقاء موقفه وميزانه ثابتين. وهذه غير المداهنة التي يترك فيها الحق طلبًا للمصلحة.

تغير الاجتهاد – قد يغير الإنسان رأيه لظهور دليل جديد أو تغير في الواقع. وهذا غير التلون الذي يتغير فيه الموقف بتغير الجمهور والمصلحة.

الخوف الطبيعي – قد يخاف المؤمن ويتردد، ولا يكون ذلك نفاقًا. وإنما الخطر حين يحول خوفه إلى تشكيك في الحق وتثبيط للآخرين وتبرير للخيانة.

العجز الحقيقي – قد يعجز الإنسان عن واجب، ويكون صادقًا في عذره. وهذا غير تحويل غياب الإرادة إلى ادعاء غياب القدرة.

الخطأ في تقدير المصلحة – قد يظن المصلح أن فعلًا نافع وهو ضار. ولا يصير منافقًا لمجرد الخطأ، ما دام صادق القصد، مستعدًا للمراجعة، لا يكذب ولا يحمي مصلحته.

النقد المشروع – النقد قد يكون شديدًا وصريحًا، ولا يكون إرجافًا. والفرق أن النقد يثبت، ويحدد، ويسعى إلى الإصلاح، أما الإرجاف فيهوّل ويعمم ويسلب القدرة على الفعل.

ستر الخصوصية – ليس الصدق أن يكشف الإنسان كل ما في نفسه للناس. فالخصوصية حق، والنفاق ليس في ستر ما لا يجب إظهاره، بل في إظهار هوية وموقف يناقضان الحقيقة بقصد الخداع.

وهذه الفروق تمنع الكتاب من التوسع غير المنضبط، وتجعل كشفه أكثر قوة؛ لأن الوصف إذا اتسع حتى شمل كل شيء فقد دقته وأثره.

الثاني عشر: لماذا ندرس النفاق اليوم؟

قد يظن بعض الناس أن الحديث عن المنافقين متعلق بمجتمع المدينة الأول، أو أن هذا الباب لا يفتح إلا في كتب العقيدة والتفسير. لكن طرائق النفاق تتكرر؛ لأن دوافعها البشرية تتكرر:

11. الخوف؛ والطمع؛ وحب المكانة؛ والعداء المستور؛ والرغبة في الانتفاع من الأطراف المتعارضة؛ واستعمال القيم لحماية المصالح؛ وما يتغير هو الوسائل واللغة.

وقد تتجدد في الواقع وظيفة الضرار والتفريق في مشروع أو مؤسسة أو منصة يعلو اسمها بالخير، بينما تكشف الوقائع المتكررة أنها تجمع الناس على ولاء ضيق، أو تعزل الصادقين، أو تستعمل المقدس لحماية النفوذ، أو تجعل خدمة الخصم ثمرةً ثابتة لعملها. لا تُسمّى هذه الصورة «مسجد ضرار» لمجرد الشبه؛ وإنما يُرصد فيها ما ثبت من الوظائف التي علّمنا القرآن أن ننظر إليها وراء الاسم.

وقد تتجدد وظيفة الإرجاف في حملة رقمية تنطلق من خبر جزئي ثم تُبنى حوله صورة هزيمة كاملة، أو في تقرير يقتطع أشد الوقائع إثارة ويغفل ما يوازنها، أو في عشرات الحسابات التي تعيد مادةً واحدة حتى يظن المتلقي أنه أمام مصادر مستقلة. هنا يستطيع القارئ أن يرصد الوظيفة: تضخيم الخوف، وتعميم العجز، وتحويل الاحتمال إلى يقين، ثم دفع الناس إلى قرار تحت ضغط الصورة المصنوعة.

وقد يظهر الازدواج المؤسسي حين تكون لائحة العدالة معلنة للجميع، لكن الاستثناءات لا تتحرك إلا عند أصحاب النفوذ؛ أو حين تُمدح الشفافية في الخطاب العام ثم يُعاقب من يكشف الخلل داخليًّا؛ أو حين تُكتب الكفاءة معيارًا للترقية بينما يعرف العاملون أن القرب والولاء هما الطريق الحقيقي. عندئذ لا نقرأ الشعار وحده، بل نقارن بين القاعدة المكتوبة والقرار المتكرر.

وقد يتجدد التخذيل في خطاب يبدو شديد الواقعية: يجمع كل عناصر الضعف، ويسقط عناصر القدرة، ويصف كل محاولة بأنها متهورة قبل بحثها، ثم لا يترك للناس إلا القعود بوصفه الحكمة الوحيدة. وليس كل تحذير تخذيلًا؛ وإنما يُرصد المسلك حين يصبح اتجاه الخطاب ثابتًا نحو تعطيل الواجب وإغلاق أبواب الفعل، ولو تغيّرت الحجج.

وقد يظهر الخطاب المزدوج حين تُقال للجمهور الداخلي مبادئ حاسمة، ثم تُرسل إلى جمهور آخر التزامات تناقضها؛ أو حين يُطمأن الممول بشيء، والعاملون بشيء آخر، والجمهور بشيء ثالث. اختلاف الأسلوب مشروع، أما اختلاف الحقيقة نفسها فهو الذي يكشف الازدواج.

ولهذا لا تكفي معرفة الألفاظ القديمة إذا عجزنا عن رؤية الوظائف الجديدة. والكتاب لا يبحث عن نسخة حرفية من منافقي المدينة، بل عن الأنماط التي كشفها الوحي، حين تعود في أشكال معاصرة. والتنزيل الذي يريده هنا ليس مطابقة الأسماء، بل تدريب العين: ماذا قيل؟ ماذا فُعل؟ من الذي حُمِي؟

من الذي ضُرّ؟ هل تغيّر المعيار بتغيّر الطرف؟ هل تكرر الأثر حتى صار نمطًا؟ وبقدر ما تكون الإجابة موثقة يكون الرصد أبصر، من غير أن يتحول إلى دعوى في القلوب.

لكن هذا الربط بالواقع يجب أن يبقى منضبطًا. لا يذكر الأشخاص والجماعات لمجرد المخالفة، ولا تحوّل الآيات إلى سلاح سياسي، ولا تستعمل النصوص لإعفاء النفس والحلفاء من الميزان نفسه.

فأول من يجب أن يخضع للميزان هو من يحمله.

خاتمة المحور: تسمية المرض من غير أن نصاب به

النفاق من أخطر أمراض الإيمان؛ لأنه لا يعلن نفسه، بل يظهر في صورة الإيمان، ويستعمل اللغة التي يفترض أن تكشفه ستارًا يخفيه.

هو كفر في الباطن، وكذب في الهوية، وخيانة لثقة المجتمع، ومرض يزداد كلما حماه صاحبه بالتبرير، حتى يطبع على القلب ويقوده إلى الدرك الأسفل من النار.

وهو في الواقع ليس حالة فردية صامتة، بل قابل لأن يتحول إلى خطاب وشبكة ومؤسسة ومشروع إفساد يعمل من داخل الأمة.

ومع ذلك لا يجوز أن يدفعنا خطره إلى تجاوز العدل. فلا كل عاصٍ منافق، ولا كل متناقض كافر في الباطن، ولا كل نقد إرجاف، ولا كل خطأ مشروع ضرار.

والميزان الذي يحكم الكتاب كله يقوم على أن الوحي هو الذي يُعرِّف النفاق ويحكم عليه، وأن الأعمال والأنماط الظاهرة يمكن كشفها وتسميتها، وأن السرائر لا يجزم بها بالظن والتحليل، وأن مواجهة النفاق لا تكون بأخلاقه من الكذب والظلم والمعايير المزدوجة. لذلك نحتاج إلى الجرأة في تسمية الكذب والإرجاف والتخذيل وتوظيف الدين والمعيار المزدوج والعمل الذي يفرق المؤمنين، كما نحتاج في الوقت نفسه إلى الورع عن الجزم بلا بينة بأن شخصًا بعينه يبطن الكفر، أو أن جماعةً كاملة من المنافقين، أو أن كل مخالف عدو للدين.

فالسكوت عن العمل يحمي النفاق، والتسرع في الحكم على الأشخاص يصنع بيئة النفاق نفسها.

ومن هنا تبدأ رحلة الكتاب: نعرف حقيقة المرض، ونفرق بين أنواعه، ونرى خطره على الإيمان والأمة، ثم ندخل إلى نفس المنافق وعقله وخطابه ومواقفه؛ لا لنتعلم سوء الظن، بل لنتعلم البصيرة.

فالبصيرة ترى العمل كما هو، والعدل يقف عند حدود ما ثبت، والصدق يجعل الإنسان أول من يعرض نفسه على الميزان الذي يحاكم به غيره.

ولا يترك القرآن هذا الباب عند الوعيد وحده، بل يفتح طريق الرجوع بعد ذكر الدرك الأسفل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146]؛ فاكتمال معرفة النفاق يقتضي أن يبقى الإصلاح والاعتصام بالله وإخلاص الدين حاضرًا مع الكشف والتحذير.

المحور الثاني: داخل نفس المنافق

الكفر المستور حين يعيد تشكيل الإنسان من الداخل

النفاق الأكبر ليس موقفًا سياسيًّا عابرًا، ولا مهارة اجتماعية في التكيف، ولا مجرد قدرة على إخفاء الرأي الحقيقي. إنه كفر مستور يتخذ من ظاهر الإسلام غطاءً، ثم يمتد أثره إلى رؤية الإنسان لنفسه ولربه وللمؤمنين وللحياة كلها.

وفي سياق أوائل البقرة لا يقف وصف المنافقين عند الدعوى والكذب، بل ينتقل إلى أثر ذلك في الإدراك والهداية: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ۝ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 17-18]؛ فتتحول خسارة الحقيقة التي استبدلوها بالصورة إلى ظلمة في البصيرة لا مجرد تعب من التمثيل.

فالمنافق لا يحمل اعتقادًا فاسدًا في زاوية معزولة من قلبه، ثم تبقى بقية شخصيته سليمة. إن ما يخفيه في باطنه يعيد تشكيل مخاوفه، ورغباته، وطريقة فهمه للأحداث، ونظرته إلى الناس، وعلاقته بالحقيقة، وقدرته على الصدق مع نفسه، وموقفه من قوة المؤمنين وضعفهم، واستعداده للثبات أو الفرار.

ومن هنا يأتي تحليل نفسية المنافق بعد البيان الشرعي، لا قبله ولا بدلًا منه. فالقرآن هو الذي سمى مرض القلوب، وسوء الظن بالله، والخوف، والحقد، والتذبذب، والخشية من الانكشاف؛ وهذه ليست نتائج اختبار نفسي، بل معالم كشفها الوحي نفسه. وما يفعله هذا المحور هو تتبع بعض ما قد تصنعه هذه المعالم في الهوية والشعور والإرادة، مع إبقاء الحجة التي يصوغها العقل، والعبارة التي تخرج إلى الناس، والموقف الذي تكشفه الكلفة لوظائفها في المحاور التالية.

ولذلك يبقى التحليل هنا في مرتبته: لا نعيد تعريف النفاق بمصطلحات علم النفس، ولا نفسر الآيات من خلال نظرية بشرية حاكمة، ولا نجعل القلق أو التبرير أو الانحياز بدائل عن ألفاظ القرآن: المرض والكذب والخوف والتذبذب والكراهية. كما لا نجزم بما في قلب شخص بعينه اعتمادًا على تحليل سلوكه؛ فالتحليل يشرح احتمالًا في الحركة، أما حقيقة النفاق وحكمه فمردهما إلى الوحي.

البداية إذن من الوحي نفسه، والعلوم النفسية والاجتماعية لا تزيد على أن تساعدنا في فهم بعض الكيفيات التي تقع تحت ما كشفه: كيف قد تزيد الهوية المزدوجة كلفة الحراسة؟ وكيف قد يجر الكذب إلى خوف من الانكشاف؟ وكيف قد تستعمل النفس التبرير لحماية صورتها؟ وكيف قد تؤثر الجماعة في تثبيت الرواية التي يتواطأ أفرادها عليها؟ هذه أسئلة بشرية مفيدة، لكنها تأتي بعد أن عرّف القرآن المرض وسمى أعماله وحدد ميزانه.

فالقرآن لا يترك هذا المجال النفسي بلا بيان: يقول في أصل المرض ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]، ويكشف خوف الانكشاف بقوله ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: 4]، ويصف فقدان المركز بقوله ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: 143]، ويكشف انقلاب الشعور تجاه المؤمنين: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: 120]. وتجسد السنة التذبذب في صورة محسوسة، قال النبي ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة». رواه مسلم (2784). بعد هذا البيان تأتي اللغة النفسية لتشرح بعض الكيفية، لا لتنشئ حقيقة جديدة وراء النص.

ومن هنا يتحدد مجال هذا المحور من غير حاجة إلى قالب نظري جديد: يدل مجموع النصوص في المنافقين على أن فساد الباطن لا يبقى اعتقادًا مستورًا وحده، تظهر آثاره في الشعور والنظر والاختيار: مرضًا في القلب، وسوء ظن، وخوفًا، وحقدًا، وتذبذبًا، وإعراضًا. ودور التحليل أن يساعد على فهم بعض الروابط بين هذه الآثار، لا أن ينشئ سلسلة لازمة لم ينص عليها الوحي.

أولًا: كفر الباطن وانقسام الهوية

وتبدأ سورة البقرة من هذه الفجوة نفسها، لا من مظهر جانبي فيها: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8]. جملةٌ معلنة تحمل اسم الإيمان، ثم يأتي النفي القرآني فيقطع الطريق على أن تُفهم القضية تقصيرًا في كماله فحسب.

في هذه الآية تبدأ الشخصية المنافقة من أصلها: قول معلن، وحقيقة باطنة تناقضه.

ليس المنافق شخصًا فقد وضوح عبارته، بل شخص اختار أن يعيش بهوية لا تمثل قلبه. فهو في الظاهر عضو في المجتمع المؤمن، وفي الباطن رافض لحقيقة الإيمان أو مبغض لها أو متربص بأهلها.

ومن جهة التحليل النفسي، لا يبقى هذا الانقسام ساكنًا؛ فحراسة صورتين متعارضتين قد تجر صاحبها إلى مراقبة ما قاله لكل طرف، والانتباه إلى الكلمات التي قد تكشف تناقضه، وضبط العلاقات المتعارضة، وصناعة تفسير لكل تناقض يظهر، ثم تعديل الصورة كلما تغير الجمهور. هذه آلية محتملة تشرح الكلفة النفسية للازدواج، وليست وصفًا قرآنيًّا تفصيليًّا لكل منافق.

فالإنسان الصادق يستطيع أن يخطئ في كلامه، لكنه لا يحتاج إلى بناء حياة كاملة لحراسة الخطأ. أما المنافق فيحتاج إلى نظام متصل من الكذب؛ لأن سقوط تفصيل واحد قد يكشف البناء كله.

ومن هنا يتحول النفاق من موقف عابر إلى هوية منقسمة: صورة معلنة ينتفع بها صاحبها، وحقيقة خفية ينتمي إليها، ومسافة بينهما يحرص على أن تبقى بعيدة عن أعين الناس. وكلما اتسعت هذه المسافة احتاج إلى مزيد من الحراسة والكذب.

وقد يظن المنافق أن هذا الانقسام يمنحه حرية الحركة؛ لأنه يستطيع مخاطبة كل فريق بلغته، لكنه في الحقيقة يسلبه الحرية الداخلية. فهو لا يقول ما يعتقد، ولا يعيش كما يريد، ولا يطمئن إلى من حوله، ولا يستطيع أن ينسى صورته لحظة واحدة.

إنه يختار الخداع ليحصل على الأمان، ثم يصبح الخداع نفسه مصدر قلقه.

وبعد هذا الوصف القرآني يمكن للتحليل النفسي أن يصف بعض الآثار المحتملة للحياة بهويتين: المراقبة المستمرة للذات، والخشية من كشف التناقض، والضغط الناتج عن محاولة ضبط صور متعددة أمام جماهير مختلفة. لكنه يقف عند هذا الحد؛ فالقرآن يكشف ما هو أعمق من الضغط النفسي: فساد الأصل الذي جعل صاحبه يحتاج إلى هذه الوجوه كلها.

فالمشكلة ليست أنه متعب من التمثيل، بل أنه اختار أن يجعل الإسلام قناعًا، لا حقيقة تسكن قلبه.

ثانيًا: مرض القلب - حين يفسد إدراك الحق وإرادته -

لا يختار القرآن للباطن هنا لفظًا عابرًا، بل يسميه مرضًا قابلًا للزيادة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: 10]. فالخلل أصاب موضع التلقي والإرادة قبل أن يظهر في الجوارح.

ثم يأتي الوحي الذي يزيد المؤمن إيمانًا، فإذا بالقلب المريض يستقبله استقبالًا آخر: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: 125]. المشكلة إذن ليست في غياب البيان، بل في قلب يفسد طريقه إلى البيان.

مرض القلب في سياقات النفاق ليس حزنًا عابرًا ولا اضطرابًا نفسيًّا طبيًّا، ويدل السياق على أنه فساد يتعلق بتلقي الحق وإرادته والاستجابة له:

فلا يرى الحق حقًّا كاملًا، ولا يحبه إذا ظهر، ولا يطمئن إليه، ويجد في نفسه نفرةً من مقتضياته، ثم يبحث عن تفسير يحمي هذه النفرة.

القلب السليم قد يضعف عن بعض ما يعرف، لكنه يبقى محبًّا للحق، معترفًا بحكمه، نادمًا على مخالفته.

وهنا يظهر البناء المقابل: ليست سلامة القلب في ألا تعصف به مخاوف ولا شهوات، بل في أن يبقى مرجعه فوقها. فإذا خاف رد خوفه إلى وعد الله، وإذا أخطأ لم يغير اسم الخطأ، وإذا ثقل عليه التكليف لم يجعل ثقله حجة على الشرع. وحسن الظن بالله في هذا الموطن ليس تفاؤلًا ساذجًا، بل ألا يجعل العبد ضيق رؤيته للحاضر ميزانًا لصدق وعد ربه وحكمته. أما القلب المريض فيبدأ بتغيير نظرته إلى الحق نفسه حتى لا يبقى مطالبًا بالخضوع له.

وفي التحليل النفسي لهذا المسار، قد يعيد صاحب الهوى تسمية موقفه بما يحفظ صورته: فلا يقول إن ما أمر الله به يثقل عليه، بل يصفه بأنه غير مناسب للواقع؛ ولا يعترف بضعف ثقته بوعد الله، بل يستدعي اسم الواقعية؛ ولا يقر بأنه يقدم مصلحته على الدين، بل يحتج بأن الشرع جاء بحفظ المصالح. وهكذا يمكن أن ينتقل الهوى من مجرد مخالفة الحق إلى إعادة تفسيره حتى يبدو موافقًا للهوى.

وهنا ينتقل الخلل من مجرد مخالفة الحق إلى إعادة بناء الميزان نفسه.

ومن الممكن أن يتغذى هذا المرض من دورة متكررة: يسمع الإنسان ما يكشف خطأه، فيكون بين الاعتراف والرجوع وبين إضافة تبرير جديد. ومع تكرر التبرير قد يصير جزءًا من نظرته إلى نفسه وإلى الحق. هذه قراءة لآلية محتملة من آليات ازدياد المرض، وليست تفسيرًا وحيدًا للآية.

فإذا اختار الثاني، احتاج إلى حجة جديدة تحمي موقفه، ثم تتحول الحجة إلى قناعة، والقناعة إلى طريقة ثابتة في النظر.

ولهذا قال الله: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾؛ فالزيادة جزاء لاختيارهم الكذب والإعراض، لا ظلم ابتدائي لهم.

قد يبدأ الإنسان مدركًا أنه يتهرب من الحق، ثم يكرر تهربه حتى يفقد القدرة على رؤية تهربه بوضوح. وقد يعرف في أول أمره أن المصلحة الشخصية هي التي تحركه، ثم يبني حولها من اللغة والتبرير ما يجعله يظن أنه صاحب الموقف الأخلاقي الأعلى.

وهنا يظهر أخطر آثار مرض القلب:

لا يعود المنافق يخدع الآخرين فقط، بل يخسر القدرة على الصدق مع نفسه.

12. المنافق أمام الوحي - يسمعه ويكرهه ويخاف أن يكشفه -

لا يقتصر مرض المنافق على ضعف الاستجابة للوحي؛ بل يبلغ، في الصورة التي سماها القرآن، حدَّ كراهية ما أنزل الله، وهذه ليست فتورًا عابرًا، بل فساد يضرب أصل الإيمان.

وهنا يبلغ مرض التلقي حدًّا لا يصح اختزاله في فتور أو مشقة طاعة؛ فالقرآن يقول: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: 9]. إنها كراهية للمنزَّل نفسه، ولذلك جاء أثرها في أصل العمل لا في بعض أطراف السلوك.

وهذا هو الحد الذي يجب ألا يضيع: ثقل الطاعة على النفس شيء، وكراهية ما أنزل الله من حيث هو وحيه وشرعه شيء آخر.

والمؤمن قد تثقل عليه طاعة، أو يغلبه هواه، لكنه يعلم أن حكم الله خير، ويكره من نفسه تقصيرها. أما الكراهية التي وصفها القرآن فشيء آخر: أن يكره الإنسان ما أنزل الله من حيث هو وحيه وشرعه، أو

يكره حكمه لأنه حكم الله، وحينئذ لا يكون الوحي في قلبه مرجعًا محبوبًا يُخضع له الهوى، بل يصبح ما يريد دفعه أو تعطيله.

وفي سورة محمد صورة أخرى لعلاقة لا يثمر فيها السماع فقهًا، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: 16]. كانوا في مجلس النبوة، لكن قرب الأجساد من الوحي لم يصنع قرب القلوب منه.

فالسماع هنا لم يتحول إلى فقه، فقد يكون الإنسان في مجلس الوحي بجسده وقلبه خارجه، لا يسأل: ماذا يريد الله مني؟ بل ينتظر انتهاء الكلمة ليخرج منها كما دخل. وهنا يصبح الوحي مادة تمر على السمع، لا هداية تغير الاتجاه.

وهذا من أخطر آثار مرض القلب: أن يتحول الوحي من هداية إلى مادة تمر على السمع ولا تغير الاتجاه.

ثم يكشف القرآن صورة ثالثة:

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: 64].

المؤمن يخاف من الوحي لأنه يكشف له تقصيره ليصلحه، أما المنافق فيخاف أن يكشف الوحي حقيقته للناس.

فالفارق عميق:

13. المؤمن يخاف من أن يبقى مرضه.

14. والمنافق يخاف من أن يظهر مرضه.

ولذلك إذا نزل القرآن بما يطالبهم بالرجوع، لم يكن الوحي عندهم دائمًا باب هداية، بل قد يكون لحظة ضيق يريدون الانصراف منها.

وفي لحظة نزول السورة يحول القرآن المعنى إلى مشهد: ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ﴾، ثم يأتي الحكم بعد الحركة الظاهرة: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 127]. عين تبحث عن منفذ للخروج، وخطوة تنصرف، وقلب يعاقب بالصرف عن الفقه.

وقوة المشهد في اقتران الانصراف الظاهر بصرف القلب عن الفقه والتذكر؛ فتتضح علاقتهم بالوحي في هذه السياقات: سماع لا يثمر فقهًا، وضيق بما يلزم، وخشية من الكشف، وانصراف عن مقتضى التذكر.

وهذه العلاقة أخطر من مجرد الجهل؛ لأن الجاهل قد يتعلم، أما من كره ما أنزل الله فقد أصبحت المشكلة في إرادة القلب قبل نقص المعرفة.

أما كراهية ما أنزل الله من حيث إنه وحي الله وشرعه فهي كفر يناقض أصل الإيمان، وقد رتب الله عليها إحباط الأعمال. وهذا غير كراهية النفس لمشقة طاعة أو ألم تكليف مع محبة حكم الله والإقرار بأنه الحق.

ومن التنزيل على واقع القراءة اليوم: قد يسمع الإنسان النص فلا يبحث عن مراده، بل عن مخرج منه؛ أو يقبل من الوحي ما يوافق هواه ويضيق بما يحد من مصلحته، ثم يحيط هذا الضيق بتفسيرات تبدو علمية أو واقعية. وهذه صورة تُوزن بالمعنى القرآني، ولا تجعل صاحبها بمجردها منافقًا أكبر.

والفارق بين المؤمن والمنافق هنا ليس أن المؤمن يفهم كل نص أو يطبق كل حكم، بل أن المرجع عند المؤمن يبقى أعلى منه. إذا عجز قال: ضعفت. وإذا أخطأ قال: أخطأت. وإذا لم يفهم بحث.

أما المنافق فلا يريد أن يكون للوحي سلطان حقيقي عليه؛ ولذلك قد يسمعه، لكنه لا يسمح له أن يغيره.

ثالثًا: الشك وسوء الظن بالله

قال الله تعالى عن المنافقين في غزوة الأحزاب: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

وقال عن فريق آخر: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: 154].

المنافق لا يعيش الإيمان بالغيب بوصفه حقيقة حاكمة، ولذلك حين تتعارض الوعود الإلهية مع ما تراه عينه، يميل إلى تصديق الخطر المرئي وتكذيب ما لا تدركه حواسه.

وفي الرخاء قد يستطيع أن يردد كلام المؤمنين؛ لأن الواقع لا يطالبه بالاختيار. لكن عند الشدة يظهر ما كان ساكنًا في قلبه:

15. هل يثق بالله؟

16. وهل يرى أن للطاعة معنى إذا لم تظهر فائدتها عاجلًا؟

17. وهل يظل وعد الله داخل تفسيره للواقع؟

18. أم أن ميزان القوة الظاهرة يمحو كل ما عداه؟

المنافق لا يكتفي بالخوف من العدو، بل ينتقل إلى سوء الظن بالله. وهذه نقلة شديدة الدلالة؛ لأن الخوف الطبيعي يتعلق بحجم الخطر، أما سوء الظن فيتعلق بحقيقة الإيمان.

فالمؤمن قد يرى الجيش أمامه ويخافه، لكنه لا يجعل الخوف دليلًا على أن وعد الله غرور. أما المنافق فيعيد تفسير الوحي نفسه من خلال ضغط اللحظة.

وتدل مشاهد سوء الظن في ساعات الكلفة على أن الخلل ليس سؤالًا ذهنيًّا مجردًا؛ ومن استنباطها أن القلب قد يضيق بوعد الله عند الشدة حتى يستبعده من تفسير الأحداث، وهي منزلة أخطر من التردد العارض الذي يطلب اليقين.

وقد تتجدد وظيفة هذا الخلل في خطاب يتحدث بلسان ديني في أوقات الاستقرار، ثم عند الأزمة يسخر من الثبات، ويصور الطاعة خسارة، ويجعل كل تضحية علامة سذاجة، وكل تمسك بالمبدأ عجزًا عن فهم موازين القوة. هذا تنزيل وظيفي على خطاب معاصر، لا دعوى تطابق مع أعيان واقعة النزول.

لا يعلن صاحبه أنه سيئ الظن بالله، لكنه يبني تحليله كله على فرضية واحدة:

لا قيمة إلا لما تضمنه القوة الظاهرة الآن.

وقد يكون تقدير القوة واجبًا، والأخذ بالأسباب من الدين، لكن المنافق يجعل الأسباب بديلًا عن الله، لا طريقًا لطاعته. فإن ضعفت الأسباب، سقط عنده معنى الحق كله.

والفرق بين الواقعية الإيمانية والواقعية المنافقة أن الأولى ترى الواقع كاملًا:

19. ترى القوة والضعف.

20. وتعرف السنن.

21. وتأخذ بالأسباب.

22. وتدرك احتمال الهزيمة العاجلة.

23. لكنها لا تجعل الهزيمة دليلًا على بطلان الطاعة.

أما الثانية فلا ترى من الواقع إلا ما يقاس بالمكسب القريب، ولذلك يصبح كل ما لا يضمن النتيجة العاجلة عبثًا.

رابعًا: الخوف من الانكشاف - حين تصبح كل حركة تهديدًا-

تكفي أربع كلمات من سورة – المنافقون - لتفتح المشهد النفسي كله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: 4]. فحين تقوم الهوية على سرّ يخشى صاحبه انكشافه، قد تتحول الأصوات من حوله إلى احتمالات تهديد.

هذه العبارة القصيرة تفتح بابًا واسعًا لفهم أثر الخوف من الانكشاف.

ومن جهة التحليل النفسي، قد يعيش صاحب الهوية المزدوجة الأخبار والأسئلة بقدر أعلى من الارتياب: فكل صوت قابل عنده لأن يكون بداية انكشاف، وكل سؤال قد يقرأه اختبارًا، وكل تغير في معاملة الناس قد يفسره بأنه دليل معرفة ما يخفي. هذه ليست تفاصيل نصت عليها الآية، لكنها تشرح احتمالًا نفسيًّا مناسبًا لوصف ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

هو لا يخاف الحدث وحده، بل يخاف الصلة التي قد يقيمها الناس بين الحدث وسره.

ولأن الكذب يحتاج إلى ذاكرة، يظل المنافق يراقب ما قاله ولمن قاله، وما الذي وصل إلى الآخرين، وما الذي قد ينكشف إذا اجتمعت الروايات المتفرقة، وهل سيبقى حلفاؤه أوفياء له. وهكذا يتحول الكذب الذي أراد به حماية نفسه إلى مصدر دائم للتهديد.

إن الصادق قد يخشى ظلم الناس أو إساءة فهمهم، لكنه لا يحمل في داخله سرًّا يهدم هويته المعلنة. أما المنافق فيعرف أن انكشاف الحقيقة لا يفضح خطأً منفردًا، بل يكشف أن علاقته كلها بالمجتمع قامت على الخداع.

ولهذا قد يكون شديد الحساسية تجاه النقد، سريع الدفاع، مبالغًا في إنكار ما لم يُتهم به صراحة، كثير القسم، شديد الاهتمام بما يقال عنه في المجالس المغلقة.

وقد يهاجم قبل أن يُهاجم؛ لأن الهجوم يمنحه لحظة يوجه فيها النظر بعيدًا عن نفسه. وقد يفتعل قضية جانبية كلما اقتربت الأسئلة من أصل تناقضه. وقد يبالغ في إثبات ولائه؛ لأن الولاء الطبيعي لا يحتاج عادةً إلى هذا القدر من العرض.

لكن هذه العلامات لا تكفي للحكم على شخص بالنفاق؛ فقد يكون شديد القلق، أو مر بتجربة ظلم، أو يخشى على سمعته بحق. الذي نصت عليه الآية هو خوف المنافقين من كل صيحة، أما تفسير كيفية تشكل هذا الخوف وآثاره التفصيلية فباب تحليل لا يجاوز النص إلى تشخيص الباطن.

ومن الآثار النفسية المحتملة لهذا النمط أن يبالغ صاحبه في تفسير أفعال الآخرين بالخداع؛ فمن اعتاد الخداع قد يسهل عليه أن يظنه في غيره، ومن يعيش بوجهين قد يثقل عليه تصديق الصراحة. هذه آلية بشرية ممكنة، لا وصف لازم لكل منافق.

وهكذا لا يبقى الشك متعلقًا بمن حوله، بل يتحول إلى عدسة يرى بها العالم كله.

خامسًا: الجبن والحذر من كل كلفة

وحين تنتقل الكلفة من الكلام إلى الخوف، يرسم القرآن الجسد نفسه وهو يفضح ما لا تقوله الخطب: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: 19]. لم يعد الخوف فكرةً تُحلَّل؛ صار مشهدًا يُرى.

ويكتمل المشهد بحركة الفرار نفسها: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: 57]. هنا لا يكتفي القرآن بتسمية الخوف، يكشف إلى أين يدفع صاحبه حين ترتفع الكلفة.

ليس كل خوف جبنًا، ولا كل جبن نفاقًا أكبر. لكن مشاهد القرآن تكشف في المنافقين خوفًا اقترن بسوء الظن والتخذيل والفرار عند الكلفة؛ ومن ذلك يستفاد أن فساد الاعتقاد قد يترك الخوف بلا المعنى الإيماني الذي يجعل التضحية محتملة.

المؤمن إذا خاف تذكر ما عند الله، ورأى أن حياته ليست القيمة العليا التي يضحى بكل شيء من أجلها. أما المنافق فمركزه الحقيقي هو نفسه، ولذلك يبدو له كل تكليف يهدد أمنه خسارة غير مفهومة.

إنه لا يخاف الموت وحده، بل يخاف فقدان المكانة وضياع المصلحة وانكشاف الحقيقة، ويخشى الوقوف مع جهة قد تُهزم أو تحمل تبعات موقف لا يعرف نتيجته. لذلك يبدو له كل التزام لا يضمن السلامة العاجلة مخاطرةً لا معنى لها.

ومن هنا يكون حذره زائدًا؛ لأنه يريد ضمانًا كاملًا قبل أن يلتزم، والإيمان بطبيعته يطلب من الإنسان أن يعمل أحيانًا قبل أن يرى تمام العاقبة.

وقد يتستر الجبن بلغة تبدو دقيقة ومحترمة: التريث، والحكمة، وعدم التورط، وقراءة المآلات، وحفظ المكتسبات. وهذه كلها معان صحيحة في مواضعها، لكن المنافق يستعملها لا لتقدير الموقف بصدق، بل ليصنع لنفسه مخرجًا دائمًا من كل موطن كلفة.

فإذا كان العمل يسيرًا شارك، وإذا ثقل أعاد تعريفه. وإذا كان النجاح قريبًا تقدم، وإذا ارتفع الخطر اكتشف فجأة أن الحكمة في التراجع. ثم لا يكتفي بحماية نفسه، بل يهاجم من ثبت؛ لأن ثباته يكشف أن الفرار لم يكن قدرًا محتومًا.

والمفارقة أن المنافق قد يكون جريئًا في الكلام شديدًا في الخصومة، لكنه ينهار عند الفعل. فهو شجاع حيث لا كلفة، حذر حيث تظهر حقيقة الشجاعة.

سادسًا: الحقد على المؤمنين وكراهية قوتهم

وأحيانًا لا يحتاج الباطن إلى اعتراف، تكشفه جهة الفرح والحزن. يقول الله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: 120]. إن حسنة المؤمنين نفسها تؤلمهم، والسيئة التي تنزل بهم تمنحهم فرحًا.

وفي التوبة لا يبقى هذا الشعور ساكنًا، إذا أصابت النبي ﷺ مصيبة أضافوا إلى الفرح روايةً تبرر موقفهم: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ ضمن قوله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: 50]. فالشعور هنا يلد تفسيرًا للموقف، لا مجرد انفعال عابر.

نص القرآن على حزنهم بحسنة المؤمنين وفرحهم بالمصيبة التي تنزل بهم. أما تفسير ما قد يغذي هذه المشاعر من تهديد للمكانة أو تضييق لمساحة الحركة أو انكشاف للتقصير، فهو تحليل محتمل يشرح بعض آليات الحقد ولا يساوي منطوق الآيات.

ولهذا تسوءه الحسنة التي تصيبهم، لا لأنها تضره دائمًا ضررًا مباشرًا، بل لأنها تقوي المعنى الذي يكرهه.

وقد يحمل الفرح بمصيبة المؤمنين وظائف نفسية متعددة: تأكيد رواية متشائمة، أو إضعاف من يخشى صاحبها تأثيرهم، أو فتح مجال للظهور، أو إعادة توزيع القوة لمصلحته. هذه احتمالات تحليلية؛ أما الحكم القرآني الصريح فهو ذم الفرح بمصيبتهم والحزن لحسنتهم.

وقد يظهر هذا في الواقع حين يحزن شخص لنجاح مشروع نافع لأنه لم يكن من صنعه، أو يفرح بخطأ مصلح لأنه يعيد إليه القدرة على الطعن فيه، أو يتمنى فشل مؤسسة من داخلها حتى يثبت أن قيادتها لا تصلح. وقد يُرى ذلك في الاجتماع حين يُستقبل إنجاز الخصم بالصمت ثم تُستخرج ثغرته فورًا، بينما تُضخّم من جماعته نتائج أقل؛ أو حين يُعطّل تعاون نافع لأن نجاحه سيُنسب إلى غيره. هذه الوقائع لا تكشف القلب وحدها، لكنها تجعل القارئ يرى انقلاب المعيار والمشاعر في السلوك بدل أن يبقى المعنى مجرد وصف داخلي.

قد لا يقول ذلك صراحة، بل يظهر حزنًا عامًا، ثم يركز على أن النتيجة أثبتت توقعه. وكلما ظهرت بادرة نجاح، بحث عن ثغرة تفسد معناها.

ومن الصور التي قد تنشأ مع هذه النفسية أن يثقل على الإنسان الاعتراف بخير عند من يخالفه، لأن الاعتراف قد يهدد الرواية التي بنى عليها موقفه. وقد يتجاوز نقد الخطأ إلى نفي كل فضيلة. وهذه صورة تحليلية محتملة، أما الثابت بالنص فهو حزن المنافقين لحسنة المؤمنين وفرحهم بمصيبتهم.

ومع ذلك لا يجوز الحكم على كل منافس أو ناقد بأنه حاقد منافق. فقد يختلف الناس بصدق، وقد يرى أحدهم ضررًا فيما يراه غيره نفعًا. وإنما يظهر الحقد المنافق حين يتكرر:

24. الفرح بالمصيبة؛ والحزن للنجاح؛ واستعمال معيار لا يطبق على الحلفاء؛ ورفض الاعتراف بالخير؛ والعمل على إفشاله لا تصحيحه.

والناقد الصادق قد يخالف المشروع، لكنه يفرح إذا تحقق الخير الذي كان ينشده، ولو ظهر خطؤه. أما صاحب الحقد فقد يفضل فشل الخير على أن ينجح على يد غيره.

سابعًا: الاستعلاء المستور والسخرية من المؤمنين

وحين يُدعون إلى الإيمان كما آمن الناس لا يجيبون بحجة، بل بقلب المعيار على المؤمنين أنفسهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾، فيرد القرآن الاسم إلى موضعه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13]. إن الاستعلاء هنا لا يكتفي برفض الطريق؛ يحتاج إلى تحقير من سلكه.

تكشف الآية استعلاءً في النظر إلى المؤمنين حين سُمّوا سفهاء. ومن تحليل هذا الاستعلاء أنه قد يرى الصادق ساذجًا؛ لأنه التزم بما آمن به، ودفع كلفة انتمائه، ولم يحتفظ لنفسه بوجه عند كل فريق.

في ميزان المنافق تبدو المرونة المطلقة ذكاءً، والثبات سذاجة، والتضحية ضعفًا في تقدير المصالح.

ومن هنا يسخر من المؤمنين؛ لأن وجودهم يهدد تفسيره لنفسه. فإذا كان الصادق شجاعًا، فهو جبان. وإذا كان الباذل مخلصًا، فهو بخيل. وإذا كان الثابت عاقلًا، فهو متلون.

وقد يخدم قلب المعايير - في بعض الصور - حماية النفس لصورتها: فيسمى الصدق سذاجة، والإخلاص طلبًا للشهرة، والثبات جمودًا، والورع عجزًا عن التعامل مع الواقع، والتضحية ضعفًا في تقدير المصلحة. وهذا احتمال يشرح وظيفة بعض السخرية، ولا يفسر كل استهزاء ولا يساوي الحكم القرآني عليه.

فبدل أن يسأل المنافق نفسه: لماذا لم أثبت كما ثبتوا؟ يقول: هم لا يفهمون. وبدل أن يعترف بخله، يتهم الباذل بالرياء. وبدل أن يرى شجاعتهم، يعيد تعريفها تهورًا.

ومن أخبث آثار هذه السخرية أنها تنتقل من نفس المنافق إلى المجتمع، فيصبح صاحب المبدأ محرجًا من مبدئه، ويُدفع الصادق إلى الدفاع عن صدقه، بينما يظهر المتلون في صورة الأكثر نضجًا وفهمًا.

وقد تعمل بعض البيئات على ترسيخ هذا الاستعلاء؛ فتصف من يرفض الدخول في العلاقات المشبوهة بأنه لا يفهم العمل، ومن يرفض الكذب بأنه غير مرن، ومن يطالب بمعيار واحد بأنه مثالي بعيد عن الواقع.

وحين تصبح الأمانة موضع سخرية، وتكافأ الازدواجية، تكون البيئة قد بدأت تكافئ خصالًا من النفاق العملي وتطبعها اجتماعيًّا، حتى لو لم يكن جميع أفرادها منافقين نفاقًا أكبر.

ثامنًا: التذبذب وفقدان المركز الداخلي

لا يجد هذا القلب مركزًا يستقر عليه؛ فسمى القرآن هذه الحالة فقال ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: 143]. ليست الصورة وقوفًا هادئًا بين خيارين، بل حركة لا تنتهي لأن الانتماء نفسه لم يحسم بالحق.

وتجسد السنة هذه الصورة القرآنية في مثل محسوس؛ قال النبي ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين؛ تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة». رواه مسلم (2784). فالحديث لا ينشئ معنى بعيدًا عن قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾، بل يحول التذبذب إلى صورة حية: حركة بين جهتين من غير مركز ثابت ولا انتماء صادق.

في هذا الموضع يظهر التذبذب من الداخل: ليس حيرةَ طالب حق، بل فقدان مركز ثابت ترجع إليه النفس عند تعارض المصالح؛ ولذلك يبقى الانتماء معلّقًا، ويصبح القلب قابلًا للشد من جهتين.

فالمنافق لا يستطيع أن ينتمي إلى المؤمنين بقلبه، ولا يريد أن يقطع صلته بأعدائهم، ولا يملك شجاعة الإعلان الكامل عن موقفه. ولذلك يبقى معلقًا بين الجهات، ينظر أيها أقوى وأنفع.

ومن جهة التحليل النفسي قد يُستعمل التذبذب - في بعض الصور - لإبقاء الخيارات مفتوحة ما أمكن، بدل أن يكون ألمًا يدفع صاحبه إلى حسم الموقف بالحق. أما الوصف القطعي فهو ما سماه القرآن: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾؛ وما وراء ذلك من كيفية إدارة هذا التذبذب باب تحليل واستنباط.

لكن من لا يريد إغلاق أي باب لا يستطيع أن يدخل بابًا كاملًا.

ومن لا يدفع كلفة الانتماء لا يملك أمانه.

إن الإنسان يحتاج إلى مركز داخلي يعود إليه عندما تتغير المواقف. والمؤمن يملك أصلًا حاكمًا: رضا الله، وإن ضعف في تنزيله. أما المنافق فمركزه هو المصلحة المتحركة، ولذلك يتغير مع تغيرها.

يظهر مع المؤمنين إذا كانت القوة لهم، ويحفظ صلته بخصومهم إذا توقع تغير الحال. يعلن قيمة أمام جمهور، ثم يبدلها أمام جمهور آخر. وليس اختلاف عبارته ناتجًا عن فقه الدعوة أو مراعاة الأحوال، بل عن غياب الحقيقة الواحدة.

وقد يمنحه ذلك نجاحًا مؤقتًا في التنقل بين الأطراف، لكنه يسلبه القدرة على بناء ثقة عميقة مع أي طرف؛ لأن من يعرف أنه يتلون لغيره يعلم أنه قد يتلون عليه.

وهنا تظهر مفارقة النفاق:

يريد المنافق أن يحتفظ بالجميع، لكنه لا يستطيع أن يمنح أحدًا سببًا كاملًا للثقة به.

تاسعًا: خداع النفس - حين تتحول الحيلة إلى رؤية للعالم -

وهنا يعود القرآن إلى أخطر ضحايا الخداع: صاحبه نفسه، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: 9]. فالحيلة التي وُلدت لحماية الصورة قد تنتهي بتغيير الطريقة التي يرى بها الإنسان نفسه.

كيف يخدع الإنسان نفسه وهو يعرف ما يقول ويفعل؟

يبدأ خداع النفس من لحظة صغيرة: لا يحتمل الإنسان أن يسمي دافعه باسمه. قد يحركه خوف أو طمع أو حقد أو طلب مكانة أو رغبة في الانتقام، لكنه يختار لنفسه قصة أكرم: حماية الجماعة، أو مراعاة المصلحة، أو كشف الحقيقة، أو الحرص على الناس من الفتنة. ثم تتكرر القصة حتى لا تعود مجرد عذر يقوله؛ تصبح النافذة التي يرى نفسه من خلالها.

وقد يكون في هذه العبارات جزء من الحقيقة، ولذلك تكون الحيلة أدق؛ فالمشكلة ليست أن كل التفسير مختلق، بل أن الجزء المريح يُقدَّم حتى يحجب الجزء الذي يدين صاحبه. ومع التكرار يسبق التبريرُ المراجعةَ نفسها؛ يدخل الإنسان الموقف الجديد وقد أعدت نفسه براءتها قبل أن تسأل السؤالين اللذين يوجعانها: ماذا أردت؟ وماذا فعلت؟

وهذا ما يمكن أن تصفه العلوم النفسية بالتبرير الذاتي أو الانحياز للمصلحة، لكن القرآن يربط الأمر بمرض القلب والكذب والإعراض. فالمشكلة ليست انحيازًا معرفيًّا محايدًا، بل استعمال العقل في حماية فساد الإرادة.

العقل في الإنسان السليم يساعده على كشف الهوى، أما في النفاق فيتحول إلى محام يدافع عن الهوى.

وقد يبلغ خداع النفس درجة يعجز معها المنافق عن فهم سبب كراهية الناس له؛ لأنه لا يرى من أفعاله إلا التفسير الذي صنعه لها. يفرقهم ثم يصف نفسه بالمصلح، ويخذلهم ثم يصف نفسه بالحكيم، ويخونهم ثم يرى أنه حمى مصلحة أعلى.

ولذلك قال الله في مواضع: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾، و﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾. ودلالتهما في هذه السياقات أعمق من مجرد نقص المعلومات؛ إذ قد يفسد ميزان الإنسان حتى لا يرى حقيقة ما يصنعه كما ينبغي.

وأخطر الكذب ما لا يعود صاحبه يراه كذبًا.

25. حين يمنع الكبر التوبة وتغطي الأماني المصير

قد ينكشف خطأ الإنسان، وتفتح له أبواب الرجوع، ويبقى مع ذلك على ما هو عليه؛ لأن المشكلة لم تعد في غموض الحق، بل في كلفة الاعتراف به.

وقد يُفتح باب الرجوع نفسه، فلا تكون المشكلة في غيابه بل في كلفة العبور منه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: 5]. حركة الرأس هنا تقول شيئًا لا يحتاج إلى شرح طويل: الاستكبار يصد صاحبه عن باب كان يمكن أن ينقذه.

كان باب الاستغفار مفتوحًا، لكن الرجوع يتطلب منهم أن يأتوا معترفين، وأن تسقط الصورة التي بنوها لأنفسهم.

ففضلوا حماية الكبرياء على إنقاذ القلب.

وهذا من أخطر تحولات النفاق: أن يصبح الاعتراف بالخطأ في نظر الإنسان أشد ألمًا من الاستمرار فيه.

قد يعلم أن الرجوع خير، لكنه يخشى أن يخسر مكانته، أو يعترف بأن خصمه كان محقًّا، أو يهدم رواية عاش سنوات يدافع عنها، أو يرى الناس فيه ما حاول إخفاءه. وحينئذ لا يعود مانع التوبة نقص الدليل، بل كبر النفس الذي يجعل سقوط الصورة أشد عليه من بقاء المرض.

قال تعالى في حوار المؤمنين والمنافقين يوم القيامة: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: 14].

إنها سلسلة متصلة: فتنة للنفس، ثم تربص وشك وأماني وتسويف، حتى يأتي الموت. وقد يؤجل المنافق المراجعة مرة بعد مرة حتى يصبح التأجيل نفسه طريقًا إلى المصير الذي كان يظن أن أمامه وقتًا لتجنبه.

فالمنافق لا يعيش دائمًا وهو يقول لنفسه: سأبقى على هذا الطريق حتى أموت. قد يقول: سأراجع لاحقًا. أو: إن الأمور ليست بهذا السوء. أو: رحمة الله واسعة. أو: لا يزال في العمر وقت.

وهكذا يتحول الرجاء في رحمة الله من دافع يحث على التوبة إلى ستار يحمي الإصرار.

الرجاء الصادق يقود إلى الله، أما الاغترار فيستعمل اسم الله ليهرب من الرجوع إليه.

ثم يبلغ خداع النفس ذروته يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [المجادلة: 18].

ويكشف مشهد الحلف في موطن لا تنفع فيه الصورة أن الكذب قد يرسخ حتى يصير حاضرًا في بنية التعامل، لا مجرد أداة عارضة تنتهي بانتهاء الموقف.

ومن هنا يمكن استنباط معنى تربوي خطير: تكرار الكذب لا يبقى بالضرورة أداة خارجية، بل قد يتحول إلى استجابة تلقائية في التعامل مع الحقيقة، حتى يصعب على صاحبه الرجوع إلى الاعتراف المباشر.

ثم يبين القرآن الأصل الأعمق: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: 19].

وفي التحليل الإيماني والنفسي، حين يغيب استحضار نظر الله قد يطلب الإنسان حمايته في أشياء أخرى: صورة أمام الناس، أو جماعة تؤيده، أو قوة يسند إليها نفسه، أو حجة يدفع بها الحقيقة، أو كذبة جديدة تحرس ما قبلها. أما الذكر فيعيده إلى حقيقة لا يستطيع تزويرها: أن الله يعلم السر وأخفى.

ومن هنا تحتاج التوبة من النفاق إلى شجاعة مزدوجة: شجاعة مواجهة الله بالندم، وشجاعة مواجهة النفس بالحقيقة. وقد يكون الاعتراف مؤلمًا، لكنه الألم الذي ينقذ؛ أما الإصرار على حماية الصورة فقد ينتهي بأن تبقى الصورة في أعين الناس وتسقط الحقيقة في القلب.

عاشرًا: الطبع على القلب - نهاية طريق الرفض المتكرر -

ولا ينتهي الطريق دائمًا عند كذبة أخرى أو عذر آخر، قد يبلغ القلب طورًا يعاقب فيه على مساره: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: 3]. فالطبع يأتي هنا في سياق اختيارٍ سبق، لا كحادثة بلا تاريخ.

يربط النص بين الإيمان ثم الكفر ثم الطبع على القلب؛ فالطبع هنا ليس حادثة منفصلة عن المسار الذي سبقها، بل عقوبة تأتي بعد اختيار الكفر والإصرار عليه.

ويمكن تحليل بعض الطريق المؤدي إلى الاستغلاق على هذا النحو: يسمع الإنسان الحق فيرفضه لمصلحة، ثم يحتاج إلى تبرير رفضه، ثم يكرر التبرير حتى يألفه، فيغدو الدليل الجديد تهديدًا لهويته ومكانته قبل أن يكون فرصة للمراجعة. هذا وصف لآلية ممكنة، لا ترتيبًا تفسيريًّا منصوصًا في الآية.

وهكذا لا يفقد القدرة العقلية، لكنه يفقد الفقه الذي يربط المعرفة بالهداية.

قد يحفظ النصوص، ويجادل، ويفهم مصالح الناس، ويحلل المواقف، لكنه يعجز عن رؤية الحقيقة الأقرب إليه: أنه يهلك نفسه وهو يظن أنه يحميها.

والطبع على القلب يدل على حجب الفقه والانتفاع بالحق، لا على غياب السمع الحسي أو رؤية الوقائع. ومن ثمرته أن تمر الأدلة ولا تبلغ من القلب مبلغ الهداية والاستجابة.

وهنا تكون العقوبة من جنس العمل:

26. لما أغلق على نفسه باب الصدق، أُغلق عنه باب الفهم.

27. ولما جعل الوحي أداة للمصلحة، لم يعد ينتفع به.

28. ولما خاف على صورته أكثر من خوفه على قلبه، بقيت الصورة وسقط القلب.

ومن هنا تظهر خطورة تأخير التوبة. فكل رجوع مؤجل يحتاج لاحقًا إلى هدم طبقات أكثر من الكذب والمصالح والعلاقات.

وقد يكون الاعتراف في البداية خسارة لموقف، ثم يصبح بعد سنوات خسارة لهوية كاملة صنعها الإنسان لنفسه.

الحادي عشر: الجماعة التي تحمي النفس من الاعتراف

والنفس التي تهرب من الاعتراف قلّما تعمل وحدها طويلًا؛ فالقرآن يلفت إلى رابطة تتجاوز الفرد: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 67]. ومن هنا يصبح السؤال الاجتماعي مهمًّا: ماذا يحدث حين يجد التبرير من يردده، ويحميه، ويمنحه لغة مشتركة؟

ولا تعمل النفس في فراغ؛ فمن جهة التحليل الاجتماعي، قد يجد صاحب التبرير جماعة تؤكد روايته، وتمنحه لغة مشتركة تبرئه، وتحميه من مواجهة نفسه.

وحين يجتمع أصحاب المصالح المتشابهة، يصدِّق بعضهم رواية بعض، ويمنحون التخاذل اسم الحكمة، ويحولون الحقد إلى نقد، ويجعلون الشك دليل نضج، ويسخرون من الصادقين حتى يبدو صدقهم شذوذًا، ثم يخففون عن بعضهم ألم التناقض. وهكذا تتحول الجماعة من صحبة إلى جهاز تبرير يحمي الفرد من مواجهة نفسه.

والإنسان إذا سمع كذبته من أفواه متعددة، قد يشعر أنها أصبحت حقيقة مستقلة عنه.

ومن هنا يمكن أن يتجاوز أثر الجماعة التعاون الخارجي إلى صناعة بيئة تفسيرية تخفف شعور الفرد بالتناقض والذنب. وهذه آلية اجتماعية عامة قد تخدم النفاق أو غيره بحسب المحتوى والدليل.

قد يعرف أحدهم في البداية أنه خان أمانة، ثم يسمع من رفاقه أن ما فعله حماية للمشروع. ويعلم الآخر أنه ظلم خصمه، ثم يقنعه المحيطون بأن الخصم لا يستحق العدل. ويعرف ثالث أنه فر من الكلفة، ثم يسمع أن العقلاء كلهم فعلوا ذلك.

وفي المقابل قد تكشف صحبة الصادقين للإنسان ما يحاول إخفاءه؛ لأن الصادق لا يشتري رضاه بالكذب ولا يساوي بين خطئه وصوابه. وقد ينفر صاحب التبرير من البيئة التي تلزمه بالمراجعة، ويميل إلى البيئة التي تمنحه شرعية بلا تغيير؛ وهذا تحليل لسلوك محتمل لا حكم على قلب بعينه.

الثاني عشر: ما الذي يبقى للتحليل النفسي والاجتماعي بعد بيان الوحي؟

بعد أن سمى الوحي المرض وأعماله وآثاره، يبقى مجال مشروع لسؤال الكيفية: كيف تتفاعل هذه الصفات في النفس والجماعة؟ وما يأتي هنا تفسير احتمالي لبعض الآليات التي تنسجم مع الصفات التي كشفها الوحي، لا تقريرًا بأن كل منافق يمر بالمسار النفسي نفسه، ولا أن كل من ظهرت عليه هذه الآليات منافق.

فالمرجع قبل التحليل هو هذه النصوص وأمثالها: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10]، ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: 4]، ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [النساء: 143]، وقول النبي ﷺ في الصورة الحية للتذبذب: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين». رواه مسلم (2784). هذه النصوص هي التي تعين موضوع التحليل وحدوده؛ فإذا قال علم النفس: مراقبة للذات، أو خوف من الانكشاف، أو تبرير، بقيت هذه أوصافًا بشرية محتملة تحت النص، لا بدائل عنه.

ومن هنا يُستعان بالتحليل النفسي والاجتماعي بعد النص في شرح بعض الآليات المحيطة بما كشفه الوحي، مثل:

29. كيف تصنع الهوية المزدوجة مراقبة دائمة للذات.

30. وكيف يزيد الكذب الخوف من الانكشاف.

31. وكيف يحمي التبرير صورة الإنسان أمام نفسه.

32. وكيف تجعل الجماعة الانحراف طبيعيًّا.

33. وكيف يحول الخوف التفكير إلى البحث عن النجاة العاجلة.

34. وكيف تدفع الحاجة إلى المكانة الإنسان إلى تقليد لغة الجماعة التي لا يؤمن بها.

35. وكيف تعمل السخرية على حماية الشخص من المقارنة بالصادقين.

لكن هذه العلوم لا تستطيع أن تقرر:

36. أن شخصًا معينًا منافق نفاقًا أكبر.

37. أو أن كل قلق من الانكشاف دليل على الكفر.

38. أو أن التذبذب اضطراب نفسي يساوي النفاق.

39. أو أن النفاق مجرد مشكلة هوية أو توافق اجتماعي.

فالنفاق حكم شرعي على حقيقة عقدية، والوحي هو المرجع فيه.

والتحليل النفسي المقبول في هذا الكتاب هو الذي يظل تابعًا للفظ الشرعي ودلالته: لا يستبدل المصطلح القرآني، ولا يزاحم التفسير، ولا يحول «المرض» إلى مجرد اضطراب، ولا «الكذب» إلى آلية دفاع محايدة، ولا «التذبذب» إلى تشخيص نفسي. بل يشرح بعض الكيفيات البشرية التي قد تتحرك تحت الصفات والآثار، ويبقي حقيقة النفاق وحكمه وميزانه ومآله للوحي.

فإذا أراد التحليل أن يتجاوز هذه الحدود انقلب من خادم للنص إلى مزاحم له: الوحي يعرّف المرض ويسميه ويحكم عليه، والتحليل النفسي والاجتماعي يشرح بعض حركته وآثاره المحتملة ولا يستبدل به تعريفًا آخر.

الثالث عشر: ما يشبه هذه النفسية وليس منها بالضرورة

حتى يبقى التحليل منضبطًا، يجب التفريق بين نفسية المنافق الأكبر وبين حالات قد تشبه بعض مظاهرها.

المؤمن الذي يعاني ضعفًا وفتورًا – قد تثقل عليه العبادة، ويخاف، ويطلب ثناء الناس، لكنه يؤمن بالله ويكره ضعفه ويجاهد نفسه.

الإنسان القَلِق – قد يخشى نظرات الناس ويحسب بعض الكلام موجهًا إليه، لأسباب نفسية أو تجارب سابقة، ولا علاقة لذلك بالنفاق الأكبر.

المتردد في مسألة – قد يحتار الإنسان بين رأيين، أو يحتاج وقتًا ليتبين الحق، وهذا غير التذبذب القائم على انتظار الغالب.

من يراعي اختلاف الجماهير – قد يغير المتحدث أسلوبه ومقدار ما يشرح، من غير أن يغير مبدأه. وهذا غير الخطاب المزدوج الذي يقدم حقيقتين متناقضتين.

40. من يخفي رأيه خوفًا من ضرر

قد يكره الإنسان منكرًا في قلبه، ولا يستطيع إظهاره لخوف معتبر. وليس كل كتمان للموقف نفاقًا؛ فالنفاق الأكبر هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، لا مجرد السكوت أو المداراة.

من أخطأ في تفسير الواقع – قد يسيء المؤمن تقدير القوة والمصلحة، ولا يكون سيئ الظن بالله بالضرورة، ما دام يعظم الوحي ويقبل الرجوع.

والفروق لا تؤخذ من مظهر واحد، بل من مجموع الاعتقاد والموقف والنمط والقرائن.

الرابع عشر: كيف نحمي القلب من طريق النفاق؟

مع أن هذا المحور يتناول المنافق الأكبر، فإن المؤمن لا يقرأه لمراقبة الآخرين وحدهم. فخصال النفاق العملي تبدأ من مواضع صغيرة في النفس، وإذا أهملها الإنسان اتسعت المسافة بين قوله وفعله.

ومن أهم وسائل الحماية:

الصدق مع النفس – أن يسمي الإنسان دافعه الحقيقي قبل أن يصنع له اسمًا أجمل.

هل سكت حكمةً فعلًا، أم خوفًا على مكانته؟

هل اعترض نصحًا، أم لأنه لم يكن صاحب القرار؟

هل ترك العمل عجزًا، أم لأنه لم ير فيه مكسبًا؟

هل حزن للخطأ، أم فرح لأنه أصاب خصمه؟

السؤال الصادق يقطع الطريق على التبرير قبل أن يتحول إلى رؤية كاملة.

قبول الألم الناتج عن الاعتراف – الاعتراف بالخطأ يؤلم الصورة، لكنه يحمي القلب. أما الكذب فقد يحمي الصورة لحظةً، ثم يجعل كل حقيقة لاحقة تهديدًا لها.

عمل خفي لله – كلما كان للإنسان عمل لا يراه الناس، تعلم قلبه أن قيمته ليست محصورة في الصورة العامة.

41. صحبة من لا يجامل في الحق

الصديق الذي يبرر كل خطأ قد يكون أضر من العدو؛ لأنه يحرم الإنسان فرصة رؤية نفسه.

تطبيق الميزان على القريب والبعيد – من أعظم أبواب حماية القلب أن يسأل الإنسان: هل كنت سأحكم الحكم نفسه لو صدر الفعل من خصمي أو حليفي؟

42. الفرح بالحق ولو ظهر على يد غيره

الحقد يبدأ حين تصبح مكانة النفس أهم من ظهور الخير. ومن علامات السلامة أن يفرح الإنسان بنجاح الحق ولو لم يكن له فيه ذكر.

الدعاء والخوف من سوء الخاتمة – قال النبي ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء»، ثم قال: «اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك». رواه مسلم (2655). فلا يملك الإنسان ثباته بنفسه؛ ولذلك لا يغنيه علمه بالنفاق عن سؤال الله الإخلاص والسلامة.

خاتمة المحور: النفس التي فقدت حقيقتها

المنافق الأكبر لا يعيش كفرًا ساكنًا في قلبه، بل يعيش انقسامًا يعيد تشكيل شخصيته كلها.

لأنه أظهر غير ما أبطن:

43. احتاج إلى حراسة صورته.

44. وخاف من كل ما قد يكشفه.

45. وأساء الظن بمن حوله.

46. وجعل القوة الظاهرة ميزانه.

47. وحقد على المؤمنين لأن ثباتهم يفضحه.

48. وسخر منهم ليحمي نفسه من المقارنة بهم.

49. وتذبذب لأنه لم يملك مركزًا ثابتًا.

50. وخدع نفسه حتى فقد القدرة على رؤية خداعه.

51. ثم طبع على قلبه بعد الإصرار والإعراض.

إنه طلب بالنفاق أن يجمع منافع الجهات المتعارضة، فانتهى إلى فقدان الانتماء الحقيقي إلى أي جهة. وطلب الأمان، فعاش في خوف. وطلب المكانة، فصار عبدًا للصورة. واحتقر الصادقين، لأنه لم يحتمل أن يكون صدقهم شاهدًا على خيانته.

وخبث النفاق النفسي أنه لا يكتفي بأن يجعل الإنسان يفعل الشر، بل يعيد ترتيب إدراكه حتى يراه خيرًا، ويجعله محتاجًا إلى جماعة تؤكد له كذبته، وخطاب يحميه من الاعتراف، وعدو يحمل عليه مسؤولية فساده.

لكن القرآن لا يكشف هذه النفسية ليدعونا إلى ادعاء معرفة القلوب، بل ليمنحنا بصيرةً في الأعمال والطرائق، وليحذر المؤمن من بدايات الطريق في نفسه:

52. من كذبة يحمي بها صورته؛ ومن حقد يفرحه بفشل غيره؛ ومن خوف يعيد به تسمية الواجب؛ ومن معيار يتغير بحسب المصلحة؛ ومن صحبة تبرر له ما يعلم أنه باطل.

الفارق بين الصادق والمنافق ليس أن الصادق لا يضعف، بل أن له حقيقة يرجع إليها إذا ضعف. يعرف أن الحق فوقه، وأن الاعتراف أنجى له من التبرير، وأن خسارة الصورة أهون من خسارة القلب.

أما المنافق فيخاف على صورته حتى يفقد حقيقته.

ومهما أحكم الإنسان حراسة صورته، تبقى حقيقة الباطن مكشوفة لله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: 78]؛ وهذا يعيد العلاج إلى مركزه: الصدق مع من يعلم السر والنجوى، لا النجاح في إدارة انطباع الناس.

ومن هنا ينتقل الكتاب إلى المحور التالي: كيف يفكر هذا القلب المريض؟ وكيف يبني من مصلحته ومن خوفه ومن شكه منطقًا كاملًا يفسر به الدين والواقع؟

المحور الثالث: عقل المنافق ومنطقه في تفسير الواقع

حين يتحول العقل من طالب للحق إلى محامٍ عن الهوى

ليس المنافق بالضرورة قليل الذكاء، ولا عاجزًا عن فهم المصالح أو قراءة موازين القوة. قد يكون فصيحًا، سريع الحجة، واسع المعرفة بالناس، شديد القدرة على اكتشاف نقاط الضعف، بارعًا في تقديم موقفه في صورة عقلانية مقنعة.

لكن المشكلة ليست في مقدار ما يملكه من أدوات العقل، بل في الجهة التي تخدمها هذه الأدوات.

فالعقل السليم يبحث عن الحق، ثم يزن المصلحة والواقع في ضوئه. وتكشف نصوص المنافقين نمطًا آخر حين تصبح المصلحة والخوف والنتيجة العاجلة حاكمة على قبول الحق: سلامة النفس، أو المكانة، أو المال، أو رضا الجهة الأقوى، ثم تأتي الحجة لتخدم ما استقر في الإرادة. وهذه صياغة استنباطية لمجموع المشاهد القرآنية، لا جملة نسبها القرآن إلى كل منافق بعينه.

هو لا يسأل أولًا: ما الحق الذي يجب أن أخضع له؟

بل يسأل: ما الموقف الذي يحميني، وكيف أقدمه بوصفه الحق؟

ومن أصرح ما يكشف انتقال المصلحة إلى داخل الحكم على الحق قوله تعالى في الانتقائية عند التحاكم: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: 49-50]؛ فالمشكلة ليست قلة الحجة وحدها، بل قلبٌ يذعن إذا كان الحق له ويضيق حين يخشى أن يكون عليه.

ومن هنا لا يكون النفاق تعطيلًا للعقل، بل قد يكون تسخيرًا للعقل في خدمة قلب فاسد. يتحول الذكاء إلى قدرة على التبرير، والفصاحة إلى ستار، والمعرفة بالواقع إلى وسيلة لاستبعاد ما لا يخدم المصلحة، والنظر في المآلات إلى ذريعة لترك الواجبات.

إذا جمعت المشاهد القرآنية المتفرقة أمكن استنباط منطق يتكرر في قراءة المنافق للأحداث: تغليب المصلحة العاجلة، وسوء تقدير وعد الله عند الكلفة، والتربص بالنتائج، وقلب الأسماء، وتغيير الموقف بعد

ظهور الغلبة. وهذا الاستنباط نفسه يبقى مربوطًا بنصوصه، فلا يتحول إلى «نظرية نفسية» تفسر بها كل مخالفة. أما العبارات التحليلية مثل «الثبات تهور» و«التخاذل حكمة» فهي تفكيك لهذا المنطق بلغة معاصرة، لا ألفاظًا نسبها القرآن إليهم.

ومن القرآن نفسه تتكون هذه الخريطة: في الانتقائية ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: 49]، وفي التربص ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: 141]، وفي قلب الاسم ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: 11-12]، وفي تحويل خوف النفس إلى خطاب عام ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]، وفي جعل النصيب الشخصي ميزان الرضا ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58]. فالتحليل هنا يجمع حركة كشفتها النصوص، لا يفرض عليها قالبًا من خارجها.

إنه لا يرفض الدين دائمًا؛ بل يعيد تشكيله حتى يصبح تابعًا لمصلحته. ولا ينكر الواقع؛ بل ينتقي منه الجزء الذي يبرر خوفه. ولا يتخلى عن الأخلاق؛ بل يستعمل أسماءها لحماية ما يناقضها.

ومن هنا كانت دراسة منطق المنافق ضرورة؛ فالمقصود هنا ليس إعادة وصف الخوف أو الحقد في النفس، ولا وصف العبارة التي يسمعها الناس، بل تفكيك الطريقة التي يعاد بها ترتيب الأدلة والوقائع حتى يبدو الهوى في عين صاحبه حكمةً وضرورةً ومصلحة.

وإذا أردت جملةً تمسك خيط هذا المحور كله فهي هذه: المشكلة ليست دائمًا عجز العقل عن العمل، بل الجهة التي يُسخَّر لها. قد تعمل الحجة والمصلحة وقراءة الواقع بكفاءة، لكنها تعمل في خدمة الهوى والخوف والصورة. وهذه خلاصة تستنبط من المشاهد السابقة، وليست تعريفًا شرعيًّا مستقلًا للنفاق.

أولًا: المصلحة بوصفها مركز التفكير

المصلحة معنى معتبر شرعًا، والدين جاء بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. لكن المنافق لا يتعامل مع المصلحة بوصفها ميزانًا منضبطًا بالوحي، بل بوصفها مرجعه الأعلى الذي يعاد تفسير الوحي والواقع في ضوئه.

الفرق عميق:

53. المؤمن يسأل: ما المصلحة التي اعتبرها الله؟

54. والمنافق يسأل: ما الذي ينفعني، ثم كيف أجد له وصفًا شرعيًّا أو عقلانيًّا؟

ولفهم فساد العبادة المشروطة بالمنفعة يضع القرآن ميزانًا عامًا، لا وصفًا خاصًّا بالمنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الحج: 11]. إن الدين الذي يبقى ما دامت الكلفة منخفضة لم يصبح بعد المرجع الأعلى لصاحبه.

وموضع الاستفادة هنا هو هذا الميزان العام وحده؛ فالآية لا تختص بلفظها بالمنافقين، ولا يصح تحويل كل من دخل في معناها إلى منافق نفاقًا أكبر.

وتبين السنة من جهة أخرى قوة المال والشرف في إفساد الدين إذا استوليا على القلب؛ قال النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». رواه الترمذي (2376)، وقال: حديث حسن صحيح. والحديث لا يصف كل حريص بالنفاق، لكنه يضع ميزانًا نبويًّا يفسر لماذا تكون المصلحة والمكانة من أخطر ما يمتحن صدق الخضوع للحق.

فهو لا يجعل الإيمان أصلًا، والمصلحة أثرًا تابعًا، بل يجعل المصلحة اختبارًا لصدق الدين عنده:

55. إن نفعه قبله، وإن كلفه أعاد النظر فيه، وإن خالف هواه بحث عن مخرج، وإن وافق هواه رفعه بوصفه حكم الله، وهذا هو عقل الانتماء المشروط.

وقد يقبل المنافق الصلاة إذا كانت علامة احترام اجتماعي، ويرفض مقتضاها إذا منعته من الظلم. ويقبل الحديث عن الأمانة ما دامت لا تهدد مكسبًا، ثم يعيد تعريفها عندما تكون الخيانة طريقًا إلى البقاء. ويعظم وحدة الصف إذا كان هو في مركزها، ثم يراها استبدادًا إذا خرج القرار من يده.

إنه لا يملك موقفًا ثابتًا من القيمة؛ بل يملك موقفًا ثابتًا من مصلحته، ويغير أسماء القيم حولها.

ولهذا يمكن أن يدافع عن أمر اليوم بما هاجمه به بالأمس، دون أن يشعر بحاجة حقيقية إلى تفسير التناقض؛ لأن مركز التفكير لم يتغير. المصلحة هي الثابتة، أما الحجج فتتغير لتبقى خادمة لها.

ومن أخطر صور هذا المنطق أن تتحول «المصلحة العامة» إلى اسم للمصلحة الخاصة.

وقد يلبس هذا المنطق ثوب المصلحة العامة؛ فيقول المسؤول إن المقصود حفظ استقرار المؤسسة، بينما يكون همه الحقيقي حفظ موقعه فيها، وتقول جماعة إن الواجب حماية المشروع، بينما تريد حماية احتكارها له، ويطالب شخص بعدم إثارة الخلاف الآن، بينما يريد في الحقيقة تأجيل محاسبته حتى تنطفئ الواقعة.

ولا يلزم أن يكون كل من استعمل هذه العبارات كاذبًا؛ فقد تكون صحيحة تمامًا. وإنما يكشف المنطق المنافق حين لا يعود الإنسان قادرًا على تصور مصلحة عامة لا يكون هو مركزها، أو إصلاح لا يضمن له النفوذ، أو نجاح لا ينسب إليه.

والسؤال الكاشف ليس: هل يتحدث عن المصلحة؟

بل: هل يقبل المصلحة نفسها إذا خالفت منفعة نفسه وجماعته؟

فمن كان ميزانه ثابتًا قد يخطئ في تقدير المصلحة، لكنه يقبل المراجعة. أما المنافق فيغير تعريف المصلحة كلما تغير موقعه منها. وفي الواقع يُختبر هذا بميزان بسيط شديد الكاشفية: بدّل أسماء الأطراف في الواقعة، ثم اسأل هل يبقى الحكم نفسه؟ لو صدر القرار من خصمي، هل سأظل أسميه مصلحة؟ ولو عاد نفعه على غير جماعتي، هل سأدافع عنه بالحجة نفسها؟ هنا ينتقل معنى الآيات من فكرة إلى أداة ترى بها تبدل الميزان وهو يقع.

ثانيًا: الواقع المبتور - حين لا يرى العقل إلا ما يخدم الخوف -

تكشف مشاهد المنافقين قراءة مبتورة للواقع حين يحصرون النظر في الخطر العاجل أو الغلبة الظاهرة أو نصيب النفس. والمقصود هنا ليس الخوف بوصفه انفعالًا نفسيًّا، بل ما يفعله الخوف بطريقة النظر: ينتقي العقل من الواقع ما يخدم النتيجة التي يريدها، ثم يقدم الجزء الذي اختاره بوصفه الواقعية كلها.

في غزوة الأحزاب كانت الشدة حقيقية، والخطر عظيمًا، والمدينة محاصرة. لكن المنافقين لم يكتفوا برؤية الخطر، بل أعادوا تفسير الوعد الإلهي كله من خلاله: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

كان أمامهم واقع محسوس شديد الوطأة: أحزاب مجتمعة، وخوف، وأسباب مادية ضاغطة؛ وكان أمامهم أيضًا واقع إيماني لا يقل حقيقة: وعد الله، وصدق رسوله، ومعنى الابتلاء، وإمكان تغير الموازين. لكنهم اختزلوا الواقع في القسم الذي تراه العين، ثم جعلوا ما وراءه وهمًا.

وهذه ليست واقعية، بل مادية مبتورة؛ لأنها تتعامل مع الجزء الظاهر من الواقع بوصفه الواقع كله.

والمؤمن الواقعي لا ينكر قوة العدو ولا يستخف بالخطر، لكنه لا يلغي من حسابه أثر الإيمان وقوة المعنى وتغير الأحوال ومحدودية المعرفة البشرية وسنن الله التي لا تختصر في لحظة واحدة؛ كما لا يجعل الهزيمة الآنية دليلًا على بطلان الموقف، ولا النجاح المادي إثباتًا لعدالة صاحبه. أما المنافق فيقرأ الواقع قراءة خطية ضيقة تختزله في ميزان القوة الظاهرة.

الأقوى الآن سيبقى أقوى، ومن لا يملك أسباب القوة الظاهرة فلا معنى لثباته، ومن تحمل كلفة لا يرى عائدها العاجل فقد أخطأ الحساب.

ومن هنا يسخر من التضحية؛ لأنه لا يملك في ميزانه إلا الربح القريب. ويرى المبدأ عبئًا إذا لم ينتج مكسبًا سريعًا. ويعجز عن فهم أن بعض المواقف تحفظ الإنسان والأمة ولو ترتب عليها ضرر آني، وأن بعض المكاسب تهدم ما هو أعظم منها.

وقد يظهر هذا المنطق في شخص يصف كل موقف أخلاقي بأنه مثالي، وكل تمسك بالحق بأنه انفصال عن الواقع. فإذا قيل له: إن هذا الفعل ظلم، أجاب: هكذا تعمل الحياة. وإذا قيل: هذه خيانة، قال: السياسة لا تعرف العواطف. وإذا قيل: هذا الكذب يفسد الثقة، قال: الناس كلهم يفعلون ذلك.

إنه لا يصف الواقع ليفهمه، بل يستعمل انحراف الواقع ليمنح الانحراف شرعية.

وهنا تنتقل الواقعية من معرفة ما هو كائن إلى التسليم بأنه ما ينبغي أن يكون.

وقد يتحول الواقع نفسه إلى أداة ضغط أخلاقي: ما دام الفساد منتشرًا فلا معنى للأمانة، وما دام الأقوياء لا يلتزمون فلا مصلحة في الالتزام، وما دام الصادق قد يخسر فالكذب هو العقل، وما دامت الخيانة تحقق نتائج فالوفاء سذاجة. وهكذا يتحول وصف المرض من مقدمة لفهمه وإصلاحه إلى حجة تبرر التشبه به.

الواقعية الصادقة ترى الواقع لتعرف كيف تصلحه، أما الواقعية المنافقة فتراه لتجد فيه عذرًا كي تشبهه.

ثالثًا: النتيجة العاجلة بوصفها حكمًا على الحق

من أخطر ما في منطق المنافق أنه يجعل النتيجة المادية القريبة دليلًا على صحة الموقف أو بطلانه.

فإذا انتصر فريق قال: كان على حق أو كان أكثر حكمة.

وإذا خسر قال: كشفت النتيجة خطأ طريقه.

وإذا نجح المفسد قال: هذه هي الواقعية.

وإذا عوقب الصادق قال: لم يحسن قراءة الواقع.

وهذا خلط بين أمرين يجب أن يبقيا منفصلين: صلاح الموقف في نفسه، ونجاحه العاجل في الواقع. فقد يكون الموقف حقًّا ويخسر جولة، وقد ينجح الباطل زمنًا، فلا تكون النتيجة القريبة حكمًا أخلاقيًّا نهائيًّا.

فقد يكون الإنسان محقًّا ويخسر معركة، وقد يكون مبطلًا وينتصر زمنًا، وقد يكون القرار صحيحًا وتفشل نتائجه لعوامل أخرى، وقد يكون القرار فاسدًا ويحقق مكاسب قصيرة.

لكن عقل المنافق يحتاج إلى اختصار هذا التعقيد؛ لأن النتيجة تمنحه حجة سهلة:

انظروا ماذا حدث.

فهو لا يعود إلى الأصول التي حكم بها الموقف، ولا إلى البدائل الممكنة، ولا إلى دوره في النتيجة، بل يجعل النهاية الظاهرة حَكَمًا على كل شيء.

قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141].

لقد أعدوا لكل نتيجة تفسيرًا يحفظ لهم موضعًا: إن انتصر المؤمنون كانوا من المؤمنين، وإن نال الكافرون نصيبًا قدموا أنفسهم بوصفهم أصحاب فضل عليهم. وهكذا لا يسبق الموقفُ النتيجةَ عندهم، بل يعاد تشكيله بعدها.

لا يحتاج المنافق إلى التزام الحقيقة قبل الحدث؛ يكفيه أن يعيد ترتيبها بعد الحدث بطريقة تمنحه نصيبًا من النتيجة.

وفي التنزيل المعاصر تظهر هذه المغالطة حين يُجعل النجاح العاجل شهادةً بصحة الطريق، أو الفشل العاجل حكمًا ببطلانه، من غير فحص سلامة المعيار ولا بقية أسباب النتيجة. ليست هذه صورة مطابقة لواقعة بعينها، بل تنزيل لوظيفة جعل المآل القريب حاكمًا على الحق.

وقد يساهم في فشل مشروع بالتثبيط وسحب الدعم وتعطيل القرارات، ثم يجعل فشله دليلًا على صحة موقفه:

ألم أقل لكم إنه لن ينجح؟

لا يذكر أن جزءًا من الفشل نتج عن عمله؛ لأنه يحتاج إلى حذف نفسه من سلسلة الأسباب، ثم العودة في آخرها بوصفه المراقب المحايد.

وهذه من أخبث صور الاستدلال:

يصنع بعض أسباب النتيجة، ثم يستدل بالنتيجة على صحة ما صنع.

فإذا أضعف الناسَ ثم رآهم ضعفاء، قال: كنت أعرف أنهم ضعفاء. وإذا نشر الخوف ثم رآهم مترددين، قال: الواقع أثبت أن الثبات لم يكن ممكنًا. وإذا فرق الصف ثم رأى الاختلاف، قال: هؤلاء لا يمكن أن يجتمعوا.

وهكذا تتحول الخيانة إلى نبوءة تحقق نفسها.

رابعًا: التربص بالغالب - العقل الذي لا يريد أن يدفع كلفة الاختيار -

لا يجد هذا القلب مركزًا يستقر عليه، سماه القرآن ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: 143]. ليست الصورة وقوفًا هادئًا بين خيارين، بل حركة لا تنتهي لأن الانتماء نفسه لم يحسم بالحق.

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء: 141].

وبجمع وصف ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ مع مشهد ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ يظهر فرق مهم: التردد قد يكون طلبًا صادقًا للحق، أما التذبذب الذي تحكمه منفعة الجهة الغالبة فليس نقص معلومات فحسب، بل هروب من كلفة الاختيار.

إنه يريد أن يحتفظ لنفسه بمخرج في كل اتجاه؛ يظهر للمؤمنين ما يحفظ مكانه عندهم، ويحفظ صلته بخصومهم إذا تغيرت الموازين، ويتجنب الالتزام الكامل حتى لا يتحمل الخسارة، ثم ينسب نفسه إلى المنتصر بعد انكشاف النتيجة. هذه ليست حيرة تبحث عن الحق، بل استراتيجية مصلحية تتربص بالغالب.

وعندما ينتقل التذبذب إلى طريقة القرار، قد تصبح المنطقة الرمادية أداة لتأخير المحاسبة: كلما طلب موقف واضح استُدعيت تعقيدات جديدة، وكلما ظهرت حقيقة حاسمة نُقل النقاش إلى تفصيل آخر. وهذه آلية محتملة لا تجعل كل احتياط أو طلب لمزيد من البيان تذبذبًا منافقًا.

والتعقيد حقيقي في كثير من القضايا، ولا يجوز اختزال الواقع في ثنائيات ساذجة. لكن المنافق يستعمل التعقيد لا لفهم المسألة، بل لئلا يصل منها إلى نتيجة تلزمه.

إنه لا يقول:

لم يتبين لي الحق بعد.

بل يعمل في الوقت نفسه على ضمان مصالحه مع الأطراف كلها.

وقد نتعامل جهة مع جمهورين متعارضين، فتقدم لكل منهما خطابًا مختلفًا لا في أسلوب العرض، بل في أصل الالتزام. فإذا سئلت عن التناقض قالت: لكل مقام مقال.

مراعاة المقام مشروعة، لكن المنافق لا يغير العبارة؛ بل يغير الحقيقة.

ومن الصور المعاصرة التي تؤدي وظيفة التربص: تأخير النصرة حتى تتضح الغلبة؛ فإذا انتصرت القضية تقدم المتأخر في صف المؤيدين، وإذا ضعفت أكد أنه كان متحفظًا. يوزن هذا السلوك بقرائنه ووظيفته، ولا يُحكم على قلب صاحبه بمجرد التأخر.

هو لا يسأل:

متى يجب أن أنصر الحق؟

بل يسأل:

متى تصبح نصرة الحق آمنة؟

وهذا العقل قد يحقق لصاحبه مكاسب عاجلة، لكنه يفقده القدرة على بناء ولاء عميق؛ لأن من اعتاد انتظار الغالب لا يكون وفيًّا إلا للغلبة.

خامسًا: قلب المفاهيم - حين يصبح الاسم أداة لإخفاء الحقيقة -

وفي قلب المفاهيم يقدم القرآن المثال الذي لا يحتمل التجميل: يُنهَون عن الإفساد، فيجيبون ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فيرد الوحي الاسم إلى الحقيقة: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: 11-12]. حين تتغير الأسماء لا يتغير الفعل، لكن قدرة الناس على رؤيته قد تتغير.

ومن مجموع تسمية الإفساد إصلاحًا، وتبديل الأوصاف في مواضع أخرى، يستفاد أن المعركة قد تقع على الاسم كما تقع على الفعل؛ لأن الاسم المقبول يخفف وقع العمل في الوعي ويؤثر في الحكم الاجتماعي عليه.

إذا بقي الإفساد اسمه إفسادًا، قاومه الناس.

أما إذا سمي إصلاحًا، فقد يدافعون عنه.

وإذا بقي الجبن جبنًا، كان عارًا.

أما إذا سمي حكمة، صار موضع إعجاب.

وإذا بقي الإرجاف إرجافًا، حُذّر منه.

أما إذا سمي واقعية، صار صاحبه خبيرًا.

وفي الواقع تتجدد هذه الوظيفة حين تعاد تسمية الأفعال بما يحميها: فالانسحاب من واجب ثابت قد يسمى تقديرًا للمآلات، وترك النصرة حيادًا، وكتمان الحق حفظًا للمصلحة، وإقصاء الناصح حماية لوحدة الصف. والعبرة ليست باللفظ وحده، بل بثبوت الفعل وحكمه وملابساته؛ فقد تكون بعض هذه الأسماء صحيحة في وقائع أخرى.

ولا يعني ذلك أن هذه المصطلحات باطلة دائمًا؛ فقد يكون الحياد مشروعًا، والانسحاب حكيمًا، وحفظ السر واجبًا، ومراعاة الظروف ضرورة. إنما الخبث أن يستعمل الاسم الصحيح لتغيير الحكم على فعل لم تتغير حقيقته.

ومن جهة التحليل النفسي، لا تخدم إعادة التسمية نظرة الناس إلى الفعل فقط؛ فقد تخدم نظرة الإنسان إلى نفسه أيضًا. فمواجهة الجبن بوصفه جبنًا أشق من تسميته حكمة، ولذلك قد تتحول اللغة إلى ساتر داخلي بقدر ما هي ساتر خارجي.

ومن هنا يكون قلب المفاهيم عملية نفسية واجتماعية معًا: فهو نفسيًّا يحمي صورة الذات، واجتماعيًّا يعطل المحاسبة، وسياسيًّا أو مؤسسيًّا يمنح الفعل شرعية، وأخلاقيًّا يفسد قدرة المجتمع على التمييز. ولذلك لا تكون معركة الأسماء مسألة لغوية هامشية، بل جزءًا من حماية الوعي.

والمجتمع الذي تقبل فيه الأسماء المزيفة يفقد مع الزمن لغته الأخلاقية. فلا يعود يعرف أين ينتهي النقد ويبدأ التخذيل، وأين تنتهي الحكمة ويبدأ الجبن، وأين تنتهي المصلحة ويبدأ الهوى.

ولهذا يعيد القرآن الأعمال إلى أسمائها: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

فلا يكفي في مواجهة النفاق أن نرد على الحجة، بل لا بد أن ننزع عن الفعل الاسم الذي يحميه.

سادسًا: صناعة الضرورة - حين يصنع المنافق الأزمة ثم يبيع التنازل بوصفه الحل -

وفي تحليل بعض الأعذار والمواقف يمكن استنباط آلية «صناعة الضرورة»: ألا يقدم التنازل بوصفه اختيارًا له بدائل، بل بوصفه الطريق الوحيد الذي فرضه الواقع.

وقد حفظ القرآن نموذجًا شديد الكثافة لهذه الصناعة حين صيغ الفرار في صورة اتقاء للفتنة: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: 49]؛ فالعذر لم يغيّر حقيقة الفعل، بل أعاد تسميته حتى بدا لصاحبه وقايةً وهو عين السقوط الذي زعمه أنه يتجنبه.

فالإنسان قد يرفض الخيانة إذا عرضت عليه باسمها، لكنه قد يقبلها إذا قيل له إنها الطريق الوحيد لتجنب كارثة أكبر. وقد يرفض التنازل عن الحق، لكنه قد يقبله إذا أُقنع أن كل البدائل مغلقة.

وتعمل هذه الآلية - حين تقع - على مرحلتين:

1. يساهم في تضييق الخيارات.
2. ثم يقدم اختياره المفضل بوصفه الخيار الوحيد.

قد يثبط كل محاولة مبكرة للإصلاح، ويمنع الموارد، ويؤخر القرارات، حتى تتفاقم الأزمة. ثم يقول:

لم يعد أمامنا الآن إلا هذا الحل.

ولا يذكر أن بعض أسباب الضرورة صُنعت بفعله.

وقد يرفض تسوية عادلة في وقتها لأنها لا تمنحه مكسبًا كافيًا، حتى يشتد النزاع ويصبح المجتمع مستعدًا لقبول تسوية أسوأ. ثم يقدم نفسه بوصفه المنقذ الذي جاء بالحل الواقعي.

وقد يضعف المؤسسة بالتعيينات السيئة وحماية الفساد، ثم يقول إن ضعفها يفرض تركيز مزيد من السلطة في يده.

في كل هذه الصور تتحول النتيجة التي ساهم في صناعتها إلى حجة تمنحه نفوذًا إضافيًّا.

وهذا المنطق دائري؛ فقد يحتكر المسؤول القرار بحجة ضعف المؤسسة، ثم يساهم احتكاره في زيادة ضعفها، ليستعمل هذا الضعف بعد ذلك في تبرير مزيد من الاحتكار. وقد يمنع الصادقين بحجة أنهم لا ينسجمون مع المؤسسة، ثم يستدل بخلوها منهم على عدم وجود بديل موثوق، أو يشيع الخوف من التغيير حتى يتردد الناس، ثم يجعل ترددهم دليلًا على أن المجتمع غير مستعد له. فالمنافق لا يصف الضرورة فقط، بل قد يكون من صانعيها.

ولكي لا يبقى هذا المعنى نظريًّا، يمكن رصد «صناعة الضرورة» قبل لحظة الإعلان عنها: بدائل كانت ممكنة ثم أُغلقت، موارد كان يمكن توفيرها ثم حُجبت، أصحاب خبرة أُبعدوا، قرارات أُجّلت حتى ضاق الوقت، ثم ظهر من يقول: لم يعد أمامنا إلا طريق واحد. اجتماع هذه الوقائع لا يثبت نفاقًا في قلب أحد، لكنه يمنعنا من قبول «الضرورة» بوصفها قدرًا نزل من السماء قبل فحص من صنع شروطها.

ولا يعني هذا أن كل ضرورة مزعومة باطلة، أو أن كل حل مؤلم خيانة. فالواقع قد يفرض خيارات شديدة الضيق. لكن التمييز يحتاج إلى أسئلة دقيقة:

56. من أغلق البدائل؟

57. ومتى بدأت الأزمة؟

58. وهل كانت هناك فرص سابقة عُطلت؟

59. ومن ينتفع من اعتبار هذا الحل وحيدًا؟

60. وهل تتحمل الجهة التي تطالب بالتنازل نصيبًا من كلفته؟

61. وهل الضرورة مؤقتة أم تتحول إلى نظام دائم؟

62. وهل تراجع بعد زوال سببها؟

فالضرورة الصادقة تضيق الحكم بقدرها، أما الضرورة المصنوعة فتتسع دائمًا بقدر ما يحتاجه صاحب المصلحة.

سابعًا: المعيار المزدوج - حين يصبح الفعل حسنًا أو قبيحًا بحسب فاعله -

تكشف آيات التحاكم في سورة النور معيارًا مزدوجًا ظاهرًا: إذا كان الحق لهم أتوا مذعنين، وإذا خافوا أن يكون الحكم عليهم أعرضوا. ومن هذا النص الصريح يفسر المحور كيف يتحول نصيب النفس إلى ميزان للحكم على العدالة.

الفعل من الحليف:

63. خطأ بشري.

64. أو اجتهاد غير موفق.

65. أو ضرورة فرضتها الظروف.

والفعل نفسه من الخصم:

66. خيانة.

67. أو فساد متعمد.

68. أو دليل على سقوط المشروع كله.

ويظهر هذا في كل مجال:

69. يطالب خصمه بالشفافية، ويعد السؤال عن حليفه تشهيرًا.

70. يحتج بحرمة الغيبة عندما يكشف خطأ قريبه، ثم ينقل الظنون عن البعيد.

71. يدعو إلى احترام النظام إذا كان الحكم له، ويطعن في النظام إذا جاء الحكم عليه.

72. يرى الصمت حكمة عند جماعته، وتواطؤًا عند غيرها.

73. يعد التراجع مراجعة شجاعة إذا صدر منه، وتلونًا إذا صدر من خصمه.

وفي صورة المنافقين التي يكشفها السياق لا يقف الخلل عند حكم واقعة واحدة، بل يمتد إلى المعيار نفسه حين يتغير بتغير نصيب النفس. وهذا هو القدر الذي يبنى على النص؛ أما تفسير دوافع هذا التغير نفسيًّا فمرتبة أخرى.

74. حين يصبح نصيب النفس هو تعريف العدل

يكشف القرآن صورةً أشد من مجرد اختلاف المعيار مع الحليف والخصم؛ وهي أن يصبح نصيب الإنسان الشخصي هو الذي يحدد له هل القرار عادل أم ظالم.

يكشف القرآن المعيار وهو يتحرك مع حظ النفس في آية لا تحتاج إلى كثير شرح: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: 58]. الرضا والسخط هنا لا يتبعان عدل القسمة، بل يتبعان موقع النفس منها.

وهنا ينكشف السؤال الذي يحرك الميزان من وراء الكلام: ماذا حصلتُ أنا؟ ما دامت الحصة حاضرة فالرضا حاضر، فإذا غابت الحصة انقلب الحكم. عند هذه النقطة لا تعود القاعدة فوق النفس؛ تصبح النفس هي التي تمنح القاعدة اسم العدل أو الظلم.

وقد يبلغ فساد هذا المنطق أن يسيء الإنسان الظن بحكم الله ورسوله حين لا يوافق مصلحته.

ويبلغ انقلاب الميزان حدًّا يكشفه الاستفهام القرآني بعنفه ودقته: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [النور: 50]. بدل أن يخاف الإنسان من ظلمه، يبدأ يتوجس من حكم الحق إذا خالف مصلحته.

وهذا أعمق من مجرد خسارة مصلحة؛ لأن موضع الاتهام انتقل من هوى النفس إلى ميزان الحق نفسه.

وبعد هذا الحكم القرآني يمكن أن يقال في التحليل النفسي: قد لا يرجع هذا الاضطراب إلى غموض الدليل وحده؛ بل إلى اعتياد النفس أن تقيس عدالة القرار بمقدار ما تحصل عليه منه. وهذا احتمال يشرح بعض الحركة، أما النص فقد حسم وصف الانتقائية نفسها.

وفي المؤسسات والمجتمعات قد تتجدد الوظيفة في صور مثل:

75. يصف القرار بالموضوعية ما دام يفيده، فإذا طبق عليه المعيار نفسه وصفه بالاستهداف.

76. يطالب بالشفافية حين يريد الوصول إلى معلومات خصمه ، فإذا تعلقت الشفافية به وصفها بانتهاك الخصوصية.

77. يطالب بالتنافس المفتوح ما دام يملك فرصة الفوز ،فإذا خسر طالب باستثناء خاص.

والفارق بين المؤمن والمنافق هنا ليس أن المؤمن لا يتألم حين يخسر، بل أن لديه ميزانًا يستطيع أن يقول به:

الحكم عادل، وإن كان على غير مصلحتي.

أما العقل المنافق فيحتاج إلى أن يكون الحق في صفه دائمًا؛ فإذا لم يكن، اتهم الميزان نفسه.

وهنا لا يحتاج الإنسان إلى اختبار معقد، يكفي أن يسأل نفسه: هل أقبل القاعدة إذا كنت أنا من سيدفع ثمنها؟

ومن أخطر آثار ذلك أن يفقد المجتمع ثقته في الخطاب الأخلاقي كله. فإذا رأى الناس أن القيم لا تستعمل إلا ضد الخصوم، ظنوا أن الحديث عن العدل والصدق ليس إلا سلاحًا في الصراع.

وبذلك لا يضر المنافق خصمه وحده، بل يضر قيمة العدل نفسها.

والقرآن يختصر المعيار المزدوج في حركة واحدة: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: 49]. ليس الإذعان هنا للحق من حيث هو حق، بل للحق حين يأتي محققًا لنصيب النفس.

وبذلك لا يعود الحق مرجعًا يُخضع الإنسان نفسه له؛ يصبح أداة يستدعيها حين توافقه، ثم يطلب لها مخرجًا حين تقف في وجهه. هنا يتكون المعيار المزدوج من الداخل قبل أن يظهر في الحكم على الناس.

وقد يبرر المنافق اختلاف حكمه بوجود فروق بين الحالتين. وقد تكون الفروق حقيقية أحيانًا، فلا يلزم التطابق التام بين كل واقعتين. لكن التمييز الصادق يشرح الفروق بوضوح، ويقبل تطبيقها على جميع الأطراف. أما المعيار المنافق فتظهر فروقه بعد معرفة هوية الفاعل، لا قبلها.

وأحيانًا تكفي تجربة ذهنية صغيرة لكشف الميزان: لو تبدلت الأسماء وبقي الفعل، هل سيبقى حكمك؟

إذا تغير الحكم لمجرد تغير الانتماء، فالمشكلة ليست في الاجتهاد، بل في الميزان.

ثامنًا: الانتقاء من النص والواقع

لا يلزم صاحب الهوى أن ينكر الوحي كله؛ ومن بعض النصوص - كقوله تعالى في سياق محمد: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ - يستفاد خطر الطاعة الانتقائية. أما تحويل ذلك إلى منهج ينتقي من النصوص ما يخدم الهوى فهو استنباط وتحليل يحتاج إلى إثباته من مجموع السلوك، لا دعوى أن الآية نصت على كل صورة من الانتقاء.

يستدعي نصوص الطاعة حين يكون صاحب القرار.

ويستدعي نصوص النصيحة حين يكون خارج القرار.

ويستدعي نصوص الوحدة ليمنع محاسبته.

ويستدعي نصوص إنكار المنكر ليهدم خصمه.

ويستدعي نصوص الرفق عند خطئه.

ويستدعي نصوص الشدة عند خطأ غيره.

المشكلة ليست في استعمال هذه النصوص؛ فكلها حق في موضعها. وإنما في أن الوظيفة التي تؤديها لا تتحدد بالدلالة الشرعية، بل بمصلحة المستعمل.

وهكذا يتحول الوحي من ميزان يحكم الإنسان إلى مخزن حجج يختار منه ما يحمي موقفه.

ويفعل الأمر نفسه مع الواقع؛ فيذكر الأرقام التي تؤيد روايته ويحذف ما يعارضها، ويعرض قصة واحدة بوصفها نمطًا عامًا، ويهمل سلسلة من الوقائع إذا لم تخدم النتيجة، ويطالب خصمه بدليل قاطع بينما يكتفي لنفسه بقرينة ضعيفة. وقد تكون كل معلومة منفردة صحيحة، لكن الصورة النهائية مضللة لأن الكذب وقع في تركيبها وانتقائها.

فإذا عرض الإنسان خمس حقائق صحيحة، وحذف خمسًا أخرى تغير معناها، فقد صنع رواية مضللة من مواد صحيحة.

ويتجاوز الأمر أحيانًا الانتقاء من النص إلى طاعة سرية لمن يكره الوحي نفسه.

وقد يتجاوز الانتقاء تبرير النفس إلى طاعة تُمنح في الخفاء لمن يكره ما أنزل الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26]. هنا لا يعلن الرفض كله؛ تكفي مساحة «بعض الأمر» لتكشف أن للوحي شريكًا في الطاعة عند موضع المصلحة.

فالمنافق قد لا يعلن رفض الوحي كله، بل يحتفظ لنفسه بمناطق يطيع فيها جهة أخرى إذا وافقت مصلحته.

وهنا لا يعود السؤال: ماذا قال الله؟

بل:

78. ما الذي أستطيع أن أقبله؟

79. وما الذي يمكن تعطيله؟

80. وأي جهة تمنحني مخرجًا من الجزء الذي لا أريده؟

فتتحول الطاعة من خضوع شامل للمرجع إلى تفاوض على ما يناسب الهوى.

وهذا من أخطر صور العقل الانتقائي؛ لأنه قد يبقي كثيرًا من لغة الدين، ويحتفظ في الوقت نفسه بولاء عملي لمرجع يناقضه في بعض ما يريده.

فلا يرفض النص صراحة، بل يحاصره داخل المساحة التي لا تضر مصلحته.

ومن هنا لا يكفي التحقق من صحة المعلومة الجزئية، بل ينبغي السؤال:

81. لماذا اختيرت هذه الواقعة؟

82. وما الذي حذف؟

83. وهل تمثل الصورة العامة؟

84. وهل يطبق المتكلم طريقة الانتقاء نفسها على الجهة التي يحبها؟

85. وهل يفرق بين الاستثناء والنمط؟

العقل الصادق يجمع الأدلة ولو أحرجته، أما العقل المنافق فيجمع ما يبرئه، ثم يسمي ما جمعه بحثًا موضوعيًّا.

ومن هنا لا يكون العدل خلقًا لاحقًا على التفكير، بل شرطًا في سلامته: أن تسمح للدليل الذي يدينك أن يدخل كما تسمح للدليل الذي يدين خصمك. وقد أمر الله بالقسط ولو على النفس والأقربين؛ فالعقل المؤمن لا يسأل أولًا: لمن ستكون النتيجة؟ بل يسأل: ما الحق الذي سأقف معه ولو نقص به نصيبي؟

تاسعًا: تحويل النقد إلى إدانة شاملة

النقد الصادق يحدد موضع الخلل، ويقدر حجمه، ويفرق بين الخطأ والأصل، وبين الفاعل والمؤسسة، وبين لحظة الفشل ومجمل المسار.

وفي التحليل الجدلي، قد تكون الأحكام الشاملة أداة سريعة للهدم:

86. وقع خطأ، إذن الجميع فاسدون.

87. فشل مشروع، إذن الإصلاح مستحيل.

88. ظلم مسؤول، إذن لا يوجد صادق في المؤسسة.

89. اختلف عالمان، إذن العلم كله صراع مصالح.

90. أخطأ مصلح، إذن كل حديث عن الإصلاح خداع.

ويخدم التعميم هذا المسلك في جهتين:

يبرر القعود — إذا كان الجميع فاسدين، فلا معنى للمحاولة.

وإذا كان الإصلاح مستحيلًا، فالانسحاب حكمة.

وإذا لم يوجد صادق، فلا عيب في الكذب.

أولاهما إسقاط البديل الأخلاقي؛ فمن يحتاج إلى تبرير خياره قد يريحه أن يقنع نفسه بأن الصدق غير موجود، لأن وجود صادق واحد يهدم دعوى أن الخيانة كانت ضرورة. وهذه آلية تحليلية، لا وصفًا قرآنيًّا لازمًا لكل منافق.

ومن هنا يبالغ في كشف أخطاء أهل الخير، لا حرصًا على الإصلاح، بل ليجعلهم مساوين له: كلنا كذلك.

وهذه العبارة من أخطر أدوات إفساد الضمير. فإذا أقنع الإنسان نفسه أن الجميع يكذبون ويخونون، لم يعد يرى في كذبه وخيانته شيئًا يستحق التوبة.

وقد يكون كشف النفاق والفساد واجبًا، ولا يجوز حماية المصلحين من النقد. لكن النقد الذي يريد الإصلاح يحفظ في الناس القدرة على التمييز، أما النقد المنافق فيخلطهم جميعًا حتى لا يبقى معيار.

والفارق يظهر في النتيجة:

91. النقد الصادق يترك المجتمع أبصر بالخلل وأقدر على الإصلاح.

92. والنقد المنافق يتركه أكثر يأسًا، وأقل ثقة، وأشد استعدادًا لقبول الفساد.

عاشرًا: عقل الخوف - كيف يتحول الاحتياط إلى فلسفة للتخاذل؟ -

الخوف الطبيعي يدفع الإنسان إلى الحذر. وفي هذا المبحث لا ينظر إلى مقدار الخوف في النفس، بل إلى العقل حين يحوّل الخوف إلى قاعدة تفسير وقرار، فيعيد صياغة الواجب والمصلحة والمآل حول تجنب الكلفة.

فلا يعود السؤال: كيف نؤدي الحق بأقل خسارة ممكنة؟

بل يصبح: كيف نتجنب الخسارة ولو تركنا الحق؟

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: 81].

الحر واقع، والمشقة حقيقية. لكنهم لم يستعملوا الحقيقة لتقدير الاستطاعة، بل لتحويل المشقة إلى حجة على ترك التكليف.

ومن جهة التحليل، يمكن أن ينتظم «عقل الخوف» في خطوات مثل:

1. يضخم احتمال الضرر.
2. يقلل احتمال النجاح.
3. يهمل ضرر التراجع.
4. يصور الانسحاب كأنه بلا كلفة.
5. يسخر من الثبات.

6. يطالب الآخرين بأن يجعلوا خوفه معيارًا عامًا.

فهو يرى كلفة العمل، ولا يرى كلفة تركه. يرى ثمن المواجهة، ولا يرى ثمن الاستسلام. يرى خطر الصدق، ولا يرى ما يصنعه الكذب في الثقة. يرى خسارة المنصب، ولا يرى خسارة الضمير.

وهذا انحياز عميق إلى الضرر المرئي القريب، مع إهمال الضرر البعيد الذي قد يكون أعظم.

وقد يرفض شخص كشف فساد بحجة الحفاظ على سمعة المؤسسة. وهو يرى الضرر العاجل المتمثل في الفضيحة، لكنه لا يرى الضرر المتراكم من حماية الفساد حتى ينفجر. وقد يرفض مواجهة كذب مؤثر بحجة عدم إثارة النزاع، لكنه لا يرى أن الصمت يعلم الكاذب أن كذبه آمن.

ليس كل تأجيل أو صمت جبنًا؛ فقد تكون الحكمة في اختيار الوقت والأسلوب. وإنما يظهر عقل الخوف حين يصبح تجنب الألم غاية مستقلة، ولو أدى إلى تضخم الشر الذي يخشاه.

والحكمة الإيمانية لا تلغي الخوف، لكنها تضعه في مكانه. أما الحكمة المنافقة فتجعله مرجعًا، ثم تستعمل العقل لتقديسه.

الحادي عشر: إعادة كتابة الماضي

في قوله تعالى عن المتربصين: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾ تظهر إعادة نسبة الماضي بحسب النتيجة. ومن هذه الدلالة يمكن وصف آلية أوسع بـ«إعادة كتابة الماضي» بعد انكشاف الغلبة.

ثم تأتي النتيجة فتبدأ معها إعادة صياغة الماضي: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: 141]. سؤالهم لا يصف فقط موقف اللحظة؛ إنه يحاول أن يعيد تسجيل الموقف السابق بعد أن انكشفت جهة الغلبة.

الخلل هنا أخص من مجرد الاحتجاج بالنتيجة: إنهم يغيّرون وصف موقفهم السابق نفسه، كان ملتبسًا ومتربصًا، ثم يقدم بعد الفتح بوصفه مشاركةً ونصرة. فموضوع هذا المبحث هو الذاكرة حين تسخّر لحماية الموقف.

وفي التنزيل المعاصر تظهر هذه الآلية في صور كثيرة، منها:

93. من انسحب في الأزمة يقول بعد النجاح إنه كان داعمًا بصمت.

94. ومن ثبط يقول إنه كان يحذر من بعض التفاصيل فقط.

95. ومن حارب المشروع يقول إنه كان يريد تصحيحه.

96. ومن صمت عن الظلم يقول إنه كان يعمل من الداخل.

97. ومن انتفع من الفساد يقدم نفسه بعد سقوطه بوصفه أول المعارضين.

وقد يكون بعض هذه الدعاوى صحيحًا، لكن العقل المنافق لا يريد توثيقًا ولا وقائع؛ يريد أن تصبح الذاكرة العامة مرنة بقدر حاجته.

ولهذا يضيّق التوثيق مساحة إعادة بناء الرواية بعد النتيجة؛ فالوثيقة تثبت العبارة في زمانها، وتسمح بمقارنة الموقف قبل انكشاف المآل وبعده.

والمؤسسة التي لا تحفظ قراراتها ومواقف أصحابها تفتح الباب لأكثر الناس قدرة على الكلام بعد الحدث، لا لأكثرهم صدقًا أثناءه.

ومن خبث إعادة كتابة الماضي أنها لا تحمي صورة الفرد فقط، بل تحرمه من التعلم. فمن أقنع نفسه أنه كان دائمًا محقًّا، لن يراجع الخطأ الذي وقع فيه، وسيعيده عند أول اختبار جديد.

الصادق قد يكتشف بعد الحدث أنه أخطأ التقدير، فيقول:

كنت أرى كذا، وقد ظهر لي خطئي.

أما المنافق فيعيد تفسير ما قال حتى لا يبقى له خطأ يعترف به.

والعقل الذي لا يعترف بماضيه لا يستطيع أن يصنع مستقبلًا أفضل؛ لأنه يحمل علله معه، ثم يسمي تكرارها خبرة.

الثاني عشر: الجماعة التي تصنع منطقًا بديلًا

ويكشف القرآن قبل التحليل أن المنافقين ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 67]. وبعد هذا الأصل يمكن للتحليل الاجتماعي أن يصف كيف قد تتبادل جماعة التبريرات حتى يصبح تفسيرها الخاص هو اللغة الطبيعية داخلها، وهذه كيفية محتملة، لا تفسيرًا حصريًّا للآية.

والنفس التي تهرب من الاعتراف قلّما تعمل وحدها طويلًا، فالقرآن يلفت إلى رابطة تتجاوز الفرد: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 67]. ومن هنا يصبح السؤال الاجتماعي مهمًّا: ماذا يحدث حين يجد التبرير من يردده، ويحميه، ويمنحه لغة مشتركة؟

تستطيع الجماعة أن تجعل الفرد يرى نفسه في مرآة توافقه دائمًا، فإذا خاف قالت له: أنت أبصر بالمآلات، وإذا بخل سمّت بخله حسن تدبير، وإذا طعن في الصادق قدمته بوصفه الوحيد الذي لا يخدع بالمظاهر، وإذا بدل موقفه وصفته بالمرونة، وإذا حمى الفساد قالت إنه يحمي المشروع من الانهيار.

ومع التكرار تتحول المصطلحات إلى نظام فكري مغلق. فكل اعتراض من الخارج يفسر بوصفه دليلًا على جهل المعترض أو عداوته. وكل دليل ضد الجماعة يعاد إدخاله في الرواية نفسها:

98. إذا انتقدها الناس، فذلك لأنها ناجحة؛ وإذا تركها الصادقون، فذلك لأنهم لا يحتملون الانضباط؛ وإذا انكشف فسادها، فذلك مؤامرة لتشويهها؛ وإذا فشلت، فذلك لأن المجتمع لم يفهمها؛ وهكذا تصبح الرواية غير قابلة للاختبار؛ فكل نتيجة تؤكدها.

وهذا من أخطر أنماط التفكير؛ لأن الفكرة التي لا يمكن أن يثبت خطؤها بأي دليل ليست فكرة يطلب بها الحق، بل حصن نفسي يحمي الهوية.

وقد تملك الجماعة علماء ومثقفين ومتخصصين، لكن المعرفة نفسها تتحول إلى خدمة الرواية. يختار كل واحد من تخصصه ما يدعم الجماعة، وتلتقي الانتقاءات في صورة تبدو علمية متماسكة.

ومن هنا لا تكفي كثرة المتعلمين لضمان سلامة التفكير؛ فقد يكون الذكاء الجماعي أداة لتطوير التبرير لا لكشفه.

والعلامة الفاصلة:

الجماعة الصادقة تسمح للدليل أن يصحح هويتها، أما الجماعة التي يحكمها التبرير فتجعل هويتها هي التي تعيد تفسير كل دليل. وهذا ميزان تحليلي للسلوك الجماعي، لا تسمية عقدية للجماعة بالنفاق الأكبر.

الثالث عشر: ما الذي تضيفه العلوم الإنسانية بعد اكتمال الميزان؟

الميزان في هذا المحور اكتمل أولًا من النصوص: قبول الحق إذا وافق المصلحة، والتربص بالغالب، وقلب الإفساد إلى إصلاح، والرضا والسخط بحسب النصيب، والتخذيل باسم الواقعية. وبعد ذلك تأتي مفاهيم العلوم الإنسانية لتشرح كيفية محتملة لعمل الانحياز والتبرير داخل النفس والجماعة؛ فلا تثبت وحدها القصد، ولا تنقل السلوك من الخطأ البشري العام إلى النفاق الشرعي إلا بقدر ما يقوم عليه الدليل.

ولهذا تعود هنا - بوظيفة منهجية لا لمجرد التكرار - بعض النصوص المؤسسة: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: 49]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾ [النساء: 141]، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: 11]، ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]. عودة هذه الآيات هنا ليست زيادة شواهد بعد اكتمال التحليل؛ بل إعلان أن التحليل نفسه لا يملك أن يجاوز حدود الحركة التي كشفتها هذه النصوص.

بعد ذلك يمكن لعلم النفس والاجتماع أن يساعدا في شرح عدد من الآليات التي قد تصاحب الصفات التي كشفها الوحي، مثل:

99. كيف يبحث الإنسان عن الأدلة الموافقة لما يريد.

100. وكيف يخفف التبرير شعوره بالتناقض.

101. وكيف يقود الخوف إلى تضييق الانتباه نحو أسوأ الاحتمالات.

102. وكيف تصنع الجماعة توافقًا وهميًّا.

103. وكيف يؤدي تكرار الرواية إلى سهولة تصديقها.

104. وكيف تحمي الهوية الجماعية الأفراد من الاعتراف بالخطأ.

105. وكيف تجعل الحوافز المؤسسية بعض الأكاذيب أكثر ربحًا من الصدق.

لكن هذه العلوم تبقى محدودة في أمرين:

لا تعرف حقيقة النفاق الشرعية — قد تشرح انحيازًا نفسيًّا يقع من المؤمن والكافر والمنافق، لكنها لا تستطيع أن تقرر أن الشخص يظهر الإسلام ويبطن الكفر.

لا- تمنح الآلية حكمًا أخلاقيًّا كاملًاقد تصف لماذا يبرر الإنسان، لكن الوحي هو الذي يبين متى يكون التبرير كذبًا ومرضًا وإعراضًا وخيانة.

فالتحليل النفسي والاجتماعي قد يشرحان بعض كيفية العمل، أما القرآن والسنة فيكشفان الحقيقة الشرعية، ويسميان العمل، ويقيمان الميزان، ويبينان المآل. ومن هنا لا يكون الوحي «مصدرًا» إلى جانب علم النفس والاجتماع، بل هو الحاكم الذي يحدد ما الذي نحاول شرحه أصلًا وما الحد الذي لا يجوز للتحليل أن يتجاوزه.

ولا ينبغي أن تتحول مصطلحات مثل «الانحياز» و«التنافر» و«التفكير الجمعي» إلى أسماء حاكمة أو مخففة لأعمال سماها الوحي كذبًا وإفسادًا وإرجافًا وصدًّا عن الحق. قد ينتفع الكتاب بالمصطلح إذا شرح جانبًا من الآلية، لكنه يظل ترجمة جزئية لحركة بشرية تحت ميزان الوحي، لا بديلًا عن الاسم الشرعي ولا عذرًا لصاحبه.

يمكن أن نفسر بعض دوافع الكذب وآلياته، لكن لا نلغي الكذب بالتفسير؛ ويمكن أن نصف ضغط الجماعة، لكن لا نجعل الضغط ناسخًا للمسؤولية؛ ويمكن أن نفسر الخوف، لكن لا نحول التخذيل الذي سماه الوحي إلى مجرد استجابة نفسية محايدة.

الرابع عشر: ما يشبه منطق النفاق وليس منه بالضرورة

حتى يبقى الميزان منضبطًا، يجب التفريق بين منطق المنافق وبين مواقف عقلية قد تشبه بعض صوره.

تقدير المصلحة الشرعي — قد يترك الإنسان أمرًا مباحًا أو يؤخر عملًا مشروعًا لمصلحة معتبرة، ولا يكون ذلك تقديمًا للهوى.

الواقعية الصادقة — قد يبين الناصح ضعف الإمكانات أو قوة الخطر، ولا يكون مرجفًا، ما دام لا يكذب ولا يسلب الناس القدرة على العمل.

تغير الاجتهاد — قد يغير الإنسان موقفه بسبب معلومة جديدة، لا بسبب تغير مصلحته.

التردد الحقيقي — قد يتردد الباحث لعدم وضوح الدليل، لا انتظارًا للغالب.

مراعاة اختلاف الأحوال — قد تختلف الفتوى أو السياسة أو طريقة الخطاب لاختلاف الوقائع، وليس كل اختلاف معيارًا مزدوجًا.

الخطأ في الاستدلال — قد ينتقي الإنسان دليلًا عن جهل أو قصور، ولا يكون متعمدًا لخداع الناس.

تجنب الضرر — قد يسكت الإنسان أو ينسحب خوفًا معتبرًا، ولا يكون ذلك نفاقًا أكبر.

والفارق لا يُقرأ من موقف واحد؛ بل تُفحص القرائن وتكررها: انحياز مستمر للمصلحة، ومعيار يثبت مع الهوى لا مع الدليل، وكذب، وخطاب يتغير بحسب الجمهور، ورفض للاعتراف، وفرح بفشل الحق، واستعمال للدين في تبرير ما يناقضه. هذا قد يكشف نمطًا من أعمال المنافقين ويستوجب المحاسبة على الظاهر، لكنه - مهما تراكم - لا يثبت وحده النفاق الأكبر في شخص معين؛ فذلك حكم آخر له بابه وبينه الشرعية.

الخامس عشر: كيف نحمي العقل من منطق النفاق؟

الوقاية لا تكون بكثرة المعلومات وحدها؛ فقد يملك الإنسان علمًا واسعًا ويستعمله لتبرير هواه. وإنما تحتاج إلى تربية العقل والقلب معًا.

106. تحديد النتيجة قبل البحث

يسأل الإنسان نفسه:

هل أبحث عن الحق، أم أبحث عن حجة لموقف اتخذته؟

مجرد الاعتراف بأن النفس تريد نتيجة معينة يخفف قدرتها على توجيه النظر من وراء الستار.

عرض الموقف بصيغة معكوسة – لو صدر الفعل من الخصم، هل سأحكم عليه بالحكم نفسه؟ولو أضر القرار بمصلحتي، هل سأبقى أراه حكيمًا؟

ولو نجح الحق على يد غيري، هل سأفرح؟

البحث عن الدليل المزعج – العقل الصادق لا يبحث فقط عما يؤيده، بل يسأل:

ما أقوى ما يمكن أن يثبت خطئي؟

فالذي لا يعرف الحجة الأقوى ضد موقفه لا يعرف موقفه كاملًا.

الفصل بين صحة الموقف ونجاحه – قد يفشل الحق في جولة، وقد ينجح الباطل مؤقتًا. فلا تجعل النتيجة وحدها دليلًا أخلاقيًّا.

توثيق المواقف – الكتابة تمنع النفس من إعادة بناء الماضي بسهولة. يسجل الإنسان أو المؤسسة القرار وأسبابه قبل النتيجة، ثم يراجعه بعدها بصدق.

الاعتراف بالدافع المركب – قد يعمل الإنسان لله، ويحب مع ذلك الثناء. وقد ينصح، ويكون في نفسه غضب شخصي. الصدق لا يقتضي ادعاء نقاء كامل، بل رؤية الدوافع المختلطة والعمل على تصحيحها.

صحبة من يخالف باحترام – من لا يسمع إلا من يوافقه، تتحول جماعته إلى آلة تضخيم لانحيازه.

قبول الخسارة الأخلاقية للصورة – قد يضطر الإنسان إلى قول: أخطأت. وقد يخسر مكانة أو جدالًا. لكن خسارة الصورة أهون من بناء عقل كامل لحراسة الخطأ.

خاتمة المحور: العقل الذي فقد جهة النظر

وفي قراءة تحليلية جامعة للمشاهد السابقة: المنافق لا يعيش بلا عقل، بل قد يسخر عقله لخدمة هوى فقد معه جهة النظر الصحيحة.

بدل أن يقف بينه وبين هواه، وقف العقل إلى جانب الهوى.

وبدل أن يكشف له مصلحته الخاصة، سماها مصلحة عامة.

وبدل أن يقرأ الواقع كله، انتقى منه ما يبرر خوفه.

وبدل أن يزن النجاح بالحق، وزن الحق بالنجاح العاجل.

وبدل أن يختار موقفًا، تربص بالغالب.

وبدل أن يعترف بالجبن، سماه حكمة.

وبدل أن يراجع الماضي، أعاد كتابته.

وبدل أن يخضع للنص، انتقى منه ما يخضع له.

وبدل أن تستعمل الجماعة العلم لكشف الخطأ، استعملته لحماية الهوية.

إن خبث هذا العقل ليس في أنه يقول الباطل صراحة، بل في أنه يستطيع أن يبني حول الباطل نظامًا من الكلمات والوقائع والمصالح، حتى يبدو الاعتراض عليه خروجًا عن العقل أو الدين أو الواقع.

فالمنافق لا يريد فقط أن يفعل ما يريد؛ بل يريد أن يبقى في عينه وعين الناس صاحب الموقف الأحكم.

ولهذا فإن أخطر لحظة ليست حين يختار الإنسان مصلحته، بل حين ينجح في إقناع نفسه أن مصلحته هي الحق، وأن خوفه هو الحكمة، وأن خصومه وحدهم أصحاب أهواء.

والفارق بين عقل المؤمن وعقل المنافق ليس أن المؤمن لا ينحاز ولا يخطئ؛ بل أن له مرجعًا فوق نفسه، يستطيع أن يرجع إليه، وأن يعترف بأنه أخطأ فهمه أو غلبه هواه.

أما المنافق فلا يريد مرجعًا يحاكمه، بل يريد مرجعًا يستعمله.

العقل المؤمن يقول:

قد يكون الحق على غير ما أحب.

وعقل المنافق يقول:

لا بد أن يكون ما أحب هو الحق، وسأجد له من الأدلة والأسماء ما يكفي.

ويصرح القرآن في شأن المخلفين بأن سوء الظن زُيّن في قلوبهم: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: 12]. أما وصف التزيين بأنه يصنع «منطقًا متماسكًا» تقرأ به الوقائع فهو تحليل لآلية التبرير، لا لفظ الآية نفسه.

ومن هنا ينتقل الكتاب إلى المحور التالي: إذا استقر هذا المنطق في العقل، فكيف يتحول إلى خطاب؟ وكيف يصنع للكذب صورة، وللإفساد اسمًا، وللخوف رواية، وللتخذيل جمهورًا؟

المحور الرابع: أعمال النفاق وخطابه

107. حين يصنع الباطل لنفسه وجهًا مقبولًا

النفاق حقيقة مستورة، ولذلك لا يستطيع أن يعمل في المجتمع باسمه الصريح. لا يقول المنافق: إنني أضمر الكفر، وأكره قوة المؤمنين، وأتربص بهم، وأقدم مصلحتي على الحق؛ بل يحتاج إلى صورة أخرى يظهر بها، ولغة أخرى يقدم بها أعماله.

ومن هنا كان الخطاب جزءًا أصيلًا من النفاق، لا مجرد تعبير عارض عنه. فهنا يخرج ما كان في الباطن وما صاغه العقل إلى المجال الظاهر: كلمة تصنع صورة، واسم يغيّر حقيقة فعل، وعذر يحمي صاحبه، وإرجاف يضعف المجتمع، وخطاب يوزع الوجوه بحسب الجمهور.

وتفتتح سورة المنافقون هذا الباب بجمع القول الصحيح في ظاهره مع الكذب في صاحبه، ثم اتخاذ الأيمان حصنًا للعمل: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: 1-2]؛ فالكلمة هنا لا تنقل الباطن، بل قد تعمل على حجبه وحماية ما يخالفها.

والقرآن يكشف كذب المنافقين ومشاهد من خطابهم صراحةً: تسمية الإفساد إصلاحًا، واتخاذ الأيمان جُنّة، وصناعة الأعذار، والاستهزاء، والإرجاف، والخطاب المزدوج. ومن جمع هذه المشاهد يمكن تحليل كيفية صناعة الكذب وحمايته في الخطاب، من غير أن تنسب كل آلية تحليلية إلى منطوق آية بعينها.

إن النفاق لا يكتفي بأن يخفي الباطل، بل يمنحه اسمًا يحميه، ويطعن فيمن يكشفه، ويعمل حتى يفسد في المجتمع الميزان الذي يميز به بين الصدق والكذب، وبين الإصلاح والإفساد.

ولا يعني ذلك أن كل عبارة غير دقيقة، أو تناقض بين قول وعمل، أو عذر ضعيف، أو نقد شديد، نفاق أكبر. فقد يقع المؤمن في الكذب أو التلون أو التقصير، ثم يؤلمه ذلك ويتوب منه. أما النفاق الأكبر فحقيقته إظهار الإيمان وإبطان الكفر، ولا يجوز الجزم به في حق شخص معين بمجرد التحليل أو الظن.

غير أن الحذر من الحكم على البواطن لا يجوز أن يتحول إلى عجز عن تسمية الأعمال بأسمائها. فالقول الكاذب يقال عنه كذب، والإرجاف إرجاف، والتخذيل تخذيل، واتخاذ الدين ستارًا للضرار عمل من أعمال النفاق، ولو لم نملك أن نجزم بما في قلب فاعله.

ولهذا يتحرك هذا المحور بعين مفتوحة وحدٍّ واضح: يصف العمل بما ظهر، ويتتبع طريقته وأثره، لكنه لا يحوّل تحليل الخطاب إلى دعوى في السرائر.

أولًا: صناعة الصورة بدل إقامة الحقيقة

ويبدأ باب صناعة الصورة من كلمة صحيحة في ذاتها، لكنها لا تمثل قائلها: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، ثم يأتي الحكم: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1]. فالخطاب قد يصدق في الجملة ويكذب في الوظيفة التي يؤديها لصاحبه.

كانت الجملة التي نطقوا بها صحيحة في ذاتها: محمد ﷺ رسول الله. لكن الله كذبهم؛ لأنهم لم يخبروا عما في قلوبهم بصدق. فالكذب هنا لم يكن في مضمون القضية، بل في ادعائهم أن ألسنتهم تمثل بواطنهم.

وصناعة الصورة غير مجرد الخوف من انكشافها؛ فهي عمل ظاهر يُبنى بالكلمة والمشهد والادعاء. ومن أدق ما يكشفه القرآن أن المنافق قد يستعمل كلامًا صحيحًا، لكنه لا يستعمله ليقيم الحق، بل ليصنع لنفسه صورة تحميه من الحق.

وقد جمع القرآن بين جاذبية الصورة وقوة العبارة وفراغ الداخل في مشهد بالغ الدقة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: 4].

قد يكون المظهر قويًّا، والكلام مؤثرًا، والحضور لافتًا، ومع ذلك يكون الداخل خاليًا من حقيقة الإيمان.

فالناس يرون الصورة، ويسمعون العبارة، أما القرآن فيكشف ما وراءهما.

وهذا من أخطر أسباب الاغترار: أن يخلط المجتمع بين حسن العرض وصدق الحقيقة.

فالفصاحة لا تثبت الإخلاص، والجاذبية لا تثبت الأمانة، والقدرة على الكلام عن القيم لا تعني أن القيم تحكم صاحبها.

إنه لا يحتاج دائمًا إلى اختراع الباطل؛ فقد يكون أنفع له أن يتكلم بلغة الإيمان، وأن يعلن الولاء، وأن يكثر من ذكر القيم التي يتوقع الناس سماعها منه. لكن هذه الكلمات لا تقوده، بل تخدمه؛ ولا تحكم أفعاله، بل تحرس صورته.

وقد يبلغ جمال الصورة حدَّ الإعجاب، ثم تأتي الحركة بعد الكلام فتهدمها. يرسم القرآن هذا التباعد في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ [البقرة: 204-205]. لا يوقفك المشهد عند القول الذي يعجب؛ يتبع صاحبه حتى ترى ماذا يصنع حين تتاح له مساحة الفعل.

في هذا المشهد تكتمل عناصر الصورة المصنوعة: قول يعجب السامع، وتوكيد ديني باستشهاد الله على صدق القلب، وقدرة عالية على الخصومة والدفاع عن الذات؛ ثم يأتي العمل فيكشف حقيقة الخطاب. فالميزان القرآني لا يقف عند جمال العبارة، بل يتبع أثرها حين ينتقل صاحبها من مقام الكلام إلى ميدان الفعل.

وتؤكد السنة خطر انتقال العمل من طلب الحقيقة إلى طلب الصورة؛ قال النبي ﷺ: «من سَمَّع سَمَّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به». رواه البخاري (6499)، ومسلم (2987). فليست العبرة أن يسمع الناس العمل أو يروه فحسب، بل أن يصبح سماعهم ورؤيتهم هم المقصود الذي يدير صاحبه.

لم يحاكمه القرآن بجمال عبارته، ولا بحرارة قسمه، ولا بقدرته على الإقناع؛ بل تتبع أثره عندما ابتعد عن مقام الكلام وامتلك فرصة العمل.

فالمنافق قد يربح اختبار الخطاب، لكنه يسقط في اختبار الأثر.

وقد تتحدث مؤسسة طويلًا عن الشفافية، ثم تعاقب أول من يكشف خللًا حقيقيًّا فيها. وتدعو إلى وحدة الصف، لكنها لا تقبل من الوحدة إلا ما يحفظ النفوذ في يدها. فإذا ووجهت بالتناقض، لم تناقش الواقعة، بل اتهمت الناصح بإثارة الفتنة وتشويه المشروع.

وهنا لا تعود القيم قواعد تضبط العمل، بل تتحول إلى أدوات لإدارة السمعة: تستعمل الشفافية لتجميل الصورة، والوحدة لإسكات النقد، والمصلحة العامة لحماية المصالح الخاصة، ثم يصبح الناصح هو

المشكلة بدل الخلل الذي كشفه. وفي الواقع يمكن أن ترى هذا الفرق بمقارنة ثلاثة أشياء لا بالشعار وحده: ما تقوله صفحة القيم، وما تثبته محاضر القرار، وما يحدث لمن يطبق القيمة حين تصبح مكلفة. فإذا كان الصدق ممدوحًا في المنشور ومعاقبًا في المكتب، فالمشكلة ليست في العبارة بل في النظام الذي جعل نقيضها أنفع.

ومن استنباط هذه المشاهد أن نقل النقاش من حقيقة العمل إلى صورة المتكلم أو نية من كشفه قد يصبح حيلة تحمي الباطل من المساءلة.

إن صناعة الصورة في أصلها أمر بشري؛ فالإنسان يهتم بما يراه الناس منه، وقد يحسن عرضه أو يراعي المقام. لكن هذا الاهتمام يتحول إلى عمل منافق عندما تصبح الصورة بديلًا عن الحقيقة، ويستعمل الإنسان الدين والأخلاق ليبدو ملتزمًا بما يعمل على تقويضه.

والفارق بين المؤمن الذي يقع في التناقض والمنافق أن المؤمن يتألم من التناقض ويحاول ردمه، أما المنافق فيستثمره ويحاول إخفاءه.

المؤمن قد يقع في الازدواج، أما المنافق فيقيم فيه ويجعله وسيلة.

ثانيًا: حين يمنح الإفساد اسم الإصلاح

وحين يُواجَه الإفساد باسمه لا يعترف أصحابه به؛ يقلبون الاسم نفسه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12]. هنا لا يدور الصراع على الفعل وحده؛ يدور على حق تسمية الفعل أيضًا.

لم يكتف المنافقون بنفي الإفساد عن أنفسهم، بل حصروا حقيقتهم في الإصلاح: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

وهذا أعمق من كذبة عابرة؛ فمن دلالة تسمية الإفساد إصلاحًا أن الصراع قد يمتد إلى اسم الفعل ومعيار الحكم عليه.

فالعمل الفاسد إذا بقي باسمه أمكن مقاومته، أما إذا مُنح اسمًا أخلاقيًّا فقد يطالب المجتمع بحمايته. وعندئذ لا يصبح المنافق مطالبًا بالدفاع عن الإفساد، بل يصبح من يكشفه متهمًا بمعاداة الإصلاح.

وعندئذ يمكن أن تكتمل الحيلة على هذا النحو: يقع العمل الفاسد، ثم يمنح اسمًا محترمًا، ثم يصور الاعتراض عليه كأنه اعتراض على القيمة نفسها، وينقل كاشفه من موضع الناصح إلى موضع المتهم. هذه بنية خطابية مستنبطة، لا تفصيلًا نصت عليه الآيتان حرفيًّا.

فيقال عن التفريق: إصلاح للخلاف.

وعن التخاذل: حكمة وبعد نظر.

وعن نشر الخوف: مصارحة وواقعية.

وعن البخل: تدبير للموارد.

وعن الصمت عن الباطل: مراعاة للمصلحة.

وعن الخيانة: مرونة سياسية.

وعن إسقاط الصادقين: نقد موضوعي.

ليست هذه الكلمات فاسدة في ذاتها؛ فالإصلاح والحكمة والمصلحة والواقعية معان صحيحة. وإنما الخبث أن يُستعار الاسم الصحيح لحماية الفعل الفاسد.

ومن أمثلة ذلك أن يصنع طرف أزمة أو يضخمها، ثم يقدم تنازله عن الحق بوصفه الحل الوحيد الذي فرضته الضرورة. فإذا سئل عن دوره في صناعة الأزمة، أعاد السؤال إلى قسوة الواقع، واتهم من يرفض التنازل بأنه لا يفهم التعقيدات.

وهنا لا تستعمل الضرورة لتقدير الحكم، بل تستعمل لمحو المسؤولية عمن صنع أسبابها.

وقد يحتكر طرف معنى الدين أو الإصلاح أو المصلحة العامة، حتى يصبح الاعتراض على وسيلته اعتراضًا على الغاية نفسها. فلا يعود النقاش: هل هذا العمل مصلح؟ بل: هل أنت مع الإصلاح أو ضده؟

وبذلك تنقل المسألة من فحص العمل إلى امتحان الولاء.

ولكشف هذا المسلك لا تكفي مناقشة الأسماء، بل لا بد من العودة إلى الحقائق:

108. ما العمل الذي وقع تحت هذا الشعار؟

109. ما آثاره المتكررة؟

110. هل يجمع المؤمنين أم يفرقهم؟

111. هل يقوي الحق أم يجرده من أسباب القوة؟

112. هل يخضع المصلحة للوحي أم يخضع الوحي للمصلحة؟

113. هل يستعمل صاحبه المعيار نفسه مع نفسه وحلفائه؟

114. هل يقبل التصحيح إذا ظهر خطؤه؟

وفي التحليل الخطابي، تزداد مساحة الخداع كلما بقي النقاش في النيات المعلنة والمفاهيم الواسعة، وتضيق كلما عاد إلى الوقائع الثابتة والنتائج والمعايير الواحدة.

ومن جهة التحليل النفسي، قد يبدأ التبرير حيلة واعية ثم يألفه صاحبه حتى يعيد به بناء قصته الداخلية؛ فيبدو له التخاذل بصيرة، والأنانية مصلحة عامة، والعداء نصيحة. هذه آلية محتملة، لا حكمًا لازمًا على كل من برر خطأه.

ويختم القرآن كشف الإفساد بقوله ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ وهي كلمة تكشف أن فساد الميزان قد يبلغ بصاحبه حدًّا لا يرى معه إفساده كما ينبغي، فيحتاج إلى الاسم الجميل لا لخداع الناس وحدهم، بل ليستمر هو في روايته عن نفسه.

لكن هذا لا يبيح الحكم بالنفاق على كل مخطئ في تقدير المصلحة. فقد يخطئ الناصح، وقد يتوهم المصلح أن فعله نافع وهو ضار. وتجمع القرائن قد يكشف نمطًا من الكذب وازدواج المعايير وإخفاء المصالح واستمرار الضرر، فيوصف الظاهر ويحاسب عليه؛ لكنه لا يثبت وحده النفاق الأكبر في المعين.

الصادق يغير موقفه إذا ظهر له الحق، أما المنافق فيغير تفسيره ليبقى موقفه.

ثالثًا: اتخاذ المقدس جُنّة: الأيمان والأعذار وحماية الكذب

حتى القسم بالله يمكن أن يتحول من علامة تعظيم إلى أداة حماية؛ فالقرآن يقول: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون: 2]. لفظ ﴿جُنَّةً﴾ يكشف الوظيفة: شيء يتترس به صاحبه حتى لا تصل المساءلة إلى الحقيقة.

الجُنّة هي ما يتقى به. فالقسم هنا لم يكن أثرًا من آثار تعظيم الله، بل درعًا يحمي صاحبه من انكشاف الحقيقة ومساءلة المجتمع.

نص القرآن على اتخاذ الأيمان جُنّة، وكشف أعذارًا كاذبة متكررة. ومن ذلك يستفاد أن المقدس قد يُستعمل ساترًا للقول بدل أن يكون هاديًا إليه. وفي الواقع قد يتسع هذا إلى رفع منسوب الخطاب الديني عند المساءلة حتى يصعب التحقق من الدعوى؛ وهذه صورة تطبيقية تُفحص بوقائعها ولا تُحكم بمجرد كثرة الألفاظ الدينية.

وفي المتخلفين عن الجهاد يخرج العذر في صورة عجز قاهر: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 42]. إنهم لا يقولون: لم نُرِد، بل يصوغون القرار المقصود كأنه شيء لم يكن في طاقتهم أصلًا.

لم تكن المشكلة في غياب القدرة، بل في غياب الإرادة. لكنهم أعادوا صياغة عدم الرغبة في صورة عدم الاستطاعة.

ومن هذه المشاهد يمكن استنباط طريقة في صناعة العذر: تحويل القرار المقصود إلى ظرف قاهر، حتى يبدو الفعل خارج دائرة الاختيار والمسؤولية.

وفي موضع آخر: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: 74].

فلما ظهرت الكلمة، لم يبدأوا بمراجعة أنفسهم، بل بالإنكار والحلف.

ولما انكشف استهزاؤهم قالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65].

وحين تعذر إنكار الفعل، انتقلوا إلى تغيير اسمه ومعناه: لم يكن استهزاءً، بل مزاحًا عابرًا.

فرد القرآن الفعل إلى حقيقته: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: 65].

ومن مجموع المواقف القرآنية يظهر مسار دفاعي يمكن تحليله هكذا: إخفاء الدافع، ثم إنكار الفعل عند الكشف، ثم حماية الإنكار بالحلف، ثم تغيير تفسير الفعل بعد ثبوته أو تهوينه بالخوض واللعب. أما اتهام الكاشف بسوء الفهم أو القصد فهو امتداد تحليلي معاصر لهذه الوظيفة، لا نصًّا في كل تلك الوقائع.

ولا يلزم أن تجتمع هذه المراحل كلها في كل موقف، لكنها تكشف أن العذر المنافق ليس بيانًا للسبب، بل محاولة لإعادة صناعة الواقعة بما يحفظ الصورة ويمنع المحاسبة.

وقد يقع ذلك في مؤسسة أخفقت في مسؤولية ظاهرة، فلا تعترف بالتقصير، بل تقول أولًا: لم يقع شيء. فإذا ظهرت الوثائق، قالت: وقع، لكنه محدود. فإذا ظهر اتساعه، قالت: كان اضطرارًا. فإذا ثبت أنه كان قرارًا متعمدًا، اتهمت من كشفه بأنه يهدد سمعة المؤسسة.

وهكذا ينتقل الخطاب من إنكار الواقعة إلى إنكار دلالتها، ثم إلى مهاجمة الشاهد عليها.

العذر الصادق يختلف؛ فهو واضح، قابل للتحقق، لا يتبدل بتبدل الأدلة، ولا يمنع صاحبه من الاعتراف بنصيبه من الخطأ وإصلاح ما أفسده.

العذر الصادق يشرح العجز، أما العذر المنافق فيخفي الإرادة.

والصادق يريد أن تصل المحاسبة إلى الحقيقة ولو أدانته، أما صاحب الخطاب المنافق فيريد أن ينجو من الإدانة ولو ضاعت الحقيقة.

ولهذا فإن المجتمع الذي يجعل القسم، أو المكانة، أو العلاقات الشخصية بديلًا عن الدليل يهيئ للنفاق بيئة مناسبة. وليس من إساءة الظن أن تُطلب البينة، ولا من قلة تعظيم الله أن يُمنع الحلف من أن يكون بابًا لإغلاق التحقيق.

رابعًا: إسقاط الصادقين حتى لا يبقى للصدق شاهد

ثم ترى معيارًا لا يريد أن ينجو منه أحد: الكثير يُلمز، والقليل يُسخر منه. جمع القرآن الطرفين في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79]. فإذا أُدين البذل في حالتيه، لم يعد مقدار البذل هو القضية.

جاء رجل بصدقة كثيرة فاتهمه المنافقون بالرياء، وجاء آخر بما يقدر عليه فسخروا من قلة عطائه. فلم يكن مقدار الصدقة هو موضع الاعتراض، لأن الكثير والقليل أدينا معًا.

إن المعيار هنا لم يوضع لمعرفة الصواب، بل لإسقاط العامل أيًّا كان عمله.

ومن أثر هذا المسلك أنه لا يناقش الصدق بحجة فقط، بل قد يزيل الثقة بالشخص الذي يجسده؛ فينتقل الصراع من صحة الفعل إلى صلاحية الشاهد عليه.

فإذا تقدم الصادق بالبذل، كشف تقصير القاعد، وأقام في المجتمع شاهدًا على إمكان العمل. ولهذا يكون إسقاط نيته أيسر من منافسة أثره.

فيقال عن كثير البذل: مراءٍ.

وعن قليل البذل: لا قيمة لعمله.

وعن من يعلن مبادرته: طالب شهرة.

وعن من يكتمها: يخفي وراءها شيئًا.

وعن المستقل: يشق الصف.

وعن المتعاون: يبحث عن النفوذ.

ولا يوجد عمل يستطيع اجتياز هذا المعيار؛ لأنه مصمم لإدانة صاحبه في جميع الأحوال.

وفي هذا السياق يؤدي الخطاب وظيفة تتجاوز نقد العمل إلى تحطيم قيمته الأخلاقية؛ حتى يضعف أثر النموذج الصالح في المجتمع.

فالأثر لا يقف عند الطعن في الشخص، بل قد يمتد إلى معنى الصدق الذي يمثله. أما قصد إسقاط الصدق نفسه فلا يجزم به إلا بقدر ما يثبت من القول والعمل.

وقد يكون الهدف من الطعن في عالم أو مصلح أو مسؤول نزيه أوسع من إسقاطه شخصيًّا؛ إذ يراد أن يصل المجتمع إلى نتيجة أشد خطرًا: لا أحد صادق، وكل صاحب عمل طالب لمصلحة، ولا معنى للتضحية، ومن الأفضل أن يبقى الإنسان متفرجًا.

وبهذه الطريقة يتحول الشك من احتياط مشروع إلى ثقافة تعطل العمل.

وقد تعرض جهة مشروعًا نافعًا، فلا يناقش خصومه نتائجه أو أخطاءه، بل يفتشون عن تفسير يطعن في دوافع أصحابه. فإن عجزوا عن إثبات فساد العمل، جعلوا احتمال فساد النية دليلًا كافيًا لإسقاطه.

لكن النيات لا يعلمها إلا الله، والاحتمال لا يهدم العمل الثابت.

ولا يعني هذا منع النقد أو الامتناع عن فحص النزاهة، فقد يكون العمل الصالح في ظاهره ستارًا للفساد. لكن النقد الصادق:

115. يبدأ من واقعة أو دليل، يستعمل معيارًا واحدًا مع القريب والبعيد، يعترف بالخير ولو صدر من مخالف، يفرق بين الخطأ وصاحب الخطأ، يسعى إلى الإصلاح، لا إلى تلويث المجال كله.

أما اللمز المنافق فينصرف عن الوقائع التي يمكن التحقق منها إلى النيات التي لا يمكن إثباتها. وهو لا يريد تصحيح العمل، بل يريد أن يفقد العامل ثقة الناس، وأن تفقد الناس ثقتها بإمكان وجود عمل صادق.

النقد يبحث عن إصلاح العمل، واللمز يبحث عن إسقاط العامل.

ومن أخطر آثار هذا المسلك أنه يهدم الثقة العامة. فالمجتمع لا يبنى بالقوانين وحدها، بل بإيمانه أن الصدق ممكن، وأن البذل له قيمة، وأنه يستطيع التمييز بين من يبني ومن يهدم.

فإذا تساوى الجميع في خطاب السخرية والاتهام، لم ينتصر المفسد بحجته، بل انتصر حين جعل الصدق نفسه موضع ريبة.

خامسًا: الاستهزاء - حين تخرج العداوة في صورة المزاح -

وإذا كان اللمز يستهدف إسقاط الثقة بالصادق، فإن الاستهزاء يذهب خطوةً أخرى: يحول الحق وأهله إلى مادة للضحك، حتى تصبح الجدية في الدين نفسها موضع حرج.

ليس كل ما يقال في صورة مزاح خفيفًا في حقيقته. فقد يكون المزاح أحيانًا طريقًا لإخراج ما لا يستطيع الإنسان قوله جادًّا، ثم الاحتفاظ بباب للهرب إذا أنكر عليه الناس.

وعند الاستهزاء بالله وآياته ورسوله ﷺ لا يترك القرآن للمزاح أن يغيّر اسم الحقيقة. يأتي السؤال كاشفًا: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، ثم يأتي الحكم صريحًا: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: 65-66]. فقولهم إنما كنا نخوض ونلعب لم يحوّل الاستهزاء إلى لعب بريء، ولم يضعف القرآن الحكم خوفًا من شدة الاسم.

ولهذا يبقى الحكم متعلقًا بحقيقة الاستهزاء ومتعلَّقه، لا بالقالب الذي قُدّم فيه ولا باسم «المزاح» الذي أُلحق به بعد الإنكار.

فإذا كان موضوع الاستهزاء الله أو آياته أو رسوله ﷺ أو شيئًا من دينه من حيث إنه من الدين، فالمزاح لا يغير الحكم؛ العبرة بحقيقة الاستهزاء ومتعلَّقه، لا بالستار الذي قُدّم تحته.

ولم يقف الاستهزاء عند المقدسات؛ ظهر كذلك في علاقتهم بالمؤمنين. إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14]، وإذا جاء أهل البذل إلى الصدقة لَمَزوا المطوعين وسخروا ممن لا يجد إلا جهده: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [التوبة: 79]. فالسخرية هنا تتحرك مع الموقف، لا ينجو منها كثير البذل ولا قليله.

فالمتصدق إن أكثر لمزوه، وإن جاء بجهده سخروا منه؛ وهذا هو النص. ومن جهة تحليل الأثر، يضعف الاستهزاء قيمة العمل، ويجعل الالتزام موضع حرج، ويمنح العداوة قالبًا يمكن إنكاره، وقد يحول المؤمن من صاحب موقف إلى مادة للسخرية. هذه وظائف مستفادة من المشهد، لا ألفاظًا صريحة في الآية.

وقد تبدأ البيئة في التغير حين يصبح الصادق يخجل من إظهار صدقه، والمتدين يخشى أن يظهر التزامه، لأن السخرية صارت العقوبة الاجتماعية لمن يأخذ القيم بجدية.

وهنا لا يحتاج المنافق إلى منع الناس من الخير بالقوة؛ يكفيه أن يجعل الخير محرجًا.

ويجب هنا التفريق بين المزاح المباح أو السخرية من أمر بشري، وبين الاستهزاء بالله أو الوحي أو الرسول ﷺ أو بشيء من الدين لأنه من الدين؛ فهذا كفر في نفسه كما سماه القرآن، ولا يخرجه من حكمه ادعاء المزاح. وكذلك السخرية من المؤمن لأجل إيمانه أو طاعته إذا كانت راجعة إلى التنقص من الدين نفسه. أما السخرية من شخص لصفة دنيوية أو من اجتهاد بشري فلا تُنقل إلى هذا الحكم لمجرد كون الشخص متدينًا. ثم يبقى ثبوت الواقعة وحكم المعيّن بابًا مستقلًا.

سادسًا: الإرجاف - صناعة الهزيمة قبل وقوعها -

والإرجاف ليس اسمًا حديثًا اخترعناه لخلاف لا يعجبنا، لقد سماه القرآن في قلب المدينة: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ [الأحزاب: 60]. لذلك ينبغي أن يبقى الاسم قويًّا حيث تثبت حقيقته، وأن يبقى التثبت قويًّا قبل إلصاقه بواقعة أو شخص.

الإرجاف في أصله نشر ما يوقع الاضطراب والخوف في المجتمع، وليس كل نقل لخبر مؤلم أو نقد لقرار أو تحذير من خطر حقيقي إرجافًا. وقد يقع بالكذب أو التهويل أو الانتقاء المضلل، ويُعرف بصدق مادته ووظيفته وآثاره وسياقه، لا بمجرد كونه خبرًا سيئًا.

ولهذا جاءت السنة بقاعدة شديدة الصلة ببيئة الإرجاف: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع». رواه مسلم في مقدمة صحيحه (5). فالإنسان قد لا ينشئ الخبر الكاذب من عنده، لكنه يصير جزءًا من آلة الكذب حين يلغي التثبت ويعيد بث كل ما يصل إليه.

وفي غزوة الأحزاب قال المنافقون:

﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

لم يكتفوا بوصف شدة الواقع، بل انتقلوا من الخوف من العدو إلى التشكيك في الله ورسوله.

وهنا يظهر الفارق بين التحذير والإرجاف:

116. التحذير يكشف الخطر ليعين على مواجهته.

117. والإرجاف يعرض الخطر بطريقة تسلب القدرة على المواجهة.

وأثر الإرجاف أن يستقر في النفوس تصور يضخم العجز ويضعف الثبات، حتى تبدو المقاومة عبثًا والهزيمة حتمية. أما الجزم بأن كل مرجف يقصد هذه النتيجة النفسية تفصيلًا فزيادة لا يثبتها مجرد الأثر.

إنه لا ينقل الخوف، بل يصنع به قرارًا.

ومن جهة تحليل آلية الإرجاف، قد يعمل بهذه الطريقة:

يختار المرجف أشد أجزاء الواقع إخافة، ثم يفصله عن سياقه، ويحذف عناصر القوة المقابلة، ويقدم الاحتمال السيئ كأنه النتيجة الحتمية، ويكرر الرواية حتى تكتسب سلطة الألفة. فإن طلب الناس مصدرًا، أحالهم إلى جهات مطلعة لا تسمى، أو أخبار يتناقلها الجميع، أو مؤشرات لا يمكن ضبطها.

وقد يبدأ الإرجاف من خبر صحيح، ثم يبنى حوله تصور كاذب. فصدق الجزء لا يعني صدق الصورة الكلية.

وفي البيئة الرقمية قد يقتطع مقطع قصير من سياقه، ويعنون بعنوان مثير، ثم تنقله عشرات الحسابات، فيظن المتلقي أنه أمام مصادر متعددة، مع أن الجميع يرجعون إلى مادة واحدة. وبعد ساعات يصبح نفي الخبر أبطأ من انتشاره، وتبقى صورته في الوعي ولو صُحِّح الخبر.

والخوف يضيق مجال النظر، ويزيد سرعة التصديق، ويدفع إلى البحث عما يؤكد الخطر؛ لذلك قد تكفي جرعة من القلق لجعل المجتمع أقل ثقة وأسرع انقسامًا وأضعف قدرة على العمل. وهذا تفسير لآلية الأثر النفسي، لا دعوى علم بما يدور في قلب كل ناشر للخبر.

وقد يكون من أثر الخطاب المضلل أن يجعل الحقيقة ملتبسة حتى يتساوى الصادق والكاذب في وعي المتلقي وتتوقف المحاسبة. هذا وصف للأثر الممكن، لا إثبات لقصد صاحبه بمجرد حصول الالتباس.

وقد يظهر الإرجاف في مؤسسة تواجه أزمة حقيقية، فيخرج من يكرر أن الانهيار وشيك، وأن كل محاولة للإصلاح متأخرة، وأن القيادات كلها فاسدة، وأن العاملين جميعًا عاجزون. لا يقدم خطة، ولا يحدد حجم الخلل، ولا يفرق بين المعلوم والمحتمل، وإنما يحول المشكلة الجزئية إلى فقدان شامل للثقة. وقد يبدأ المشهد بصورة واحدة صحيحة: قرار خاطئ، أو خسارة، أو تصريح مرتبك؛ ثم تتراكم فوقها عناوين من نوع «انتهى كل شيء»، و«لا أحد يصلح»، و«كل محاولة خداع». هنا يستطيع القارئ أن يرصد الانتقال من خبر يحتاج معالجة إلى رواية تصنع العجز.

وقد يكون في كلامه شيء من الحقيقة، لكن طريقته في تركيبها تخدم الهدم لا الإصلاح.

ولا يجوز في المقابل أن يستعمل وصف الإرجاف لإسكات الأخبار السيئة أو النقد الجاد. فقد يكون كتمان الخلل جريمة، ويكون كشفه واجبًا. وإنما يميز التحذير الصادق من الإرجاف بالنظر إلى:

118. ثبوت المعلومة، ودقة عرضها، ووضعها في سياقها، والتمييز بين الحقيقة والاحتمال، والاستعداد للتصحيح.

119. وأثر الخطاب: هل يقود إلى فعل مسؤول، أم إلى خوف مشلول؟

الناصح قد يقول كلامًا شديدًا، لكنه يوثق، ويحدد، ويشرح طريق المعالجة. أما المرجف فيعمم، ويهوّل، ويغلق أبواب الفعل.

التحذير يكشف الخطر ويحفظ القدرة، والإرجاف يعظم الخطر ليسلب القدرة.

والبناء المقابل للإرجاف ليس خطابًا مخدرًا يطمس الأخطار؛ بل قول سديد يصدق في الخبر، ويضع الخطر في حجمه، ويفتح باب العمل. فبين التهوين والتهويل منزلة الصدق: يرى الجرح ولا يقتل المريض بخبره، ويكشف الخلل ولا يحول الكشف إلى فلسفة للعجز.

سابعًا: الخطاب المزدوج؛ حقيقة لكل جمهور

ويضع القرآن الوجهين متجاورين حتى لا يحتاج القارئ إلى تركيب الصورة من مواضع متباعدة: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ [البقرة: 14]. مجلسان، وعبارتان، وحقيقة تتبدل في ظاهر الخطاب بتبدل الجمهور.

للمنافق جمهوران، ولذلك يصنع لنفسه خطابين: خطابًا يضمن له القبول داخل المجتمع المؤمن، وخطابًا آخر يثبت به ولاءه لمن ينتمي إليهم قلبه ومصلحته. والتناقض هنا ليس اختلاف أسلوب، بل اختلاف حقيقة بحسب من يسمع.

وجاءت السنة فسمّت هذه الخصلة في صورتها الاجتماعية تسمية كاشفة؛ قال النبي ﷺ: «إن شر الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه». رواه البخاري (7179)، ومسلم (2526). وليس المراد اختلاف العبارة المشروع باختلاف المقام، بل أن تتبدل الحقيقة والولاء بحسب المجلس.

وليس التناقض هنا اختلافًا في الأسلوب أو مقدار التصريح؛ فالحكيم قد يفصل في موضع ويختصر في آخر، ويلين هنا ويشتد هناك، من غير أن يبدل حقيقته أو ميزانه.

أما الخطاب المزدوج فيغير جوهر الموقف بحسب السامع.

وضده ليس أن يقول الإنسان العبارة نفسها لكل أحد، فالحكمة تراعي المقامات؛ وإنما أن تبقى الحقيقة واحدة. يلين الأسلوب ولا يتبدل المبدأ، ويختصر البيان ولا تنقلب الموازين، ويغيب الجمهور ولا يغيب الله. وهنا يحرر الإخلاص اللسان من عبودية التصفيق: فلا يحتاج صاحبه إلى حقيقة لكل مجلس.

الأضغان التي تتسرب إلى اللغة

وقد يخرج من الباطن شيء إلى نبرة القول وطريقته؛ ففي مقام أطلع الله فيه رسوله ﷺ قال: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ [محمد: 29-30]. الآية تفتح باب الانتباه إلى أثر الباطن في الخطاب، لكنها لا تمنح البشر اليوم مفاتيح قطعية لقلوب الناس.

يقرر القرآن إمكان ظهور أثر الأضغان في ﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ في المقام الذي أطلع الله فيه رسوله ﷺ. أما التفصيل في الانتقاء والتعريض والنبرة وطريقة عرض الوقائع فهو تحليل لغوي لوجوه محتملة يظهر فيها أثر الباطن، لا مفاتيح قطعية لقراءة القلوب.

وفي التحليل الخطابي قد يظهر التحيز في اختيار الأخبار والأوصاف: تضخيم خطأ جهة وتصغير خيرها، أو عرض نجاحها ببرود وإخفاقها بيقين، أو الاستعاضة بالتلميح عن التصريح. لكن هذه القرائن لا تسمى نفاقًا بذاتها، بل تُفحص مع صدق الخبر وعدل المعيار والسياق.

وهذا لا يعني أن البشر يستطيعون الحكم على القلوب من نبرة أو عبارة محتملة؛ فالآية في مقام كشف أطلع الله عليه رسوله ﷺ. والذي نستفيده منها بقدرها أن القول قد يحمل أثرًا من الباطن، أما تعيين هذا الأثر وسببه في الناس اليوم فباب قرائن واجتهاد لا علم سرائر.

ولذلك لا ينظر في الخطاب إلى الجملة المنفردة فقط، بل إلى النمط المتكرر:

1. ما الذي يختاره المتكلم؟
2. وما الذي يحذفه؟
3. ولمن يلين؟
4. وعلى من يشتد؟

5. وأي الوقائع تحرك غضبه؟

6. وأيها تمر عنده بلا اكتراث؟

فقد لا يقول الإنسان: أنا أكره هؤلاء، لكن لغته المتكررة قد تجعل كل خير عندهم مشكوكًا فيه، وكل خطأ أصلًا يفسر وجودهم كله.

أمام أهل الدين يرفع شعاراتهم، فإذا خلا إلى من يستخف بالدين شاركه استخفافه.

وأمام الجمهور يعلن معيارًا، وفي الغرف المغلقة يعمل بعكسه.

ويظهر فساد المعيار في اللغة نفسها: يطالب خصومه بما لا يطالب به حلفاءه.

ويجعل الفعل حكمة إذا صدر ممن ينتفع بهم، وخيانة إذا صدر ممن يخالفهم.

إنه لا يملك مبدأ يقيس به الأشخاص، بل يملك أشخاصًا يغير المبدأ لأجلهم.

وقد يظهر الخطاب المزدوج في مؤسسة تملأ وثائقها بالقيم، بينما تحكم قراراتها علاقات لا يمكن كتابتها. ويطلب من العاملين الالتزام بالمعايير، ثم تستثني أصحاب النفوذ منها. ويعلن أن الترقية للكفاءة، بينما يعلم الجميع أن الولاء الشخصي مقدم عليها. ومن أيسر طرائق الرصد هنا ألا تُقرأ كل رسالة وحدها: قارن ما يقال في الاجتماع الداخلي بما يعلن للجمهور، وما يُعرض على الممول بما يقال للمستفيد، وما يُكتب في اللائحة بما يطلب شفهيًّا عند القرار. جمع الخطابات كما جمع القرآن بين قولهم للمؤمنين وقولهم لشياطينهم يكشف ما لا تكشفه العبارة المنفردة.

ومع الوقت لا يبقى هذا التلون فعلًا فرديًّا، بل يتحول إلى ثقافة مؤسسية: يكافأ من يجيد قول ما يرضي كل طرف، ويعاقب من يجعل كلامه واحدًا في السر والعلن، وتصبح القرارات الحقيقية خفية، بينما تتحول القيم المعلنة إلى مادة للعلاقات العامة.

والأثر الاجتماعي لذلك أعمق من كذب فرد؛ إذ يتعلم الناس أن النجاح لا يكون بالصدق، بل بإتقان الوجوه المتعددة. ثم لا يعود التلون عيبًا، بل مهارة مطلوبة.

ومن هنا كان الصدق أوسع من الامتناع عن الكذب الصريح. الصدق أن تكون للإنسان حقيقة واحدة، يستطيع أن يقف بها أمام الجماهير المختلفة، وإن تنوعت عبارته وطريقته.

أما المنافق فلا يغير عبارته فقط، بل يغير انتماءه بحسب من يراه.

طاعة في المجلس وتبييت في الخفاء

وقد يبلغ الخطاب المزدوج مرحلة أخطر من اختلاف الكلام بين جمهورين: إعلانٌ بالطاعة يحفظ الموقع، وفعلٌ في الخفاء يصنع نقيضها. يقولون أمام النبي ﷺ: ﴿طَاعَةٌ﴾، فإذا خرجوا ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: 81]. الخلاف المشروع يستطيع أن يعلن نفسه ويناقش؛ أما هنا فالقول الظاهر يؤدي وظيفة الحماية، بينما يجري العمل في جهة أخرى. ويشتد هذا المعنى في قوله تعالى عن طاعة تُمنح سرًّا لمن كره ما نزّل الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26].

وفي التنزيل المعاصر قد يظهر انفصال بين ولاء معلن وطاعة عملية لجهة أخرى: حضور رسمي مع جماعة، مع تفاهمات خفية تضر بها، أو إعلان الالتزام بقرار مع العمل على تعطيله من الداخل. توصف هذه الأفعال بما يثبت منها، ولا تنقل صورة التبييت القرآنية إلى أعيان معاصرين بلا بينة.

والفرق بين الاختلاف المشروع والتبييت واضح: المختلف يعلن اعتراضه، ثم يقبل إجراءات القرار بعد صدوره أو ينسحب بوضوح. أما المنافق فيحتاج إلى أن يبقى داخل البناء، يظهر الطاعة ويعمل في الوقت نفسه على نقضها.

ومع الوقت يتحول ذلك إلى ثقافة مؤسسية خطيرة: الاجتماعات تقول شيئًا، والغرف المغلقة تقرر شيئًا آخر.

وعندها يفقد الناس ثقتهم في كل إعلان، لأن القرار الحقيقي لم يعد هو المكتوب، بل ما جرى في الخفاء.

ثامنًا: حين تتحول الكلمات إلى مشروع

إذا جُمعت طرائق الخطاب السابقة أمكن بناء صورة تحليلية مترابطة: صناعة الصورة تمنح شرعية اجتماعية، ودعوى الإصلاح تمنح الفعل اسمًا مقبولًا، والأيمان والأعذار قد تحميه عند المساءلة، والطعن في الصادقين يضعف المنافس الأخلاقي، والإرجاف يضعف إرادة المجتمع، والخطاب المزدوج يفتح

أبواب جهات متعارضة. هذا تركيب استنباطي من مشاهد متعددة، لا آية واحدة قررت «منظومة» بهذه الألفاظ.

فالكلمات تعيد توزيع الثقة والمكانة داخل المجتمع. فإذا تكرر وصف الصادق بالمراء، والمرجف بالخبير، والجبان بالحكيم، والمفسد بالمصلح؛ انتقلت المكانة من أصحاب الحق إلى أصحاب الصورة، ثم تحولت المكانة إلى نفوذ، والنفوذ إلى قرار.

وهنا يظهر خبث النفاق في أعمق صوره:

المنافق لا يكتفي بفعل الباطل، بل يعمل على إفساد المعيار الذي يُعرف به الباطل.

إنه لا يريد فقط أن يقبل الناس عذره، بل يريد أن يفقدوا القدرة على المحاسبة.

ولا يريد فقط إسقاط شخص صادق، بل يريد إسقاط إمكان الصدق نفسه.

ولا يريد فقط تمرير مشروع ضار، بل يريد منح الضرار حصانة دينية وأخلاقية.

ولا يريد فقط نشر خبر مخيف، بل يريد تحويل الخوف إلى عجز وانقسام.

ولا يريد فقط حماية صورته، بل يريد الاحتفاظ بحق توجيه من يخدعهم.

ولهذا كان من أعظم أساليب القرآن في المواجهة أن يعيد الأشياء إلى أسمائها:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: 12].
﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1].
﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: 65].
﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: 60].

فالقرآن لا يسمح للفاعل أن يحتكر تسمية فعله، بل ينزع عنه الاسم المزيف، ويكشف حقيقته الأخلاقية والإيمانية.

والمجتمع قد يرى الفعل، لكنه يعجز عن مقاومته إذا قبل الاسم الذي منحه صاحبه له. وما دام الضرار يسمى إصلاحًا، والإرجاف يسمى واقعية، والتلون يسمى ذكاءً؛ فإن مقاومة هذه الأعمال ستبدو مقاومة للفضائل نفسها.

ولهذا فإن معركة الأسماء ليست ترفًا لغويًّا، بل جزء من حماية الوعي.

ويبقى كشف هذا الخطاب محكومًا بالضابط الذي تقرر في المحور الأول: نصف القول والعمل والنمط والمشروع بما ثبت من آثاره، ولا نجعل تحليل الخطاب طريقًا للجزم ببواطن الأشخاص.

فالتكرار والازدواج والضرر المنظم يوجب الكشف والمحاسبة، لكنه لا يمنح البشر علم السرائر.

تاسعًا: مواجهة خطاب النفاق

لا تكفي مواجهة خطاب النفاق بخطاب مضاد؛ لأنه لا يعمل في اللغة وحدها، بل في الثقة والمعلومات والمصالح والمؤسسات.

إعادة القول إلى أثره — حين ترفع شعارات الإصلاح، ينظر في نتائجها. وحين يتكرر الحديث عن الوحدة، ينظر فيمن جُمِع ومن فُرِّق. وحين يعلن الحرص على الدين، ينظر في الموقف عندما تعارض الدين والمصلحة.

فالعمل أصدق شاهد على الخطاب.

120. منع المقدس من أن يصبح حصانة

القسم والفصاحة والمكانة لا تقوم مقام الدليل. وليس من تعظيم الدين أن يسمح باستعماله لإغلاق أبواب التحقق والمساءلة.

حماية الصادقين من اللمز المجاني — الدفاع عن أهل البذل لا يعني عصمتهم، لكنه يمنع أن تتحول التهم التي لا دليل عليها إلى سلاح يطرد كل مصلح من المجال العام.

أما إغلاق فراغ الشائعة، وبناء المؤسسات التي لا تكافئ التلون، فسيأتي تفصيلهما عند الحديث عن النفاق في المجتمع ومنهج المواجهة. ويكفي هنا تقرير أن الخطاب المضلل يضعف حين تتوافر المعلومات، وتصبح المحاسبة ممكنة، ولا تكون الصورة بديلًا عن العمل.

إبقاء باب التوبة مفتوحًا — على شدة كشف القرآن للنفاق لم يغلق باب الرجوع، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [التوبة: 74].

فالمقصود من الكشف ليس التشفي، بل حماية الحق، ورد الإنسان إليه. والتوبة ليست تغييرًا في اللغة فقط، بل اعتراف وترك للعمل وإصلاح لما أُفسد، حتى يعود الظاهر والباطن إلى الاجتماع.

خاتمة المحور: حين تستر الكلمة الباطل وحين تكشفه

ليس أخطر خطاب النفاق هو الكذب المكشوف؛ فهذا يسهل رده. أخطره الكلام الذي يحمل جزءًا من الحق، ويستعير لغة الدين والأخلاق والمصلحة، ثم يوظفها لحماية الباطل.

ولهذا وصل الكشف القرآني بين ما يختبئ في القلب وما يظهر في طريقة القول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: 29-30]؛ وليس المقصود أن البشر يملكون بهذا علم السرائر، وإنما أن الخطاب نفسه قد يحمل قرائن وآثارًا تُفحص بقدرها ولا تتجاوز إلى الجزم بالباطن.

فالمنافق لا يقول دائمًا: أنا مفسد، بل يقول: أنا مصلح.

ولا يقول: أنا جبان، بل يقول: أنا حكيم.

ولا يقول: أريد هزيمتكم، بل يقول: أصف لكم الواقع.

ولا يقول: أكره الصادقين، بل يقول: أكشف نياتهم.

ولا يقول: لا أريد تحمل الكلفة، بل يقول: لا أستطيع.

ولا يقول: أغير موقفي لمصلحتي، بل يقول: أنا مرن أراعي الظروف.

ومن هنا لا يكفي أن يعرف المجتمع أن المنافق يكذب؛ بل يحتاج إلى فهم كيف يعمل الكذب، وكيف يستعمل الحق، وكيف يبدل الأسماء، وكيف ينقل التهمة من نفسه إلى من يكشفه.

غير أن النجاة لا تكون بكثرة الاتهام، ولا بتحويل المجتمع إلى ساحة تفتيش في القلوب. إنما تكون بميزان يستمد أسماءه من الوحي، ويتثبت من الوقائع، ويتتبع الآثار، ويفرق بين الخطأ والنمط، وبين العمل وفاعله، وبين كشف الظاهر ودعوى علم الباطن.

النفاق يفصل الكلمة عن الحقيقة، والصدق يعيد جمعهما.

النفاق يجعل الخطاب ستارًا للعمل، والصدق يجعل العمل شاهدًا للخطاب.

النفاق يحتاج إلى حقيقة لكل جمهور، والصدق قد تتنوع عبارته لكن قلبه وموقفه واحد.

وأقوى ما يواجه به خطاب النفاق ليس البلاغة وحدها، بل مجتمع لا يغتر بالشعارات، ولا يجعل الأيمان بديلًا عن البينات، ولا يستسلم للإرجاف، ولا يطرد الصادقين بالسخرية، ولا يمنح المفسد حق تسمية فعله، ولا يكافئ من يحسن صناعة صورته أكثر مما يكافئ من يحسن حمل أمانته.

المحور الخامس: المنافق في مواقف الاختبار

حين تسقط الأقنعة تحت ضغط الكلفة

ما أيسر المبادئ حين لا تطلب ثمنًا. يستطيع الإنسان أن يتحدث طويلًا عن البذل ما دام غيره هو الذي يبذل، وعن الشجاعة ما دام الخطر بعيدًا، وعن التجرد ما دامت المصلحة آمنة. لكن الموقف يتغير حين يطرق المبدأ باب المال أو المكانة أو الأمن ويقول لصاحبه: الآن ادفع.

ولا تظهر حقيقة الانتماء كاملة في ساعة الكلام، بل في ساعة الكلفة.

عندها لا يصنع الاختبار قلبًا جديدًا، إنه يضغط على الموجود حتى يظهر ترتيب المحبوبات. ما الذي يُقدَّم حين يتعارض رضا الله مع رضا الناس؟ وأيُّ صوت يبقى حاكمًا حين يصير الالتزام مكلفًا؟ هنا تتحول الدوافع التي درسناها، والحجج التي بناها العقل، والكلمات التي صاغها اللسان، إلى قرار له ثمن.

ولهذا عرض القرآن المنافقين الذين كشفهم الوحي في مواقف عملية متتابعة، وربط بين ما في قلوبهم وما ظهر عند الكلفة: عند الصلاة والإنفاق، وعند الخوف والنفير والجهاد، وعند التحاكم، وعند تعارض الولاء مع المصلحة، وعند ظهور نتائج الأحداث. ففي هذه المواطن ترتفع الكلفة وتضيق مساحة الادعاء. ونحن نأخذ من هذا قوة الموقف في كشف صدق الدعوى وآثار الاختيار، ولا نستعير من الوحي علمه بباطن أولئك لنمنحه لأنفسنا في أعيان الناس اليوم.

ولهذا جاء الابتلاء في القرآن طريقًا للتمييز لا مجرد حدث عارض: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [العنكبوت: 11]؛ فالمواقف ذات الكلفة تُظهر ما لا تظهره الدعوى المجردة.

في هذه المواطن تسقط مسافة الأمان بين القول والعمل، ويضطر الإنسان إلى الاختيار. ومن هنا كانت لحظات الاختبار أصدق كشفًا من آلاف العبارات.

ولا يعني ذلك أن كل من ضعف في عبادة، أو بخل مرة، أو خاف في أزمة، أو أخطأ في موقف، منافق نفاقًا أكبر. فالمؤمن يضعف ويقوى، ويذنب ويتوب، وقد يغلبه الخوف ثم يراجع نفسه ويستقيم. وتكرار المواقف قد يكشف نمطًا من أعمال المنافقين ويستوجب الحذر والمحاسبة، لكنه لا يثبت وحده

النفاق الأكبر، فحقيقته كفر باطن مع إظهار الإسلام، وقد يكشفه قول أو فعل كفري صريح أو بينة معتبرة، لا مجرد تراكم الانطباعات.

الفرق ليس في وجود الضعف وحده، بل في موقف القلب منه:

المؤمن يضعف وهو يعلم أنه ضعف، أما المنافق فيعيد تسمية ضعفه حتى يبدو حكمةً وحقًّا.

أولًا: العبادة - حين يغيب الجمهور -

في الصلاة نفسها يجمع القرآن المشهد كله: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ضمن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: 142]. الجسد في موضع العبادة، لكن عين القلب معلقة بمن يراه، والذكر الذي هو روح الصلاة قليل.

تكشف الآية أربعة معالم متصلة في عبادة المنافق: خداعًا متوهمًا، وقيامًا إلى العبادة بلا رغبة، وتعلقًا بأنظار الناس، وغيابًا لحضور القلب مع الله. فالعبادة موجودة في ظاهرها، لكن مركزها الحقيقي ليس الله وحده.

فالمنافق لا يعبد الله بوصفه الغاية التي يقصدها، بل يؤدي العبادة بوصفها علامة انتماء اجتماعي يحتاج إليها. فإذا كانت العبادة تحفظ صورته أداها، وإذا غاب من يراقبه ثقلت عليه أو تركها.

إنه يريد من الصلاة شاهدًا له أمام الناس، لا مقامًا يشهد فيه قلبه لله.

ولهذا لم يقل القرآن فقط: إنهم يصلون رياءً، بل قال: ﴿وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، لأن أصل الخلل ليس في حركة الجسد، بل في غياب المقصود بالعبادة عن القلب.

وتتكرر العلامة في موطنين من أثقل ما على النفس: الصلاة والمال: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: 54]. فحين يغيب معنى القرب من الله، تبقى حركة الجسد ونفقة اليد بلا قلب يريدها.

الكسل هنا ليس مجرد ثقل بدني عارض، بل أثر لعلاقة مضطربة بالتكليف. فمن لا يريد الله لا يجد في الوقوف بين يديه معنى يبعثه، وإنما يجد واجبًا اجتماعيًّا يجب إنجازه بأقل قدر ممكن.

وتأتي السنة فتختبر هذه الصورة في موضع تقل فيه عيون الناس وتثقل فيه الحركة؛ فيقول النبي ﷺ: «ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا». رواه البخاري (657)، ومسلم (651) بنحوه. فحين يضعف ربح الصورة، يظهر معنى العبادة التي لا تقوم على الجمهور.

وفي صحيح مسلم مشهد آخر يشرح قوله تعالى: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ قال ﷺ عن صلاة العصر التي تؤخر حتى تصفر الشمس: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا». رواه مسلم (622). فالسنة هنا لا تأتي بمعنى منفصل عن القرآن، بل تجسد الصورة القرآنية في هيئة عبادة ثقيلة مؤخرة قليلة الذكر.

ويترك الحديث سؤالًا أبعد من حضور صلاة بعينها: ما مقدار ما يبقى من طاعتك حين ينخفض العائد الاجتماعي إلى الصفر، ولا يبقى شاهد على العمل إلا الله؟

وقد تتجدد هذه الصورة في واقعنا بوسائل مختلفة. فقد يكون للإنسان حضور ديني ظاهر، ينشر الآيات والمواعظ، ويظهر في مواطن الخير العامة، لكنه لا يكاد يعرف لنفسه عبادة خفية، ولا صلاة يحافظ عليها حين لا يراه أحد، ولا ذكرًا إلا ما أمكن نشره.

ليست المشكلة في نشر الخير، ولا في إظهار العمل الصالح مطلقًا؛ فقد تكون المصلحة في إظهاره، ويكون صاحبه مخلصًا. وإنما موضع الخطر أن يصبح الظهور هو الذي يمنح العبادة قيمتها في نفس صاحبها، حتى إذا تعذر العرض فقد الدافع.

وقد يتكون داخل مؤسسة دينية أو دعوية نوع من التدين الوظيفي: لغة شرعية حاضرة في الاجتماعات، ومظاهر منضبطة أمام الجمهور، لكن الحقوق تضيع في المكاتب المغلقة، وتُظلم النفوس بعيدًا عن الكاميرات، ويختفي الورع عند تعارضه مع النفوذ.

وهنا تكشف العبادة الخارجية عن عجزها عن إصلاح صاحبها؛ لأنها لم تكن في الأصل صلة بالله، بل جزءًا من الهوية المهنية أو الاجتماعية.

لكن لا يجوز أن يحاكم الناس بعضهم بعضًا بمجرد تفاوت النشاط في العبادات؛ فقد يكون المؤمن مريضًا، أو متعبًا، أو يمر بفتور حقيقي، ويكره ضعفه ويقاومه. والفارق أن المؤمن يرى تقصيره نقصًا

يحتاج إلى علاج، أما الخطاب المنافق فيقبل العبادة ما دامت تخدم الصورة، ثم لا يشعر بفقدها إذا غاب الناس.

وأقوى سؤال يكشف علاقة الإنسان بعبادته ليس: ماذا يراك الناس تفعل؟ بل:

ما الذي يبقى من عبادتك حين لا يبقى لها شاهد إلا الله؟

ثانيًا: المال - حين ينازع الإيمانَ السلطانُ الحقيقي -

المال ليس مجرد متاع؛ إنه موضع تتجمع فيه حاجات النفس ومخاوفها ورغبتها في السيطرة. ولذلك كان اختبار المال من أصدق الاختبارات؛ لأن الإنسان قد يعلن فكرة لا تكلفه شيئًا، لكنه حين يطالب أن يدفع من ماله يظهر ما يثق به حقًّا.

وهناك امتحان لا يبدأ عند فقد المال، بل عند مجيئه. عاهد قومٌ الله: ﴿لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فلما جاء الفضل نفسه ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾، ثم جاء العقب: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: 75-77]. لقد كانت النعمة التي تخيلوا أنها ستصنع صلاحهم هي التي كشفت ما وراء الوعد.

كان من السهل أن يُعلَّق الصلاح على شيء لم يصل بعد: إذا جاء المال تصدقنا، وإذا اتسعت القدرة تغيرنا. لكن المال حين جاء لم ينشئ قلبًا جديدًا، كشف القلب الموجود. وهذه خدعة تتكرر في النفس: تؤجل مسؤوليتها إلى ظرف قادم، ثم إذا جاء الظرف ظهر أن المانع لم يكن خارجيًّا كله. وقد جعلت الآيات إخلاف الوعد والكذب جزءًا من العاقبة التي استقرت في القلب، لا مجرد حادثة مالية عابرة.

والمنافق لا ينظر إلى المال على أنه أمانة ووسيلة عبادة، بل قد ينظر إليه بوصفه مصدر الأمان الحقيقي، وأداة النفوذ، والضمان الأخير إذا انقلبت الأحوال. ولهذا يضيق بالإنفاق؛ لأنه يشعر أن كل ما يخرج من يده يضعف قدرته على حماية نفسه والسيطرة على غيره.

وتكشف السنة عمق فساد الحرص حين يستولي على القلب، قال النبي ﷺ: «ما ذئبان جائعان أُرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه». رواه الترمذي (2376)، وقال: حديث حسن صحيح. وليس الحديث حكمًا بالنفاق على كل حريص، لكنه يبين كيف يستطيع المال وطلب

المكانة أن يفسدا الدين من داخله، وهو ما يفسر شدة الامتحان حين تتعارض المصلحة مع مقتضى الإيمان.

ولا يقف القرآن عند البخل الفردي، بل يضع قبض اليد داخل اتجاه جماعي أوسع: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]. فاليد التي تنكمش عن الخير جزء من صورة يتغير فيها اتجاه الأمر والنهي والعطاء معًا.

لم يقل: يبخلون فقط، بل قال: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾؛ في صورة توحي بأن اليد التي يفترض أن تمتد بالخير تنكمش على ما تملك، فلا يصل منها نفع إلى غيرها.

وقد يتجاوز المال عند المنافق البخل الفردي إلى أن يصبح وسيلة ضغط على المجتمع المؤمن. قال تعالى عنهم: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ [المنافقون: 7].

هنا لا يكتفي المنافق بالامتناع عن الإنفاق، بل يحاول تجفيف موارد الآخرين ليضطروا إلى الانفضاض عن الحق.

إنه يدرك أن الإنسان قد يثبت على المبدأ ما دام يجد ما يقيم حياته، فيستعمل المال لفصل المؤمن عن جماعته وقضيته. وهذا يكشف أن البخل المنافق ليس دائمًا حبًّا للمال فقط، بل قد يكون إدارةً للمال بقصد إخضاع الناس.

وقد تظهر هذه الطريقة حين تمول جهة مشروعًا نافعًا ما دام تابعًا لها، فإذا استقل برأيه أو رفض الانحراف أوقفت عنه الدعم، لا لعجز ولا لتغير موضوعي في الأولويات، بل لتجعل حاجته وسيلة لإعادته إلى الطاعة. والرصد هنا يكون بمقارنة معايير التمويل قبل الخلاف وبعده: هل تغيرت جودة المشروع فعلًا؟ هل تغيّرت الأولويات على الجميع أم عليه وحده؟ هل عاد المال فور عودة الولاء؟ حين تتكرر هذه القرائن يظهر أن المورد لم يعد أداة لخدمة المقصد، بل أداة لضبط الموقف.

وقد تمنح مؤسسة المكافآت والقرب والفرص لمن يمدح ويوافق، وتحرم منها من ينصح ويعترض، فيصبح المال أداة لتعليم الناس أن الصدق مكلف، وأن التلون مربح.

هنا لا يكون الفساد في مقدار الإنفاق فقط، بل في تحويل المال إلى نظام يعيد تشكيل الضمائر.

ومن خبث هذا المسلك أنه قد يلبس لبوس التنظيم المالي، أو حماية الموارد، أو رفع الكفاءة، مع أن المعيار الحقيقي ليس حاجة المشروع ولا أثره، بل مقدار ولائه لمن يملك المال.

ولا يعني هذا أن كل امتناع عن تمويل مشروع بخل أو نفاق؛ فقد يكون المشروع ضعيفًا، أو توجد أولويات أعلى، أو يعجز الممول. وإنما يكشف العمل المنافق حين تختلف المعايير باختلاف الولاء، ويستخدم المال لمعاقبة الصادق ومكافأة المتلون، ويُمنع الخير لا لفساده بل لعدم خضوعه.

الإنفاق الصادق يحرر المال من أن يكون سيدًا، أما البخل المنافق فيجعل الإنسان حارسًا لما يظنه يحرسه.

وحين يستقر اليقين بأن خزائن السماوات والأرض لله، يتغير معنى الإنفاق نفسه: لا يعود خروج المال نقصًا محضًا، ولا يصبح المنع ضمانًا للأمن. إن الذي يثبت القلب هنا ليس ازدراء الأسباب، بل معرفة من يملك الأسباب والنتائج جميعًا.

ومن هنا كان اختبار المال سؤالًا عن العقيدة قبل أن يكون سؤالًا عن السخاء:

أين يضع الإنسان أمانه الحقيقي: في وعد الله، أم فيما قبضت عليه يده؟

ثالثًا: الخوف - حين ينهار الإيمان بالغيب -

لا يذم القرآن الخوف الطبيعي؛ فالخوف انفعال فطري، وقد اضطربت قلوب المؤمنين في مواطن الشدة. قال الله تعالى في وصف غزوة الأحزاب: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 10-11].

فالابتلاء يزلزل المؤمن، لكنه لا يلغي أصل إيمانه. والمعيار هنا ليس مقدار الخوف، بل ما يبقى حاكمًا بعده: قد يخاف المؤمن ثم يعود إلى ربه ويستعيد ميزانه بالوحي، أما ساعة الاختبار فتكشف هل صار الخوف قائدًا للموقف أم بقي الإيمان فوقه.

أما المنافق فيكشف الخوف ما كان مستورًا من سوء ظنه بالله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: 12].

لم يروا في شدة الحصار ابتلاءً يمتحن الصدق، بل رأوه دليلًا على بطلان الوعد كله.

فالخوف لم ينشئ شكهم، وإنما أعطاه صوتًا.

إن الإنسان في الرخاء يستطيع أن يجمع بين الإيمان المعلن والاعتماد الباطن على الأسباب المادية. لكن حين تنهار الأسباب التي وثق بها، يظهر هل كان يؤمن بالله حقًّا، أم كان الدين عنده جزءًا من تفسير الحياة ما دام لا يصطدم بما تراه العين.

ومن هنا يختلف خوف المؤمن عن خوف المنافق:

121. المؤمن يخاف من الخطر، لكن المنافق يخاف حتى من وعد الله.

122. المؤمن يطلب النجاة مع بقاء الحق حاكمًا، أما المنافق فيعيد تعريف الحق بما يضمن نجاته.

123. المؤمن قد يضعف عن العمل، أما المنافق فيعمل على إضعاف غيره.

124. المؤمن يتألم من خوفه، أما المنافق فيجعله فلسفة يدعو إليها.

ويكشف القرآن صورة أخرى من فساد ترتيب الخوف: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: 10].

فالأذى الحاضر من الناس يصبح في وعيه أشد تأثيرًا من وعيد الله الذي لا يراه.

لا ينكر الآخرة بالضرورة بلسانه، لكن ترتيب الخوف في قلبه يقول شيئًا آخر:

1. الناس حاضرون.
2. وأذاهم محسوس.
3. أما الحساب فبعيد في شعوره.

وحينئذ قد يبيع الإنسان موقفه حتى يتجنب ألمًا قريبًا.

ثم إذا جاء النصر: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾.

فهو يفر عند الكلفة، ويعود عند الأمان.

وهنا يظهر أن الخوف لم يكن مجرد انفعال، بل مرجعًا يحدد جهة الانتماء.

ويتجاوز الأمر أحيانًا الخوف إلى احتقار من يثبت، لأن المنافق لا يستطيع أن يفهم منطقًا يقوم على التوكل والثقة بالله مع وجود الخطر.

وعندما يرون المؤمنين يثبتون مع الخطر لا يسمون ذلك توكلًا، بل يقلبون الاسم: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾، ثم يرد القرآن الميزان إلى أصله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 49]. ما عجز الخائف عن فهمه أعاد تسميته غرورًا.

في نظرهم لم يكن ثبات المؤمنين توكلًا، بل اغترارًا بالدين.

وهذه من طرائق العقل المنافق: أن يعجز عن تفسير الشجاعة الإيمانية، فيعيد تسميتها سذاجةً أو اندفاعًا أو انفصالًا عن الواقع.

فهو لا يقول فقط: أنا أخاف.

بل يقول عن الثابت: هو لا يفهم حجم الخطر.

وبذلك يحول ضعفه إلى معيار يحاكم به إيمان الآخرين.

وحين ينتقل الخوف من داخل النفس إلى دعوة الآخرين للفرار وتعويقهم عن التكليف، لا يعود ضعفًا فرديًّا، بل يتحول إلى تخذيل منظم. وهذا هو موضوع المبحث التالي.

رابعًا: من القعود إلى التعويق — التخذيل عن الجهاد ونصرة الحق

ليس كل من قعد عن تكليف منافقًا، فقد يعجز المؤمن أو يمرض أو يخطئ التقدير. لكن القرآن كشف في المنافقين نمطًا يتجاوز الضعف الشخصي: يبدأ بغياب الإرادة، ثم يتحول إلى قعود، ثم إلى تبرير، ثم إلى دعوة الآخرين إلى القعود.

قبل ساعة النفير نفسها يضع القرآن يدك على دليل الإرادة: ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً﴾ [التوبة: 46]. فالنية التي لا تترك أثرًا في الإعداد حين يتسع الوقت له تصبح موضع سؤال قبل أن يأتي العذر المتأخر.

تكشف الآية معيارًا بالغ الدقة: صدق الإرادة يظهر قبل ساعة العمل في الاستعداد له.

فقد يكثر الإنسان من الحديث عن التزامه، لكن إذا لم يظهر لذلك الالتزام أثر في الإعداد، فقد يكون الخلل أعمق من عذر مفاجئ.

ثم يأتي القعود: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: 81].

لم يقعدوا فقط، بل فرحوا بالقعود، وهنا يظهر الفرق بين المؤمن العاجز والمنافق: قد يعجز المؤمن ويحزن، أما المنافق فيرى سلامته الشخصية مكسبًا ولو ترك غيره يحمل الكلفة. ثم لا يقف عند ضعفه، بل يحوله إلى خطاب عام، فقالوا: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة: 81]. ففي سياقهم لم يكن هذا مجرد خوف، بل تخذيلًا صريحًا: دعوة إلى ترك النفير الذي أمر به رسول الله ﷺ، وتحويل عذر النفس إلى تثبيط للآخرين.

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: 18].

والتعويق أوسع من القعود؛ فالمعوق لا يتحرك بنفسه، ويبطئ حركة غيره، ويدعو الناس إلى الانسحاب، ويضع العوائق في طريق من يريد الثبات. ولهذا قالوا: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ﴾ [الأحزاب: 13]؛ فلم يقدموا الخوف شعورًا شخصيًّا، بل قراءة نهائية للواقع توحي بأن الانسحاب هو النتيجة العقلانية الوحيدة، ثم أتبعوا ذلك بالأعذار.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: 13].

الظاهر: حماية البيوت.

والحقيقة: الفرار.

وهذا من أكثر طرائق التخذيل خطرًا: أن يعاد تقديم الخوف الشخصي بوصفه مسؤولية شرعية أو اجتماعية.

ثم إذا اشتد الخوف ظهر حالهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: 19].

فإذا ذهب الخوف: ﴿سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [الأحزاب: 19].

يغيبون عند البأس، ثم يحضرون بقوة في الكلام بعد الأمان. وهذه مفارقة متكررة في شخصية المنافق: قليل عند الكلفة، كثير عند توزيع الفضل؛ غائب عند الخطر، حاضر عند النقد والمطالبة بالنصيب.

ووصفهم الله كذلك بأنهم: ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

فليس الخلل في الجبن وحده؛ بل تكشف هذه المواقف انتماءً نفعيًّا يطلب السلامة ونصيب الجماعة مع التراجع عن كلفة النصرة، وهو معنى تؤيده مشاهد القعود والتربص ولا يحتاج إلى دعوى تفصيل ما في النفس وراء كل موقف.

إنه يشح بنفسه عند الخطر، وبماله عند الحاجة، وبنصرته عند الكلفة؛ ثم يكون شديد الحرص على نصيبه إذا ظهرت المكاسب. فهو ضعيف البذل شديد المطالبة، يريد من الجماعة ما لا يريد أن يدفع ثمنه معها.

وهذا يفسر اجتماع الجبن والبخل وسلاطة اللسان في مشهد واحد: من لم يقدم نصيبه من الكلفة قد يكون من أكثر الناس مطالبةً بنصيبه من الغنيمة والفضل.

ثم بعد وقوع المصيبة يأتي اللوم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: 168].

حوّل القاعد نجاته الشخصية إلى دليل على صحة موقفه. لم يسأل نفسه: هل كان الواجب يقتضي الخروج؟ وهل كان القعود سيمنع كل موت؟ وهل ساهم تخذيله في ضعف الصف؟ بل اختصر المسألة كلها في نتيجة واحدة: نحن بقينا أحياء، إذن نحن كنا على صواب.

وهذا منطق خطير يتكرر في مجالات كثيرة؛ يترك صاحبه العاملين وحدهم، فإذا أصابهم الضرر قال: ألم نحذركم؟ ويحذف من الصورة أن قعوده ربما زاد ضعفهم. ثم إذا زال الخطر وظهرت المكاسب عاد يطلب نصيبه، كما قال الله تعالى عن المخلفين عند ظهور المغانم.

﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: 15].

تخلف عند الخطر وتقدم عند الغنيمة، وهنا يظهر جوهر الانتماء النفعي: يريد الثمرة ولا يريد الكلفة. وقد تتجدد هذه الأنماط خارج ميدان القتال في الدعوة والإصلاح ونصرة المظلوم والمشروعات العامة والعمل المؤسسي، حيث يكثر من يقول: لا فائدة، والناس لن تستجيب، والوقت غير مناسب، والخطر كبير، وأصحاب المشروع متهورون.

وقد تكون بعض تقديرات الخطر صحيحة، ولذلك لا يسمى كل تحذير تخذيلًا. والمرجع الأول ليس النبرة المتشائمة، بل متعلق القول ووظيفته: هل يصد عن واجب ثبت وجوبه، أو يثبط عن نصرة حق واجبة بالكذب والتهويل وإغلاق أبواب الفعل؟ أم يناقش وسيلة أو توقيتًا أو مصلحة تحتمل الاجتهاد؟ فإذا اجتمع الصد عن الواجب مع صناعة العجز والسخرية من الثابتين والدعوة إلى القعود، ظهر معنى التخذيل بوضوح. فالمنافق لا يكتفي بأن يقعد، بل يحول قعوده إلى خطاب، وخوفه إلى فلسفة، وسلامته الشخصية إلى دليل على خطأ من حملوا الكلفة.

خامسًا: التحاكم - حين يصطدم الدين بالهوى-

قد يعلن الإنسان قبوله لحكم الله ما دام يتوقع أن يأتي الحكم في صالحه. لكن الاختبار الحقيقي يبدأ حين يخالف الحكم رغبته.

والتحاكم يضع الدعوى أمام نتيجة لا يمكن تجميلها. يقولون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾، ثم إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله أعرض فريق، لكن ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: 47-49]. هنا يظهر هل المرجعية حاكمة فعلًا، أم أنها تُستدعى حين تنتج الحكم المرغوب.

تكشف الآيات انتقائية دقيقة:

125. يعلنون الإيمان والطاعة.

126. ثم يعرضون عند التحاكم.

127. لكنهم يعودون مسرعين إذا توقعوا أن يكون الحكم لهم.

فالمشكلة ليست أنهم لا يعرفون طريق الحكم الشرعي، بل أنهم لا يريدونه إلا حين يؤدي إلى النتيجة التي يرغبون فيها.

إنهم لا يخضعون للحق، بل يستعملونه.

وهذا من أعمق اختبارات الإيمان؛ لأن الإنسان يستطيع أن يعظم المبدأ في العموم، لكن خضوعه له لا يثبت حتى يقبله حين يحد من سلطانه، أو يلزمه بحق لغيره، أو يمنعه مما يحب.

ويشتد التعبير أكثر حين يسمي القرآن دعوى الإيمان زعمًا ثم يضع قبالتها إرادة التحاكم إلى الطاغوت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء: 60]. القضية هنا ليست اختلافًا إجرائيًّا، بل صراع على المرجعية والطاعة.

استعمل القرآن لفظ ﴿يَزْعُمُونَ﴾، وجعل إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت في مقابلة ما زعموه من الإيمان مع أنهم أُمروا أن يكفروا به. فالوصف القرآني هنا شديد وصريح، ولا يصح اختزاله في مجرد اختلاف إجرائي في جهة التقاضي؛ القضية في أصلها صراع على المرجعية والطاعة.

وتتجدد صورة الاختبار حين يطالب الإنسان بالقاعدة ما دامت له، ثم يبحث عن الاستثناء حين تصبح عليه. هنا ليست القضية مجرد ازدواج نظري في المعيار، بل لحظة خضوع: هل يقبل حكم الحق حين يحد من مصلحته، أم يستعمل المرجعية ما دامت تخدمه؟

وقد تدعو مؤسسة إلى المساءلة، لكنها لا تطبقها إلا على الضعفاء. وتعلن أن الجميع أمام النظام سواء، ثم تتغير القراءة القانونية حين يقترب الأمر من صاحب نفوذ. وهنا لا يحتاج القارئ إلى تخمين النيات؛ يكفيه أن يجمع الحالات المتشابهة: المخالفة نفسها، والعقوبة نفسها، ثم يسأل هل تغيّر الحكم حين تغيّر الاسم؟ إن ثبات النص وتبدل التطبيق هو الواقع الذي يمكن رصده ومحاسبته.

وهنا لا يعود النظام ميزانًا فوق الأشخاص، بل أداة في يد الأقوى.

ومن تحليل الانتقائية يظهر أن المعيار قد يبقى معلنًا، بينما يتغير توقيت تطبيقه أو تفسيره أو الأشخاص الذين يشملهم. عندئذ تمنح القاعدة المعلنة صورة العدالة، وتمنح انتقائية التنفيذ نتائج الهوى؛ وهذا تحليل لوظيفة الازدواج، لا وصفًا قرآنيًّا حرفيًّا لكل صورة مؤسسية.

وهذه من أخبث صور الفساد؛ لأنها تجمع بين ظلم الواقع ونقاء الشعار. فتظهر في المطالبة بالشفافية من الخصم مع إخفاء المعلومات عن الحليف، ورفض المحاباة حين تضر الجماعة وقبولها حين تنفعها، والتشدد في أخطاء المخالف مع البحث عن الأعذار لصاحب الولاء، والاحتجاج بحرمة الغيبة عند كشف فساد القريب ثم نشر الظنون في البعيد.

128. الدعوة إلى السمع والطاعة حين يكون القرار موافقًا، والتمرد على كل مرجعية حين يخالف المصلحة.

ولا يعني ذلك أن كل اعتراض على حكم قضائي أو نظام إداري نفاق؛ فالحاكم والقاضي والأنظمة البشرية قد تخطئ، وقد يكون التطبيق جائرًا، وقد يوجد مجال معتبر للاجتهاد. وإنما موضع الاختبار هو الموقف من حكم الله نفسه: هل يطلب الإنسان الحق ولو كان عليه، أم يرد الوحي أو يهرب منه حين يخالف هواه؟

كما لا يلزم من كل حكم أو تحاكم بغير ما أنزل الله في واقعة الحكم بالكفر الأكبر أو النفاق الأكبر؛ فقد يقع ذلك لهوى أو رشوة أو مصلحة أو خوف مع إقرار صاحبه بأن حكم الله هو الحق الواجب وأن مخالفته معصية. وهذا لا يهوّن الفعل، بل يضعه في مرتبته الشرعية من غير زيادة ولا نقص.

أما رد حكم الله، أو بغضه لأنه حكمه، أو جحد لزومه، أو استحلال الحكم المخالف له، أو اعتقاد أن غيره أفضل منه أو مساوٍ له؛ فهذا كفر أكبر في نفسه. وإذا اجتمع ذلك مع إظهار الإسلام وإبطان هذا الكفر دخل في حقيقة النفاق الأكبر. أما الحكم على واقعة أو شخص بعينه فمرده إلى ثبوت الصورة ومعرفة حالها على الوجه الشرعي، لا إلى التشابه العام وحده.

المؤمن قد ينازع نفسه في قبول الحق، لكنه يعلم أن كمال إيمانه في التسليم له. أما المنافق فيريد من الدين أن يصدق رغبته، لا أن يصححها.

ومن هنا يكون التسليم بناءً للصدق مع الله قبل أن يكون موقفًا قضائيًّا: أن تقبل الحكم حين يكون لك وحين يكون عليك، وأن لا تجعل رضاك الشخصي مقياس عدله. والعدل الذي لا يصمد أمام خسارة النفس ليس عدلًا بعد.

سادسًا: الولاء - حين تتغير موازين القوة -

عند تغير موازين القوة لا يعود التربص فكرة في الذهن؛ يتحول إلى اختيار في الولاء والنصرة والمصلحة.

وهنا يظهر معنى الثبات: ألا يحتاج الحق في قلبك إلى ضمان الغلبة قبل أن تنتمي إليه. فالمؤمن لا يعبد النتيجة، ولا يستمد عزته من الجهة التي تبدو أقوى في اللحظة؛ بل يعرف أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، ثم يتعامل مع تغير القوى بعقل وبصيرة من غير أن يبيع مركزه الداخلي. وهنا يكشف الاختبار هل يثبت الإنسان مع الحق إذا ضعفت مكاسبه، أم يبقى قريبًا من الجهات المتعارضة حتى ينتسب إلى الطرف الغالب بعد ظهور النتيجة.

وحين تتغير موازين القوة ترى التربص وقد أعد لكل نتيجة روايتها: إن جاء المؤمنين فتح قالوا ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، وإن كان للكافرين نصيب قالوا ﴿أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 141]. ليست المشكلة ترددًا قبل اتضاح الحق؛ بل إبقاء الولاء قابلًا للبيع بعد اتضاح الغالب.

لقد أعدوا لكل نتيجة خطابًا يناسبها: إن انتصر المؤمنون طالبوا بنصيبهم لأنهم كانوا معهم، وإن غلب الكافرون ذكروهم بما قدموه لهم من خدمات. فليس هناك ولاء ثابت يحكم الموقف، بل موقف يتربص بالقوة التي يرجو منها المكافأة.

والتربص أعمق من التردد؛ فالمتردد قد يكون حائرًا يبحث عن الحق، أما المتربص فقد اتخذ قرارًا ألا يدفع كلفة الانتماء قبل أن يعرف الفائز.

إنه يريد ضمان الأرباح في جميع الحالات، ونقل الخسارة إلى أصحاب المبادئ.

ويخرج الخوف في صورة تفسير يبدو احتياطيًّا معقولًا: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: 52]. إنهم لا يقولون: بعنا ولاءنا، يقولون: نخشى تقلب الأحوال. وهنا يعمل الخوف بوصفه حجةً تعيد ترتيب الولاء.

إنهم لا يقدمون ولاءهم للجهة الأخرى على أنه محبة لها أو عداء للمؤمنين، بل على أنه احتياط عقلاني من تقلب الأحوال.

وتكشف العبارة منطق النفاق السياسي والاجتماعي: لا يرفض الحق صراحة، لكنه يرفض أن يقطع الصلة بالقوة التي قد يحتاج إليها إذا ضعف أهل الحق.

وقد يظهر ذلك في شخص يعلن تأييد قيمة ما أمام جمهورها، ثم يحافظ سرًّا على علاقات تخدم نقيضها، حتى إذا تغير ميزان القوة قال لكل طرف: كنت معكم.

وقد تفعل جهة ذلك حين تتبنى خطابًا دينيًّا أمام جمهور متدين، وخطابًا مناقضًا أمام جهة أجنبية أو نافذة، لا لمراعاة الأسلوب، بل لتقديم التزامين لا يمكن اجتماعهما.

هي لا تريد إقناع الطرفين بالحقيقة نفسها، بل تريد من كل طرف أن يعتقد أنها تنتمي إليه.

وقد يكون الاحتياط للمستقبل مشروعًا، وبناء العلاقات مع المختلفين حكمة، ولا يلزم من التواصل أو التفاوض خيانة. إنما يظهر النفاق حين يكون ثمن هذا الاحتياط:

129. التخلي عن الحق عند ضعفه؛ تقديم معلومات أو خدمات تضر المؤمنين؛ المساهمة في كسر جماعتهم؛ إظهار الولاء لكل طرف بما يناقض الولاء للآخر؛ ثم الادعاء بعد النتيجة أنه كان في صف المنتصر منذ البداية.

المؤمن قد يخطئ في تقدير موازين القوة، لكنه يملك جهة أخلاقية ثابتة. أما المنافق فلا يسأل أولًا: أين الحق؟ بل يسأل: من سيغلب؟

ولهذا فإن أخطر ما في التربص ليس تأخر الموقف، بل غياب المبدأ الذي يمكن أن يصنع موقفًا أصلًا.

وسيأتي في المحور التالي وجه آخر من هذه القضية: حين لا يبقى التربص موقفًا نفسيًّا فرديًّا، بل يتحول إلى موالاة وعلاقات ومصالح وأعمال تضر المؤمنين وتطلب العزة عند غيرهم.

سابعًا: بعد انقضاء الاختبار - إعادة كتابة الماضي -

لا تنتهي مواقف الاختبار بانتهاء الخطر، فبعد ظهور النتيجة يظهر اختبار آخر: هل يصدق الإنسان في نسبة موقفه السابق، أم يطلب حصة من ثمرة لم يحمل كلفتها؟

قال تعالى عنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ [النساء: 141].

السؤال: ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ ليس وصفًا دقيقًا للماضي، بل محاولة لاستخراج حصة من النصر بعد تجنب كلفته.

فالمنافق يريد أن يكون شريكًا في الثمرة دون أن يكون شريكًا في المخاطرة.

وقد قال الله عن بعض المتخلفين: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ [الفتح: 15].

تخلفوا حين كان الطريق محفوفًا بالخطر، ثم طلبوا المشاركة حين ظهرت الغنيمة. وهذه صورة تتكرر في الحياة: يتوارى الإنسان أثناء الأزمة، ويشكك في إمكان النجاح ويثبط العاملين، فإذا نجحوا أعاد تقديم نفسه بوصفه داعمًا قديمًا، وإن فشلوا جعل الفشل دليلًا على صحة تحذيره. فهو يريد أن يربح روايته في الحالين.

وهنا تظهر قدرة الخطاب المنافق على إعادة كتابة التاريخ. فلا يكتفي صاحب الموقف بالدفاع عن خطئه، بل يحذف من الذاكرة العامة ما قاله وفَعله، ويعيد ترتيب الأحداث حتى يظهر أنه كان صاحب الرأي الأبصر.

وقد تساعده المؤسسة أو الجماعة على ذلك إذا كانت لا توثق القرارات، ولا تحفظ المواقف، ولا تسائل المتراجعين. وعندئذ يصبح التاريخ ملكًا لمن يملك المنبر بعد الحدث، لا لمن حمل الأمانة أثناءه.

وقد يفشل مشروع بعد أن تعرض للتخذيل وسحب الموارد وتعطيل القرارات، ثم يأتي من ساهم في إضعافه فيقول: لقد حذرتكم منذ البداية من فشله.

لا يذكر أنه صنع بعض أسباب الفشل؛ بل يجعل النتيجة دليلًا على حكمته.

ومن خبث هذا المسلك أنه يحول الجريمة إلى نبوءة صادقة: يضعف العمل، ثم يتنبأ بضعفه، ثم يستدل بضعفه على صحة موقفه.

ولا يعني ذلك أن كل من حذر من مشروع ثم فشل كان متآمرًا عليه؛ فقد يكون التحذير صادقًا، والفشل مؤكدًا لصحة تقديره. وإنما الفرق في الوقائع:

130. هل قدم الناقد النصح مبكرًا؟

131. وهل اقترح حلولًا؟

132. وهل أعان على تقليل الخسارة؟

133. أم عمل على تعطيل المشروع؟

134. وهل فرح بالفشل؟

135. وهل اعترف بدوره فيه؟

136. وهل يستعمل النتيجة بميزان واحد في القضايا المتشابهة؟

الصادق يريد أن ينجح الحق ولو خالف تقديره، ويستطيع بعد الحدث أن يقول: أخطأت. أما صاحب الانتماء النفعي فيريد من النتيجة أن تبرئ غيابه وتمنحه نصيبًا؛ فإن نجح الحق اقترب، وإن فشل احتمى بالفشل.

ثامنًا: ما الذي تكشفه الاختبارات؟

إذا جمعت مواقف العبادة والمال والخوف والتكليف والتحاكم والولاء، ظهر أن النفاق يقوم على علاقة نفعية بالدين.

وقد صاغ القرآن هذه الوظيفة في مشهد أُحد نفسه: ﴿وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: 166-167]، فالواقعة لم تنشئ ما في القلوب، لكنها أخرجت إلى القول والموقف ما كان يختبئ خلف إمكان الادعاء.

137. يعبد حين يرى الناس، وينفق إذا حفظ الإنفاق مكانته، ويثبت ما دام الخطر بعيدًا، ويشارك إذا كانت الغنيمة قريبة، ويقبل الحكم إذا كان له، وينتمي إلى من يتوقع غلبته، ثم يعيد تفسير الماضي بما يحفظ صورته.

وفي هذه الصور لا يظهر رفض الدين في كل قول وفعل، بل قد يُستعمل من خطابه ورموزه ما يحقق المصلحة، ويُعرض عن مقتضاه حين يطالب بالتجرد والتضحية. هذا وصف مستنبط من اجتماع المشاهد، لا دعوى أن كل انتقاء جزئي يثبت النفاق الأكبر.

ولهذا فإن الاختبار الأكبر ليس أن يقول الإنسان: أنا مؤمن، بل أن يظل الإيمان هو المرجع حين يكلفه:

138. **مالًا** يحب أن يحتفظ به، **ومكانة** يخشى فقدها، **واعترافًا** بخطئه، **وخضوعًا** لحكم لا يوافق هواه، **وثباتًا** في وقت لا يظهر فيه النصر، **وولاءً** للحق حين تبدو القوة في جهة أخرى.

النفاق لا يظهر فقط في فعل المحرم، بل في إعادة ترتيب الدين كله حول مصلحة النفس. فما وافق المصلحة سمي طاعةً وحكمة، وما خالفها أُعيد تأويله أو تعطيله أو الهروب منه.

وفي المقابل لا تعني سلامة الإيمان أن الإنسان لا يخاف ولا يضعف ولا يبخل أحيانًا، بل تعني أن يظل لديه ميزان يرجع إليه، وأن يعرف ضعفه باسمه، وألا يحوله إلى شريعة للآخرين.

المؤمن قد يسقط في الاختبار، لكنه لا يغير أسئلة الامتحان حتى يبدو ناجحًا.

تكشف مواقف الاختبار الأعمال والأنماط، لكنها لا تمنح الإنسان علمًا بالقلوب. فقد يضعف المؤمن أو يخاف أو يبخل، وقد تستقر فيه خصلة من خصال النفاق العملي، وقد يتحول التخاذل إلى نمط منظم، ولكل مستوى حكمه.

فنحاسب الفعل الثابت، ونحذر من النمط المتكرر، ونكشف المشروع المفسد، ولا نجزم بالنفاق الأكبر في شخص معين بغير بينة شرعية معتبرة.

تاسعًا: بناء القدرة على الثبات

لا يكون علاج النفاق في مواقف الاختبار بكثرة الشعارات، بل ببناء قلب يستطيع تحمل الكلفة قبل حلولها.

ويبدأ بناء الثبات من إعادة ترتيب الخوف نفسه تحت الولاية والتوكل: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: 51]؛ فالإيمان لا يلغي تقدير الخطر، لكنه يمنع الخطر من أن يستولي على تعريف الحق والواجب، فهو :

عبادة لا تحتاج إلى جمهور – بأن يكون للإنسان نصيب من صلاة وذكر وطاعة لا يطلع عليها الناس، حتى يتعلم قلبه أن يعمل لله لا للصورة.

إنفاق يحرر من سلطان المال – بالتدريب على البذل المنتظم، وأداء الحقوق قبل أن تتحول الثروة إلى حصن نفسي لا يستطيع صاحبه الخروج منه.

تربية على الخوف الصحيح – فالخوف ليس عيبًا، لكن ينبغي ألا يصبح المرجع الأعلى. يُقدَّر الخطر، وتؤخذ الأسباب، ثم لا يسمح له أن يقلب الحق باطلًا أو يفرض الاستسلام.

تحمل الكلفة قبل طلب المكانة – فلا يتصدر الإنسان مشروعًا لا يريد حمل أعبائه، ولا يطلب حق القرار إذا كان يفر من مسؤولية النتائج.

139. قبول الحق حين يكون على النفس

وهو من أصدق دلائل الإيمان؛ أن يفرح الإنسان بظهور الحق ولو خسر به خصومة أو منفعة، وأن يطبق المعيار على نفسه كما يطبقه على مخالفه.

وهنا يأتي ميزان قرآني لا يترك للهوى منفذًا في أصل العدل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]؛ فقبول القسط حين يكون على النفس هو النقيض المباشر للمرجعية التي تتغير بتغير المصلحة.

وضوح الولاء – بأن يعرف الإنسان ما الذي لا يبيعه إذا تغيرت الموازين، وألا يجعل خوفه من المستقبل مبررًا لخدمة الباطل في الحاضر.

توثيق المواقف ومحاسبة النتائج – فالمؤسسات التي لا تحفظ الذاكرة تسمح للمتخلف أن يصبح بطلًا بعد النجاح، وللمثبط أن يصبح حكيمًا بعد الفشل. أما التوثيق والمساءلة فيردان الأقوال إلى أصحابها، ويمنعان إعادة كتابة الماضي.

والغاية ليست بناء إنسان لا يضعف؛ فهذا غير ممكن. وإنما بناء إنسان إذا ضعف اعترف، وإذا أخطأ رجع، وإذا خاف لم يخدع، وإذا عجز لم يثبط، وإذا خالفه الحكم لم يغير الميزان.

خاتمة المحور: ماذا يبقى من الإيمان حين ترتفع الكلفة؟

في الرخاء تختلط الدعاوى، ويستطيع كثير من الناس أن يتشابهوا في اللغة والصورة. أما حين تأتي لحظة الاختيار، فإن الكلفة تفرق بين من كان الدين عنده حقيقة تحكمه، ومن كان صورة ينتفع بها.

في العبادة يظهر: هل المقصود الله أم الجمهور؟

وفي المال يظهر: أين يضع الإنسان أمانه؟

وفي الخوف يظهر: هل يبقى وعد الله داخل تفسيره للواقع؟

وفي التكليف يظهر: هل يريد الانتماء أم ثماره؟

وفي التحاكم يظهر: هل يخضع للحق أم يستعمله؟

وفي الولاء يظهر: هل له مبدأ أم ينتظر الغالب؟

وبعد الأزمة يظهر: هل يعترف بموقفه أم يعيد كتابة الماضي؟

وخبث النفاق لا يقف عند الفرار من الكلفة، بل يتجاوز ذلك إلى تحويل الفرار فضيلة، وإقناع المجتمع بأن المتخلف هو الحكيم، وأن الثابت هو المتهور، وأن البخيل هو الحريص، وأن المنتفع هو الواقعي.

ومن أثر هذا المسلك أنه لا يكتفي بطلب النجاة من الكلفة، بل قد يعاد فيه تعريف النجاح نفسه حتى يصبح الانسحاب حكمة والثبات تهورًا. هذه صياغة تحليلية لما تصنعه إعادة تسمية المواقف بعد الاختبار.

غير أن القرآن حين يكشف هذه المواقف لا يدفع المؤمن إلى مراقبة الناس وحدهم، بل يرده إلى نفسه:

140. ماذا يبقى من عبادتي إذا غاب الناس؟

141. وهل أقبل الحق إذا كان علي؟

142. وهل أثبت على المبدأ إذا ضعفت مكاسبه؟

143. وهل أعتذر عن ضعفي بصدق، أم أعيد تسميته؟

144. وهل أفرح لنجاح الحق ولو لم يكن على يدي؟

145. وهل أحمل من كلفة الانتماء بقدر ما أطلب من مكانته؟

ليست السلامة في ألا يخاف الإنسان أو يضعف، بل في ألا يجعل خوفه وهرَبه وبخله معيارًا يعيد به تشكيل الدين.

فالمؤمن قد يتأخر ثم يلحق، وقد يزل ثم يتوب، وقد يخاف ثم يثبت. أما المنافق فيقيم حول ضعفه خطابًا يحميه، ويعمل حتى يصبح الباطل الذي اختاره هو الحكمة التي يطالب الآخرين باتباعها.

وفي سورة محمد يرتبط نزول التكليف بظهور مرض القلب، ثم يختصر العلاج في الصدق عند عزيمة الأمر: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: 20-21]؛ فالقضية في النهاية ليست أن تزول الكلفة، بل أن يصدق العبد الله حين تصبح الطاعة ذات ثمن.

والصدق في النهاية ليس كلمة تقال، بل قدرة على أن يبقى الظاهر متصلًا بالباطن حين يصبح هذا الاتصال مكلفًا.

المحور السادس: النفاق في المجتمع والواقع

حين يتحول فساد القلب إلى نظام للإفساد

الكلمة لا تبقى دائمًا كلمة. قد تجد من يصدقها، ثم من يكررها، ثم من يحميها، ثم تدخل في علاقة وقرار ومؤسسة حتى يصبح أثرها أكبر من قائلها الأول. والقرآن لم يترك النفاق حبيس الباطن؛ كشف قولًا وتخذيلًا وإرجافًا وتفريقًا وصدًّا عن سبيل الله. من هذه الأعمال المنصوصة يبدأ هذا المحور في تتبع انتقال الأثر إلى المجال العام؛ أما تفاصيل انتقاله من فرد إلى شبكة ومن شبكة إلى قرار فهي تحليل اجتماعي، وليست تعريفًا جديدًا للنفاق.

ولهذا لا نراه في القرآن فردًا معزولًا يحمل تناقضه ثم ينتهي الأمر عنده؛ نراه داخل صف، وفي خبر، وفي تحريض، وفي تثبيط، وفي رابطة تتبادل التأثير.

بل وصف القرآن اجتماع المنافقين في صفة وعمل متبادل: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]؛ فالآية تصرح بأن بعضهم من بعض، ثم تفصّل اتجاههم الأخلاقي: أمرًا بالمنكر، ونهيًا عن المعروف، وقبضًا للأيدي. أما انتقال هذا الاجتماع إلى «شبكة» وآليات حماية متبادلة فيأتي بعد ذلك بوصفه تحليلًا اجتماعيًّا.

ويفصل القرآن صور الأثر العام في مواضع أخرى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ۖ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ﴾ [التوبة: 47]، ويسمي ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [الأحزاب: 60]، ويكشف في مسجد الضرار وظائف اجتماعية صريحة: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [التوبة: 107]. فالتفريق والفتنة والإرجاف والإرصاد ليست مصطلحات اجتماعية مستوردة إلى النص؛ إنها أعمال سماها الوحي، ثم يأتي التحليل ليفهم طرائق تجدد أثرها.

وفي هذا الامتداد يتعاون مع أمثاله، ويرجف في المجتمع، ويثبط عند الأزمات، ويضرب الثقة بين المؤمنين، ويقيم واجهات ظاهرها الخير وباطنها الضرار، ويوالي من يعادي الأمة، ويستعمل المال والمعلومة والمكانة في التأثير، ويعمل من داخل الصف بلغة الصف ورموزه.

فخطر العدو الظاهر معلوم الاتجاه، أما المنافق فيتحرك من داخل المجال الآمن، ويتكلم بلغة الجماعة، ويعرف نقاط ضعفها، ويستفيد من الثقة التي منحتها له هويته المعلنة.

وبعد هذه النصوص يمكن للتحليل الاجتماعي أن يتتبع أثر العمل الظاهر فيما يتجاوز فاعله المباشر: كيف قد تشيع الشكوك، أو يضعف التعاون، أو ترتفع كلفة الصدق، أو تتسع فرص المتلون. وهذه آليات أثر تقاس بوقائعها، ولا نثبت وحدها قصدًا باطنًا بعينه، ولا تنسب إلى القرآن إلا بقدر ما دل عليه من الفتنة والتفريق والإرجاف ونحوها.

وفي هذا تظهر خطورته الاجتماعية:

وقد تتجاوز أعمال المنافقين فساد الفعل المفرد إلى أثر يهيئ بيئة يكثر فيها التفريق والإرجاف والتخذيل وحماية الباطل؛ وهذا المعنى تؤيده صور قرآنية متعددة، أما تفصيل كيفية تشكل «البيئة» وآلياتها فباب تحليل اجتماعي لا ينسب إلى كل منافق ولا يجعل لازمًا لكل واقعة.

ولا يعني هذا أن كل خلل مؤسسي، أو صراع اجتماعي، أو تحالف مصلحي، نفاق أكبر. فقد تفسد المؤسسات بسبب الجهل أو العجز أو الطمع أو ضعف الكفاءة. وإنما المقصود كشف الأعمال والأنماط التي وصفها القرآن، وبيان أثرها في المجتمع، مع التفريق بين وصف العمل والحكم على سريرة صاحبه.

أولًا: لماذا كان خطر المنافق من الداخل؟

وحين يبلغ القرآن موضع التحذير لا يستعمل عبارةً رخوة: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: 4]. هذا وصف صريح لمن كشفهم السياق، وقوة اللفظ جزء من الهداية هنا؛ فلا يهوَّن الخطر باسم العدل، كما لا يُنقل الحكم إلى أعيان لم يثبت فيهم ببيّنة.

جاء التعبير على قصره بالغًا في التحذير: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾. وهذا وصف قرآني صريح للمنافقين الذين تكلم السياق عنهم؛ أما تفصيل وجوه اجتماع الخطر الداخلي والثقة والقدرة على التأثير فهو استنباط من موضعهم داخل الصف ومن مجموع النصوص.

فالعدو الخارجي يقف خارج الصف، أما المنافق فيتحرك من داخله وهو يعرف لغة المجتمع وأسماء رجاله ومواطن خلافه ونقاط ضعفه، ويعرف ما يثير خوفه ويحرك عاطفته وما يمنح الخطاب قبولًا فيه. وهذه المعرفة الداخلية هي التي تجعل أثره أخطر من مجرد خصومة معلنة تأتي من الخارج.

وهو لا يدخل المجتمع بوصفه عدوًا، بل بوصفه واحدًا منه. ومن هنا يحصل على ما يحتاج إليه المفسد عادةً بصعوبة: الثقة الأولية.

فإذا نقل خبرًا صدقه بعض الناس لانتمائه الظاهر.

وإذا طعن في مصلح ظنوا أنه ناصح من الداخل.

وإذا دعا إلى التراجع عُدّ خبيرًا يعرف الواقع.

وإذا أقام واجهة دينية أو أخلاقية استمد مشروعه شرعيته من الرمز الذي رفعه.

إنه يستعمل انتماءه المعلن لا ليحمل واجباته، بل ليحصل على قدرة لا يملكها العدو المكشوف.

ولا يلزم أن ينجح المنافق في إقناع الجميع بروايته؛ قد يكفيه أن يزرع شكًّا يجعل القرار يتأخر، والثقة تضعف، وأهل الحق ينشغلون بالدفاع عن أنفسهم بدل إتمام عملهم.

فالإفساد الداخلي لا يحتاج دائمًا إلى هدم كامل. يكفي أحيانًا أن يرفع تكلفة كل عمل صالح، حتى يتردد الصادقون، ويتعب المصلحون، ويتقدم من يجيد التلون.

وفي واقع المؤسسات قد يقع خطر داخلي على هذه الصورة: تسريب أخبار مجتزأة، وتأليب الأقسام بعضها على بعض، وتحميل كل تعثر لجهة يراد إسقاطها، مع تقديم ذلك في صورة الحرص. تُحاكم هذه الأفعال بدليلها وأثرها، ولا تجعل المؤسسة أو الفاعل «منافقًا» بمجرد مشابهة الوظيفة.

قد تكون بعض ملاحظاته صحيحة؛ لكن عمله لا يتجه إلى إصلاح الخلل، بل إلى استثماره في إضعاف الثقة العامة.

وهنا يظهر الفارق:

146. الناصح يكشف الخلل ليقوى المجتمع.

147. والمنافق يكشف أو يصنع الخلل ليضعف المجتمع ويقوى هو.

فالعبرة ليست بوجود النقد وحده، بل بوظيفته، وطريقته، وميزانه، وأثره المتكرر.

ثانيًا: من الفرد إلى الشبكة

148. ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾

ولا يقف القرآن عند البخل الفردي، بل يضع قبض اليد داخل اتجاه جماعي أوسع: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]. فاليد التي تنكمش عن الخير جزء من صورة يتغير فيها اتجاه الأمر والنهي والعطاء معًا.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾؛ وتدل الآية على أنهم من جنس واحد في الصفة والمسلك الذي فصله السياق: الأمر بالمنكر، والنهي عن المعروف، وقبض الأيدي. أما بناء نظرية تفصيلية في «الشبكات» من هذه الجملة وحدها فزيادة تحليلية لا يحملها اللفظ بنفسه.

ومن هنا - بعد قوله تعالى ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ وما فصله السياق من أعمالهم - يمكن للتحليل الاجتماعي أن يسأل كيف تتشكل روابط الحماية والمصلحة في بعض البيئات: فقد يقرّب تشابه المصالح أصحاب السلوك المتشابه، وقد يدفع الخوف من انكشاف مصلحة مشتركة إلى الحماية المتبادلة. وهذه آليات محتملة، لا تفسيرًا لازمًا للآية ولا دليلًا على باطن جماعة معاصرة.

وفي بعض البيئات قد ينشأ تعاون من غير قيادة واحدة أو خطة مكتوبة؛ لأن المصالح المتشابكة تجعل حماية أحد الأطراف حماية لآخر. وهذا وصف اجتماعي ممكن لآلية التحالف، لا خبرًا عن كل جماعة من المنافقين ولا طريقًا لإثبات النفاق الأكبر.

ومن الصور التي يمكن فحصها في الواقع - من غير نسبتها آليًّا إلى كل جماعة وصفها القرآن - تبادل تبرير الأخطاء، أو حماية صاحب النفوذ لمجرد ولائه، أو حجب المعلومات التي تكشف الخلل، أو ضرب

من يطالب بمعيار ثابت، أو توزيع أدوار الخطاب عند الأزمات. قيمة هذه الأمثلة أنها تكشف وظيفة اجتماعية قابلة للملاحظة؛ أما القصد الباطن والحكم العقدي فباب آخر.

وقد تبدأ شبكة حماية معاصرة - على سبيل المثال - بعلاقة صغيرة: مسؤول يتغاضى عن خطأ تابع له لأن التابع يحفظ له سرًّا أو مصلحة، ثم يصبح كل واحد منهما أقل قدرة على محاسبة الآخر، وقد تدخل أطراف أخرى حتى تتكون مصالح متبادلة. هذا مثال تحليلي لتقريب الآلية، لا صورة قرآنية بعينها ولا معيارًا للحكم على الأعيان.

وهكذا تتحول المخالفات الفردية إلى بنية حماية.

وقد تقوي المصالح أو الأسرار المشتركة شبكة الحماية، مع أن كل فرد فيها قد لا يملك وحده القدرة نفسها.

وقد يختلف أصحاب شبكة المصالح في أمور كثيرة، ثم يجتمعون عند تهديد المصلحة التي تحميهم؛ وقد يصبح المطالب بمعيار ثابت مصدر تهديد لهذه المصلحة لا لشخصه.

ويقابل شبكة الحماية هذه نسيج آخر يحتاجه المجتمع: صحبة تتواصى بالصدق لا بالتغطية، وعلاقات تسمح بالنقد من داخل الولاء، ومسؤولون لا يطلبون من الناس حمايتهم من الحقيقة. فكما تتقوى الأخطاء حين تتناصر، يتقوى الصدق حين يجد من يحمي حق الناصح في الكلام ويُلزم الجميع بالميزان نفسه. وهذا تفسير اجتماعي محتمل، لا وصف لازم لكل تحالف ولا قرينة مستقلة على النفاق.

وفي بعض الوقائع قد يرى المجتمع أفرادًا يتنافسون في الظاهر ثم يتعاونون سريعًا إذا اقتربت المحاسبة من مصلحة مشتركة. العبرة هنا بالفعل المثبت ووظيفته، لا بقراءة النيات من نمط التحالف.

وهذا نفسه يفتح بابًا للبناء: لا يكفي تفكيك شبكة باطلة؛ بل ينبغي أن يوجد في المجال العام ما يجعل الصدق قابلًا للبقاء: توثيق يحمي الحقيقة، وعدل يمنع الانتقام، ومؤسسات لا تحتاج فيها النصيحة إلى ولاء خفي كي تصل.

وقد يختلفون على توزيع النفوذ، بينما تجمعهم مصلحة في إبقاء بعض مناطق النفوذ بعيدة عن المعيار والمساءلة؛ وهذه صورة تحليلية لا يلزم وجودها في كل شبكة.

ولا يعني ذلك أن كل تعاون بين أصحاب المصالح يُعد نفاقًا؛ فالمصالح جزء من الحياة، والتحالف لتحقيق غاية مشروعة جائز. وإنما يظهر العمل المنافق حين تقوم الرابطة على:

149. إخفاء الحقائق، وحماية المخطئ لولائه لا لبراءته، وضرب من يكشف الفساد، وتقديم العلاقة على الحق، واستعمال القيم المعلنة غطاءً لمصالح لا يمكن التصريح بها.

وفي مقابل شبكة الحماية التي تنصر صاحبها ولو ظلم، تعيد السنة تعريف النصرة نفسها؛ قال النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»، فلما سئل عن نصر الظالم قال: «تأخذ فوق يديه». رواه البخاري (2444). فحماية القريب من المحاسبة ليست ولاءً شرعيًا له، النصرة الحقيقية أن يُمنع من الظلم، لا أن يُحمى الظلم باسمه.

فالتحالف الذي يحكمه الخوف من معيار واحد قد يتماسك على الحماية المتبادلة أكثر مما يتماسك على قيمة مشتركة. وهذا وصف تحليلي لبنية محتملة، لا تعريف لجماعة بأنها «منافقة» بمجرد هذا التماسك.

لكن اجتماع المنافقين لا يعني أنهم يملكون وحدة حقيقية.

قال تعالى عن وعودهم لحلفائهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11].

ثم قال: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: 14].

فقد يجمعهم العداء، لكن لا يجمعهم الوفاء.

ويعد بعضهم بعضًا ما دام الوعد قليل الكلفة، فإذا جاءت ساعة التضحية انكشف أن كل طرف يريد الآخر أداةً لمصلحته.

ومن التحليل الاجتماعي أن الشبكات القائمة على المصلحة المجردة قد تبدو قوية في ظاهرها ثم تتصدع عند الخطر؛ فهي تتماسك ما دامت المصالح متوازنة، فإذا ارتفعت الكلفة ظهر التراجع وتبادل اللوم. ويُستأنس لهذا المعنى بمشاهد قرآنية متعددة، ولا يُجعل قاعدةً تفسيريةً لكل جماعة أو تحالف.

ثالثًا: الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

حين يُقلب الاتجاه الأخلاقي للمجتمع

والقرآن لا يكتفي بأن يقول إنهم يجتمعون، يحدد اتجاه الاجتماع: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]. فإذا صار المنكر مدفوعًا إليه، والمعروف مثبَّطًا عنه، لم يعد الفساد شأنًا فرديًّا صامتًا، بدأ يغير اتجاه البيئة نفسها.

لا يكتفي المنافق بأن يفعل المنكر ويترك المعروف، بل يعمل على قلب الوظيفة الأخلاقية للمجتمع.

يدعو إلى ما يفسده.

ويثبط عما يصلحه.

ويكافئ صاحب الباطل.

ويعاقب صاحب الحق.

وهذا هو الفارق بين الذنب الفردي والمشروع الاجتماعي.

قد يعصي المؤمن، لكنه لا يريد بالضرورة أن تصبح معصيته قاعدة عامة. أما نقل المنكر من فعل فردي إلى بيئة تكافئه فمرتبة أخرى في الأثر الاجتماعي، وهي التي ينظر إليها هذا المبحث.

ومن جهة التحليل المؤسسي، يمكن أن تظهر وظيفة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف - في بعض البيئات الحديثة - عبر الحوافز والترقيات والعقوبات وصناعة السمعة: فيكافأ الكذب، ويسمى التلون مرونة، ويعاقب الناصح، ويصبح المعيار الاجتماعي معكوسًا. هذا تنزيل تحليلي على أدوات معاصرة لوظيفة نص عليها القرآن، لا ادعاء أن الآية نصت على هذه الأدوات نفسها.

فالمؤسسة قد تقول في لوائحها إنها تحترم الصدق، لكنها في واقعها تعاقب من يقول الحقيقة، وتقدم من يجيد إرضاء أصحاب القرار.

وحينئذ تؤدي آلياتها - بقدر ما يثبت منها - وظيفة تثبيط المعروف ومكافأة نقيضه، من غير أن نجعل المؤسسة نفسها مكلفًا يوصف بالنفاق العقدي.

ويقابل القرآن بين المنافقين والمؤمنين:

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71].

فالفرق في الاتجاه الأخلاقي ليس أن مجتمعًا يخلو من الذنوب وآخر يقع فيها، بل أن المعروف يبقى معروفًا والمنكر منكرًا، وأن قواعد الإصلاح لا تتحول إلى وسائل لحماية نقيضها. ولا يوصف مجتمع كامل بالنفاق العقدي بهذه المعايير الاجتماعية.

أما المجتمع الذي يصبح فيه المعروف مكلفًا، والمنكر مربحًا، والصدق خطرًا، والتملق طريقًا للترقي، فإنه يصنع بيئة يتكاثر فيها النفاق العملي ولو ظلت شعاراته المعلنة صحيحة؛ لأن الحوافز الفعلية أصبحت تعاقب ما يعلنه اللسان فضيلة وتكافئ نقيضه.

الصد عن سبيل الله: الغاية الأبعد من قلب الميزان

حين لا يكتفي المنافق بأن يضل، بل يمنع غيره من الطريق

ولا يتوقف أثر الجُنّة عند حماية صاحبها، يذكر القرآن الغاية التالية مباشرة: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: 2]. من هنا ينتقل النفاق من ستر صاحبه إلى إعاقة غيره عن الطريق.

إن كثيرًا من أعمال النفاق لا تنتهي عند حماية صاحبها، بل تتجه إلى منع الآخرين من الوصول إلى الحق أو الثبات عليه.

وقد يكون الصد عن سبيل الله بتشويه أهل الدين، وتخذيل الناس عن الطاعة، وتقديم الالتزام بوصفه خطرًا على المستقبل، وتجفيف موارد المشاريع النافعة، وإسقاط الثقة بالعلماء والمصلحين، وجعل الانتماء إلى الحق عالي الكلفة. وهنا يبلغ النفاق مرحلة أخطر؛ إذ لا يكتفي صاحبه بضلال نفسه، بل يعمل على منع غيره من الطريق.

لا يريد فقط أن يعيش بوجهين، بل يريد أن يجعل الصدق نفسه أقل قدرة على البقاء.

رابعًا: تفكيك الصف وضرب الثقة

قد يملك المجتمع موارد وقوةً وعددًا، ثم ينهار لأنه فقد الثقة التي تجمع أفراده. ولذلك كان من أخطر أعمال النفاق إفساد العلاقة بين المؤمنين، وتحويل الاختلاف الطبيعي إلى شك شامل، والنقد إلى خصومة، والخطأ إلى دليل على فساد الجميع.

قال الله تعالى في المنافقين:

﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: 47].

نصت الآية على زيادة الخبال، وابتغاء الفتنة، وتقليب الأمور، ووجود سماعين لهم. ومن هذا يمكن تحليل حركة الإفساد داخل الصف: البحث عن قنوات تنقل القول وتوسّع أثره. أما وصف كل قناة أو ناقل بأنه جزء واعٍ من مشروع نفاق فدعوى تحتاج إلى بينة مستقلة.

فهو لا يحتاج إلى أن يصنع كل الخلافات؛ يكفيه أن يجد خلافًا قائمًا، ثم يوسعه، ويمنحه تفسيرًا سيئًا، وينقل كلام كل طرف إلى الآخر بعد أن يزيد فيه أو ينتقي منه.

وقد يبدأ النزاع داخل مؤسسة بمسألة إدارية محدودة، فيدخل الخطاب المنافق فيحولها إلى صراع هويات:

150. هذا الفريق لا يحترمكم؛ وتلك الإدارة تريد إقصاءكم؛ وهذا القرار ليس خطأً، بل مؤامرة؛ وصمت فلان دليل على موافقته؛ ومحاولة التهدئة خيانة لحقوقكم.

ثم لا يعود النزاع متعلقًا بالقرار، بل يصبح كل طرف عاجزًا عن تفسير فعل الآخر إلا بأسوأ الاحتمالات.

وقد يقدم خطاب الفتنة نفسه في صورة الدفاع عن مظلوم حقيقي. والميزان هنا في العمل: هل يسعى إلى رفع الظلم وإغلاق سببه، أم يبقي الجرح مفتوحًا ويستثمر الغضب؟ أما نسبة إرادة إبقاء الجرح إلى قلب شخص بعينه فلا تثبت بمجرد استمرار النزاع.

الناصح يساعد المظلوم على استعادة حقه، أما الخطاب الذي يتغذى من الفتنة فقد يؤدي عمليًّا إلى إبقاء المظلوم غاضبًا، والظالم خائفًا، وكل طرف محتاجًا إلى وسيط. نحكم على الأثر المثبت، ولا نجزم بمصلحة باطنة لمجرد وقوعه.

ومن وسائل ضرب الثقة:

151. تحويل الخطأ الجزئي إلى حكم شامل

يخطئ مسؤول، فيقال: كل القيادات فاسدة.

ويفشل مشروع، فيقال: لا فائدة من أي إصلاح.

ويظلم شخص، فيقال: النظام كله قائم على الظلم.

قد يكون النقد الشامل صحيحًا إذا دل عليه الاستقراء، لكن التعميم المتعجل قد يقتل الأمل ويجعل كل محاولة إصلاح جزءًا من المشكلة. وهذه آلية خطابية مضرة قد يستعملها المنافق أو غيره؛ فلا تُجعل بذاتها علامة على النفاق الأكبر.

152. تفسير الصمت والكلام بما يدين صاحبهما

إذا تكلم المصلح قيل: يبحث عن الشهرة.

وإذا سكت قيل: متواطئ.

وإذا توسط قيل: متلون.

وإذا حسم قيل: مستبد.

وهكذا لا يبقى له موقف يمكن أن يسلم به؛ لأن الغرض ليس تقويم الموقف، بل إسقاط الشخص.

نقل الكلام بلا سياقه — تؤخذ عبارة قيلت في مقام خاص، وتعرض في مقام آخر، أو يحذف ما قبلها وما بعدها، ثم يبنى عليها موقف كامل. وقد تكون الكلمات صحيحة من حيث النقل الحرفي، لكنها كاذبة من حيث الصورة التي صنعتها.

153. استعمال الثقة القديمة لهدم الثقة الجديدة

وقد يستعمل قريب من شخص معرفة قديمة به ليقدم انطباعًا شخصيًّا في صورة حقيقة قاطعة: «أنا أعرفه منذ سنوات». المشكلة هنا في تحويل القرب إلى بينة على ما لا يثبت به، لا في الحكم على قلب المتكلم.

وخطر هذا المسلك أنه لا يهدم الثقة في شخص واحد فحسب، بل يعلم المجتمع أن كل علاقة قابلة للاستعمال عند الخصومة، وأن الأسرار المؤتمنة يمكن أن تتحول إلى أدوات ضغط.

وحين تنتشر هذه الثقافة، يصمت الناس لا لأنهم مقتنعون، بل لأنهم يخشون أن يستعمل كلامهم ضدهم. ثم تفقد المؤسسة المعلومات الصادقة، وتعيش على التقارير التي ترضي أصحاب النفوذ.

النفاق لا يحتاج إلى أن يجعل الناس يحبونه؛ يكفيه أن يجعلهم لا يثقون بعضهم ببعض.

خامسًا: مسجد الضرار - حين يُستعمل المقدس ضد مقصده -

ولا يبلغ التناقض مداه مثلما يبلغه في مسجد الضرار: الاسم مسجد، والواجهة دينية، والقسم أن المقصود الحسنى؛ ثم يشق القرآن الواجهة كلها ويذكر الوظائف واحدةً واحدة: ﴿ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾، ويختم الدعوى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 107]. هنا تتعلم العين ألا تجعل قداسة الاسم بديلًا عن حقيقة الوظيفة التي ثبتت.

يمثل مسجد الضرار نموذجًا قرآنيًّا بالغ العمق؛ لأن الفساد لم يظهر في صورة معصية مكشوفة، بل في صورة مسجد، وهو من أشرف الرموز الدينية.

لكن القرآن لم يحكم على المشروع باسمه ولا بشكله، بل كشف وظائفه الحقيقية:

154. ضرارًا.

155. وكفرًا.

156. وتفريقًا بين المؤمنين.

157. وإرصادًا لمن يحارب الله ورسوله.

ثم حلفًا بأن المقصود هو الخير.

في مسجد الضرار اجتمع الاسم المقدس مع وظائف كشفها الوحي نفسه: الضرار والكفر والتفريق والإرصاد. ومنه يؤخذ أن الاسم الديني وحده لا يكفي للحكم على صلاح المشروع. أما المؤسسات المعاصرة فليس لنا وحي يكشف نياتها الخفية؛ فنفحص ما يثبت من وظائف وأعمال وآثار، ولا ندعي تطابقها مع الواقعة القرآنية. والرصد هنا لا يبدأ بالسؤال: ماذا تسمّي الجهة نفسها؟ بل: ماذا تفعل على امتداد الزمن؟ من تحمي قراراتها؟ من تدفع عنه المساءلة؟ إلى أين تذهب مواردها ومعلوماتها وصلاتها؟ ماذا يحدث لو عارضها صادق من داخلها؟ وهل تزيد المؤمنين اجتماعًا على الحق أم تجعل التفريق ثمرة متكررة لوجودها؟ هذه وقائع يمكن توثيقها، بخلاف الباطن الذي لا يملكه الرصد.

فالمعيار ليس الشعار وحده، بل:

158. ما الغاية الحقيقية؟

159. وما الأثر المتكرر؟

160. ومن يستفيد؟

161. ومن تضعف المؤسسة؟

162. وهل تجمع المؤمنين أم تنافسهم لتفريقهم؟

163. وهل تخدم الحق أم تجعل رمز الحق غطاءً لمشروع آخر؟

ومن أخبث أعمال النفاق أن يتخذ الإنسان ما يحترمه الناس ستارًا لما لو عُرض باسمه الحقيقي لرفضوه.

فقد تنشأ مؤسسة باسم العلم، لكن غايتها حماية رأي شخص معين من النقد.

وتنشأ مبادرة باسم الوحدة، لكنها لا تقبل الوحدة إلا تحت قيادة أصحابها.

ويرفع مشروع شعار نصرة المظلوم، ثم يستعمل المظلومين لبناء النفوذ، ويتركهم إذا انتهت فائدتهم.

وتتخذ جهة العمل الخيري مدخلًا لجمع المعلومات والولاءات، لا لخدمة المحتاجين.

ليس كل مشروع أخطأ في غايته أو تنافس مع غيره مسجد ضرار؛ فهذا وصف قرآني شديد، ولا يجوز توسيعه بغير ضابط. فقد تتشابه المؤسسات وتتكرر جهودها، ويقع بينها تنافس غير محمود دون أن تكون قائمة على الكفر أو الإرصاد لأعداء الدين.

لكن نموذج مسجد الضرار يقدم موازين لكشف العمل الضراري:

وقد يقع أن يشتد الاعتماد على الرمز المقدس كلما ضعفت قابلية العمل للمساءلة؛ لكن هذه علاقة تحليلية محتملة، وليست قاعدة قرآنية مطردة تجعل شدة الرمز دليلًا على فساد المقصد.

الخير المعلن لا يفسر النتائج — يكرر أصحابه أنهم يريدون الحسنى، لكن عملهم ينتهي باستمرار إلى التفريق والإضعاف وخدمة الخصم.

المساءلة تصوَّر عدوانًا على المقدس — إذا نوقش المشروع قيل: أتهاجمون المسجد أو العلم أو الدعوة أو العمل الخيري؟ فيُدمج نقد الوسيلة في محاربة الغاية.

164. الوظيفة الخفية أهم من الوظيفة المعلنة

قد يقدم المشروع خدمة حقيقية، لكنها ليست سبب وجوده الأعمق؛ بل وسيلة لكسب القبول وبناء النفوذ.

ومن هنا لا يكفي في تقويم المؤسسة أن نسأل: ماذا تقدم؟ بل ينبغي أن نسأل أيضًا:

ماذا تصنع بما تقدمه؟ وما العلاقات والولاءات والآثار التي تبنيها خلف الخدمة المعلنة؟

فالصدقة قد تكون صدقة، وقد تتحول إلى شراء للسكوت.

والتعليم قد يكون تعليمًا، وقد يتحول إلى صناعة أتباع.

والوحدة قد تكون مقصدًا شرعيًّا، وقد تتحول إلى احتكار للقرار.

والدين قد يكون هداية، وقد يستعمل علامة تجارية تحمي مشروعًا يناقضه.

وهذا لا يدعو إلى الشك في كل عمل ديني، بل إلى تعظيم الدين عن أن يكون حصانة لأعمال البشر.

سادسًا: الازدواج المؤسسي - حين تعلن المؤسسة القيم وتكافئ نقيضها -

يستعمل الكتاب هنا عبارة «الازدواج المؤسسي»؛ والمقصود أن تنشأ داخل المؤسسة فجوة منظمة بين القيم التي تعلنها والقواعد التي تحكم سلوكها فعلًا، وأن تصبح خصال مثل التلون، وإخفاء المعلومات، وحماية الأشخاص، والمعايير المزدوجة وسائل متكررة للبقاء والترقي واتخاذ القرار. أما النفاق بالمعنى العقدي فصفة للإنسان المكلّف، لا للمؤسسة في ذاتها.

يبدأ الازدواج المؤسسي حين تفترق القيم المعلنة عن القواعد الفعلية التي تحكم العمل، لا بمجرد وقوع تقصير عارض في التطبيق. ولذلك يُرصد في أماكن القرار لا في الشعارات وحدها: من يرقّى؟ من يُعاقب؟ أي خبر يصل إلى القيادة وأي خبر يُدفن؟ هل الاعتراف بالخطأ يفتح باب الإصلاح أم يغلق مستقبل صاحبه؟ هل تُطبق اللائحة على الضعيف كما تطبق على القوي؟ فإذا تكررت الإجابات في اتجاه واحد، ظهرت القاعدة الفعلية التي تحكم المؤسسة ولو خالفت كل ما كتبته عن نفسها.

وهنا يصلح الوعيد العام في انفصال القول عن الفعل ميزانًا يحاكم به هذا الازدواج من غير أن ننقل حكم النفاق الأكبر إلى المؤسسة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: 2-3]؛ فالمشكلة ليست وجود فجوة بشرية عارضة، بل أن يصبح القول المعلن ستارًا مستقرًا لنقيضه العملي.

وتزيد السنة الميزان وضوحًا في السلوك الفردي الذي قد تكافئه بعض البيئات؛ قال النبي ﷺ: «إن شر الناس ذو الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه». رواه البخاري (7179)، ومسلم (2526). والحديث حكم على خصلة بشرية، لا على «مؤسسة» بوصفها شخصًا؛ لكنه يمنعنا من تسمية تبدل الحقيقة بحسب الجمهور «مرونة» إذا ثبت أنه ذو وجهين، ثم يترك للتحليل المؤسسي سؤالًا آخر: هل تكافئ القواعد هذا السلوك أم تقاومه؟

تكتب المؤسسة أن الكفاءة أساس الترقية، لكن العاملين يعلمون أن الولاء الشخصي هو الأساس.

وتعلن أن النقد مرحب به، لكن أول ناقد جاد يعزل.

وتتحدث عن العدالة، لكن العقوبة تختلف باختلاف قرب الشخص من أصحاب القرار.

وتطالب الموظفين بالشفافية، بينما تبقى القرارات الكبرى بلا تفسير.

وتحرم تضارب المصالح في اللوائح، ثم تتجاهله عند أصحاب النفوذ.

هنا لا تكون المشكلة أن المؤسسة قصرت في تطبيق قيمة؛ فالقصور البشري واقع. وإنما يشتد الازدواج المؤسسي عندما تستعمل القيمة المعلنة لتجميل نقيضها، ويعاقب من يطالب بتطبيقها.

فالقيمة في المؤسسة الصادقة معيار تحاكم إليه نفسها.

أما في المؤسسة التي يحكمها الازدواج فتتحول القيمة إلى مادة لإدارة الصورة الخارجية بدل أن تكون قاعدة حاكمة للعمل.

ومن آثار هذا الانقسام:

صعود المتلونين — الموظف الصادق يقول رأيًا واحدًا في المجلس وخارجه، فيخسر بعض الفرص. أما المتلون فيعرف ماذا يريد كل مسؤول أن يسمع، فيقدم لكل واحد رواية مناسبة.

ومع الوقت تعتقد المؤسسة أن هذا الشخص «مرن» و«يحسن التعامل»، بينما هو يبني تقدمه على إخفاء الحقيقة عمن يحتاج إليها.

اختفاء المعلومات السيئة — حين يعاقب حامل الخبر السيئ، يتعلم الناس تزيين التقارير. فتصعد إلى القيادة أرقام جميلة، بينما يتفاقم الخلل في الأسفل.

ثم تفاجأ المؤسسة بالأزمة، مع أن دلائلها كانت موجودة، لكن النظام لم يكن يكافئ من يقول الحقيقة.

تحول الاجتماعات إلى طقوس — يعرف الحاضرون أن القرار اتخذ خارج الاجتماع، لكنهم يناقشون طويلًا ليمنحوه صورة المشاركة. وتكتب المحاضر بما يحفظ المظهر، لا بما وقع فعلًا.

وهنا لا يستعمل الحوار للوصول إلى القرار، بل لإضفاء الشرعية على قرار لا يريد أصحابه تحمل مسؤوليته منفردين.

165. المسؤولية إلى الأسفل والفضل إلى الأعلى

عند النجاح يُنسب الإنجاز إلى القيادة، وعند الفشل يُبحث عن موظف صغير يحمل التبعة. وبذلك يتعلم أصحاب القرار أن بإمكانهم المخاطرة دون محاسبة، ويتعلم العاملون أن السلامة في إخفاء المشكلات. ويمكن رصد هذا من الذاكرة المؤسسية نفسها: من وقّع القرار قبل نجاحه أو فشله؟ من كان يملك سلطة المنع أو الإجازة؟ ومن ظهر في الصورة بعد النجاح، ومن ظهر في التحقيق بعد الفشل؟ مقارنة الأدوار قبل النتيجة وبعدها تكشف أحيانًا كيف يُعاد توزيع الفضل واللوم لخدمة النفوذ.

الولاء بديلًا عن الأمانة — لا يعود السؤال: هل الشخص صالح للعمل؟ بل: هل هو معنا؟ ومعنى «معنا» ليس موافقته على القيم، بل استعداده لحماية الأشخاص.

وحينئذ يمكن أن يقدم الضعيف الأمين على أنه خطر، ويقدم القوي المتلون على أنه موثوق.

المؤسسة التي تكافئ التملق وتؤذي الناصح قد تدفع بعض الصادقين إلى الصمت أو الخروج، وقد تزيد فرص المتلونين؛ فالحوافز لا تخلق حقيقة القلب، لكنها تؤثر في السلوك الذي يظهر ويستمر.

ولذلك فبناء الصدق مؤسسيًّا لا يكتفي بالحث عليه؛ بل يجعل وصول الحقيقة ممكنًا، ويحمي الناصح من أن يصبح ثمن نصحه عبرة لغيره، ويفصل بين مكانة الشخص وصحة خبره، ويجعل الاعتراف بالخطأ بابًا للإصلاح لا حكمًا بالإعدام المهني. حينئذ تقل الحاجة إلى الوجوه المزدوجة لأن البيئة نفسها لا تجعل الصدق انتحارًا.

ولا يكفي لعلاج هذا الخلل الإكثار من الدورات الأخلاقية مع بقاء الحوافز العملية على مكافأة نقيض ما يقال فيها. فالوعظ يبني الضمير، والقواعد تؤثر في كلفة السلوك وربحه؛ ولا يغني أحدهما عن الآخر، ولا يصح أن نجعل الحوافز تفسيرًا كاملًا لأخلاق الأفراد.

ولا يكشف حقيقة المؤسسة ما تكتبه على جدرانها بقدر ما يكشفها ما تكافئه كل يوم: ما السلوك الذي ينجح أصحابه داخلها، وما السلوك الذي يدفع أصحابه ثمنه؟ ثم يأتي السؤال الذي يمس الصادق مباشرة: هل يستطيع أن يبقى صادقًا من غير أن يدفع دائمًا الثمن وحده؟ فالعدل في الأنظمة، ووحدة المعيار، وفتح قنوات المراجعة ليست تحسينات إدارية فحسب؛ إنها من البنية التي تمنع الكذب والتلون من أن يصبحا طريقًا طبيعيًّا للنجاة.

سابعًا: النفاق في المجال العام

المصلحة حين ترتدي ثوب المبدأ – في المجال العام تزداد قوة الخطاب؛ لأن الإنسان لا يدير صورته أمام أفراد فقط، بل أمام جماهير متعددة. وهنا يستطيع المنافق أن يقدم لكل جمهور وجهًا، وأن يستعمل القضايا العامة لبناء مكانته الخاصة.

ويصف القرآن قوة الصورة والقول في الانطباع: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: 4]؛ فإعجاب الأجسام وسماع القول منصوصان في الآية. أما وصف ذلك بأنه «سلطة في المجال العام» فهو استنباط اجتماعي من أثر الصورة والقول، لا لفظًا قرآنيًّا مباشرًا.

في المجال العام لا يبقى المعيار المزدوج انحيازًا شخصيًّا محدودًا، بل يتحول إلى خطاب يوزع الشرعية والاتهام بين الجماعات: يرفع القيمة حين تخدم موقعه، ويعطلها حين تحمي خصمه، ويجعل كل قضية امتحان ولاء.

وقد يستعمل قضية عادلة لبناء مكانته، ثم يصمت عن الظلم نفسه إذا صدر من حلفائه. فالمشكلة ليست في مراجعة الاجتهاد، بل في أن يتغير الميزان بتغير موضع صاحبه من القوة والمصلحة.

وهذا من الفروق العميقة بين المصلح والمنافس:

166. المصلح يريد إزالة الفساد ولو أزال معه فرصته الخاصة.

167. أما المنافس فقد يريد فقط أن ينتقل الفساد من يد غيره إلى يده.

وقد تختطف جماعة قضية الأمة، فتجعل نفسها الممثل الوحيد لها. فإذا نُقدت أعمالها قالت: إنكم تضعفون القضية. وبذلك تنتقل القضية من كونها أمانة عامة إلى درع يحمي جماعة بشرية من المحاسبة.

ومن خبث هذا العمل أنه يمزج حقًّا بباطل: القضية حق، لكن احتكار تمثيلها باطل. والظلم واقع، لكن اتخاذ المظلومين سلّمًا للنفوذ ظلم آخر.

ولذلك لا ينبغي أن يغتر المجتمع بمن يتحدث أكثر عن القيم، بل ينظر:

168. هل يطبقها على نفسه؟

169. وهل يقبل أن يستفيد خصمه منها؟

170. وهل يظل موقفه ثابتًا إذا فقد مكسبه؟

171. وهل يعترف بالحق إذا جاء من غير جماعته؟

172. وهل يفرح بحل المشكلة إذا لم يكن هو بطل الحل؟

فمن كان يريد الحق يفرح بظهوره، أما من يريد موقعه فقد يحزن إذا حُلت المشكلة على يد غيره.

ثامنًا: أنماط الخطاب المنافق في المجال الإعلامي والرقمي

سبق بيان الخطاب المزدوج في المحور الرابع. وتظهر خصوصيته الرقمية في أن المنصات تسمح بإدارة صور متناقضة في الوقت نفسه، وتقليل احتمال أن يرى كل جمهور ما يقال للآخر.

فالخطر ليس في تنويع الأسلوب واللغة، بل في تقديم حقائق والتزامات متعارضة بحسب الجمهور.

وعند تنزيل قواعد التثبت على البيئة الرقمية يحضر ميزانان قرآنيان عامان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]، ويقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: 36]؛ فالآيتان تؤسسان للتبين وعدم اتباع ما لا علم به، وتطبيقهما على سرعة المنصات تنزيل معاصر لهذه القواعد، لا تفسيرًا خاصًّا بالوسائط الرقمية.

والمنصة الرقمية تمنح النفاق أدوات إضافية:

الانتقاء — لا يحتاج صاحب الخطاب إلى اختلاق واقعة؛ يكفيه أن يعرض جزءًا يخدم روايته، ويحذف ما يغير معناها.

الاجتزاء — تؤخذ عبارة من سياقها، فتحمل معنى لم يرده صاحبها، ثم تنتشر الصورة المختصرة أسرع من النص الكامل.

التكرار المصنوع — قد تعيد شبكة حسابات نشر الفكرة نفسها، فيظن الناس أنها رأي عام مستقل، مع أنها صادرة من مصدر واحد أو مجموعة منسقة.

الغضب الانتقائي – تضخم أخطاء الخصوم حتى تصبح قضايا أخلاقية كبرى، بينما تتجاهل أخطاء الحلفاء أو تقدم لها الأعذار.

التوبة المؤقتة – إذا انكشف خطأ كبير، يقدم صاحبه اعتذارًا لغويًّا محسوبًا يخفف الغضب، دون اعتراف واضح أو إصلاح للضرر. ثم يعود إلى المسلك نفسه بعد هدوء الأزمة.

الإنسانية الاستعراضية – تستعمل معاناة الناس مادة لبناء الصورة: تصور المساعدة، وتعرض الألم، ويغيب المحتاج بعد انتهاء فائدته الإعلامية.

ومن أخطر خصائص البيئة الرقمية أن النجاح يقاس غالبًا بالانتشار، لا بالصدق. والخطاب المثير ينتشر أسرع من الخطاب المنضبط، والاتهام أسرع من التحقق، والصورة المختصرة أقوى من السياق. ولهذا يصبح الرصد أدق إذا تجاوز عدد المنشورات إلى مسار المعلومة نفسها: ما مصدرها الأول؟ ماذا حُذف منها؟ هل الحسابات التي تكررها مستقلة فعلًا؟ هل صحح الناشر الخطأ بالوضوح والانتشار نفسيهما؟ وهل يطبق المعيار على حليفه كما يطبقه على خصمه؟ بهذه الأسئلة يرى القارئ الوظيفة وهي تتشكل أمامه، بدل أن يكتفي بوصف عام عن «الإعلام».

وهكذا قد تكافئ المنصة بعض خصال النفاق من غير أن تسميها: فالمبالغة تجلب الانتباه، والتلون يوسع الجمهور، وإدارة الانطباع تحمي الصورة، واستعمال القضايا يرفع الحضور، حتى تتحول المواقف الأخلاقية نفسها إلى مادة لجمع الجمهور بدل أن تكون التزامًا يحكم صاحبه.

ولا يعني ذلك أن كل صناعة للصورة الرقمية رياء أو نفاق؛ فالخطاب العام يحتاج إلى إعداد وحسن عرض، وقد يظهر الإنسان عمله لمصلحة مشروعة. وإنما الخطر أن تتحول الحقيقة إلى تابع للصورة، وأن يختار المرء الموقف الذي يزيد انتشاره لا الذي يرضي الله.

ومن الأسئلة الكاشفة:

173. هل يتغير المبدأ بتغير الجمهور؟

174. هل يصحح صاحب الحساب الخطأ بالوضوح نفسه الذي نشره به؟

175. هل يذكر ما يضر روايته؟

176. هل يطبق معيار النقد على من يحب؟

177. هل يهتم بحل القضية أم باستمرار حضورها؟

178. هل يبقى موقفه إذا خسر الجمهور؟

المنصة لا تخلق النفاق من عدم، لكنها تمنحه مسرحًا واسعًا، وسرعة في الانتشار، وقدرة على اختبار أكثر الوجوه ربحًا.

تاسعًا: موالاة الكافرين على المؤمنين — حين تُطلب العزة عند غير الله -

وحين يتغير ميزان القوة تكشف جهة طلب العزة كثيرًا من حقيقة الولاء؛ يصف القرآن المنافقين بأنهم ﴿يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم يسأل: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: 138-139]. السؤال يذهب وراء الفعل إلى مركز الاتكال نفسه: أين يظن القلب أن العزة توجد؟

تكشف الآية الدافع قبل أن تكشف الفعل: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾.

فالمنافق يرى القوة في جهة، فيتعلق بها، ويطلب عندها الحماية والمكانة، ولو كان ثمن ذلك إضعاف المؤمنين.

ويكشف القرآن دافعًا آخر: ﴿فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ﴾ [المائدة: 52].

الخوف من تغير موازين القوة يدفعهم إلى بناء طريق نجاة خارج جماعة المؤمنين.

فهم لا يريدون أن يرتبط مصيرهم بالحق، بل بالقوة التي يتوقعون غلبتها.

وقد تظهر في هذا الباب صور متفاوتة: من محبة أو إعانة محرمة، إلى اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وابتغاء العزة عندهم، إلى نصرتهم على المسلمين وإعانتهم عليهم؛ وهذه من أشد صور التولي. وقد يقترن ذلك بعلاقة سرية تضمن النجاة الشخصية أو بطاعة لهم في بعض ما يخالف الوحي مع بقاء الصورة الإسلامية في الداخل. ولا يجوز جمع هذه الصور كلها في حكم واحد قبل معرفة حقيقتها.

وقد يتجاوز الانتقاء تبرير النفس إلى طاعة تُمنح في الخفاء لمن يكره ما أنزل الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: 26]. هنا لا يعلن الرفض كله؛ تكفي مساحة «بعض الأمر» لتكشف أن للوحي شريكًا في الطاعة عند موضع المصلحة.

فالخطر ليس في العلاقة الخارجية وحدها، بل في أن تتحول إلى طاعة خفية في بعض الأمر لمن يكره ما أنزل الله، مع بقاء الانتماء الظاهر للمؤمنين.

يكشف سياق سورة محمد صورة أدق: ارتداد بعد ما تبين الهدى، ثم قول أولئك للذين كرهوا ما نزل الله: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾، والله يعلم إسرارهم. فالنص يجمع بين التراجع عن الهدى وطاعة سرية في بعض الأمر لجهة كارهة للوحي؛ ولا يصح دمج الطرفين جميعًا في وصف واحد لم ينص عليه السياق.

ثم تأتي صورة لا تمنح صاحبها انتماءً كاملًا إلى أي جهة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: 14]. الولاء الذي بُني على النجاة والمصلحة لا يصنع بالضرورة وفاءً للطرف الآخر؛ قد يترك صاحبه بلا حقيقة مع هذا ولا ذاك.

فالمنافق لا ينتمي بصدق إلى المؤمنين، ولا إلى من والاهم؛ لأنه يريد من كل طرف ما ينفعه.

وهذا مهم: الموالاة المنافقة لا تنتج بالضرورة ولاءً حقيقيًّا للطرف الآخر، بل قد تكون امتدادًا للمنفعة.

فهو يستعمل المؤمنين حين تكون القوة لهم، ويستعمل خصومهم حين يتوقع تغير الحال.

لكن لا يجوز توسيع هذا الباب حتى يشمل كل تعامل مع غير المسلمين.

فالقرآن لا يمنع البر والقسط والمعاملة المشروعة مع غير المحاربين، ولا التعاقد والتعاون في المصالح المباحة. إنما المذموم هو الولاء الذي يقدّم نصرة غير المؤمنين على المؤمنين، أو يطلب العزة بهم، أو يعينهم على ما يضر المسلمين. ومن صور التولي التي تناقض أصل الإيمان نصرة الكافرين على المسلمين وإعانتهم عليهم، كما أن محبة دينهم والرضا به كفر؛ أما ما دون ذلك من صور محرمة أو علاقات دنيوية فلكل صورة حكمها.

ولهذا يجب أن يبقى الفرق واضحًا بين التعامل والبر والتعاقد والتواصل المشروع، وبين الموالاة المحرمة، وبين التولي الذي يناقض أصل الإيمان. فمجرد العلاقة لا يحمل حكم الموالاة المذمومة، وإنما العبرة بحقيقتها: المحبة الدينية، واتجاه النصرة، والإعانة على المسلمين، وما يترتب عليها.

ولا يحكم على علاقة أو معاهدة أو استعانة أو تعاون سياسي بمجرد وجودها بأنها من موالاة المنافقين؛ فهذه الوقائع تختلف أحكامها باختلاف صورتها ومقصدها وآثارها وضوابطها الشرعية.

والمقصود هنا صور قرآنية وردت في سياقات متعددة: اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين وابتغاء العزة عندهم، والمسارعة فيهم خوف الدائرة، وطاعة من كره ما أنزل الله في بعض الأمر. وجمعها في هذا المبحث استنباط لمَعْلم الولاء المنحرف، لا دعوى أنها واقعة واحدة أو حكم واحد في جميع الصور.

فالعبرة ليست باسم العلاقة وحده، بل بحقيقتها واتجاه نصرتها وأثرها.

وفي الواقع المعاصر قد يقدم انحياز يضر بالمؤمنين في لغة «الواقعية» أو «حماية المصالح». وليس الرصد هنا أن نعدّ الاتصالات أو الاتفاقات مع غير المسلمين؛ فذلك قد يكون مشروعًا ومصلحة معتبرة. إنما ينظر إلى اتجاه النصرة عند التعارض: من يُقدَّم إذا اصطدمت المصالح؟ هل تُسلَّم معلومات أو إمكانات تضر المسلمين؟ هل يُبرَّر ظلمهم إرضاءً لجهة أقوى؟ هل تصبح العزة في الوعي والقرار معلقة برضاها ولو على حساب الحق؟ هذه أسئلة عن الفعل الثابت وآثاره، ثم يبقى الحكم الشرعي لكل صورة بحسب حقيقتها وضوابطها، ولا يتحول مجرد التعاون أو المعاهدة إلى تهمة بالموالاة المذمومة.

وقد يكون تقدير القوة مشروعًا، وبناء العلاقات ضرورة، لكن المشكلة تبدأ حين يصبح ثمن النجاة الشخصية إضعاف جماعة المؤمنين.

وهنا تتكرر قاعدة النفاق: يقدم المصلحة بوصفها ضرورة، ثم يقدم الضرر الواقع على المؤمنين بوصفه ثمنًا لا بد منه.

ولا تقاوم هذه الموالاة بالتخوين العام، وإنما بالبينات، وحماية المعلومات، ووضوح المصالح، ومحاسبة من يثبت تعاونه على الإضرار، مع بناء قوة داخلية تقلل حاجة المجتمع إلى طلب العزة عند الخارج. فوضوح الحكم لا يبرر الظلم، كما أن العدل لا يعني ترك الخطر بلا حماية.

عاشرًا: المجتمع الذي يصنع بيئة للنفاق

قد تكثر بعض خصال النفاق العملي والتلون في بيئة تزيد ربح الكذب والتملق وتخفض كلفتهما، لكن البيئة لا تنشئ النفاق الأكبر بمجرد حوافزها، ولا ترفع المسؤولية عن الفرد. فالقرآن والسنة يخاطبان المكلف ويحاسبانه، والتحليل الاجتماعي يضيف سؤالًا عن الظروف التي تسهّل السلوك أو تصعّبه.

ومن أبرز البيئات التي تكثر فيها هذه الخصال:

بيئة الخوف — حين يخاف الناس من قول الحقيقة، يتعلمون الكلام بوجهين: وجه أمام صاحب السلطة، ووجه في المجالس الخاصة. وقد يبدأ ذلك مداراةً لضرر، ثم يتحول إلى طبع وثقافة.

غياب المعايير — إذا لم يعرف الناس لماذا رُقّي فلان وعوقب آخر، بحثوا عن العلاقات الخفية، وصار التقرب الشخصي أهم من العمل.

الشخصنة — حين تختلط المؤسسة بشخص قائدها، يصبح نقد القرار عداءً للقائد، ثم يصبح عداء القائد خيانةً للمؤسسة أو الفكرة.

المساءلة الانتقائية — إذا عوقب الضعيف وتُرك القوي، لم تعد القواعد موضع احترام، بل موضع مساومة. ويتعلم الناس أن الحماية أهم من البراءة.

السرية المفرطة — بعض الأعمال تحتاج إلى سرية مشروعة، لكن إذا صارت السرية أصلًا في كل قرار، تحولت إلى غطاء لاختفاء المسؤولية وتنازع الروايات.

مكافأة المديح — عندما يكتشف الناس أن الطريق إلى النفوذ يمر عبر إرضاء أصحاب القرار، يقل وصول الأخبار الصادقة، ويكثر من يقول ما يراد سماعه.

إهمال الذاكرة — المجتمع الذي لا يوثق المواقف يسمح للمتخلف أن يصبح بطلًا، وللمثبط أن يدعي أنه كان مؤيدًا، وللمخطئ أن يعيد كتابة الماضي.

إن بناء بيئة الصدق لا يكون بمجرد مطالبة الأفراد بالإخلاص ثم ترك النظام يكافئ التلون والكذب وحماية الأشخاص. فلا بد أن تكون للمؤسسة والمجتمع قواعد تقلل الربح الناتج عن هذه الأعمال.

ومن هنا تصح، في حدودها، قاعدة اجتماعية لا بوصفها تعريفًا للنفاق:

حين يصبح الصدق عالي الكلفة وتكثر مكاسب الكذب والتلون، لا يكفي الوعظ الفردي وحده، بل يحتاج الإصلاح أيضًا إلى بيئة تعين على الصدق ولا تكافئ نقيضه. وهذا في خصال النفاق العملي والسلوك الظاهر، أما حقيقة النفاق الأكبر فمرجعها الاعتقاد الذي لا تنشئه الحوافز الاجتماعية بمجردها.

ويضع القرآن في الجهة المقابلة صورة البيئة الإيمانية التي يتناصر أفرادها على المعروف لا على حماية الانحراف: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 71]؛ فإصلاح البيئة ليس هندسة إدارية فحسب، بل إعادة وظيفة الجماعة إلى ولاية تقوم على المعروف والطاعة.

الحادي عشر: كيف نكشف المشروع الضراري دون أن نخلط بينه وبين الخطأ؟

القرآن في مسجد الضرار لم يغتر باسم المسجد، ولم يترك الشعار يحجب الحقيقة؛ بل كشف الضرار والتفريق والإرصاد، وحاكم العمل إلى وظيفته التي أخبر بها الوحي. وهذه قوة يجب ألا تضيع عند قراءة الواقع: الاسم الطيب لا يزكي المشروع، وكثرة الشعارات لا تمحو أثرًا ثابتًا، والخطأ المتكرر الذي تحميه البنية ليس كزلّة عابرة. لكننا اليوم لا نملك وحيًا يكشف السرائر، ولذلك يبدأ الكشف من حقيقة يمكن إثباتها: واقعة ثابتة، ثم تكرار يكشف نمطًا، ثم بنية أو أثر يمكن وصفه، ثم مقارنة بين الشعار والفعل. هكذا تبقى حدة الميزان القرآني في كشف الوظيفة، ويبقى الحكم على الباطن حيث وضعه الشرع.

ولهذا لا يكفي الاسم ولا الانطباع؛ فنموذج مسجد الضرار كشفه الوحي نفسه بوظائف محددة: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة: 107]، ثم أخبر القرآن عن أثر البناء في القلوب: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: 110]؛ ففي الواقعة الأصلية ثبتت الوظائف والنيات بخبر الوحي. أما المشروع المعاصر فيفحص بما يثبت من عمل وأثر ووظيفة، ولا ندعي معرفة مقصده الخفي أو مطابقته لمسجد الضرار بلا بينة.

الخطأ المؤسسي — قد يصدر قرار سيئ بسبب ضعف المعرفة أو سوء التقدير. وتظهر علاماته في استعداد المؤسسة للمراجعة، والاعتراف بالخلل، وتصحيح الأثر.

الفساد المصلحي – قد يقدم شخص أو جهة منفعة خاصة على المصلحة العامة، دون أن يكون ذلك نفاقًا أكبر. وهو فساد يجب كشفه ومحاسبته، لكن لا يتجاوز الوصف ما ثبت.

النمط الشبيه بأعمال النفاق – يظهر حين تتكرر أعمال مثل:

179. الخطاب المزدوج.

180. والكذب المنظم.

181. واستعمال المقدس.

182. والتفريق.

183. والإرجاف.

184. وحماية الباطل.

185. وضرب الصادقين.

186. وتغيير المعايير بحسب المصالح.

فيقال: هذا نمط من أعمال النفاق، أو مشروع يحمل سمات العمل المنافق.

ويبقى الحكم على بواطن القائمين بالمشروع خارج نطاق هذا التحليل؛ فالمشروع يحاكم بوظيفته وآثاره، أما السرائر فلها بابها الشرعي المستقل

ومن قرائن التفريق بين المشروع المخطئ والمشروع الضراري - من غير أن تكون قرينة واحدة حكمًا قاطعًا -:

187. المخطئ يقبل التصحيح، والضراري يرى التصحيح تهديدًا.

188. المخطئ يعترف ببعض الحق عند خصمه، والضراري يحتاج إلى إسقاطه كله.

189. المخطئ تتغير ممارسته بعد ظهور النتائج، والضراري يغير روايته ويحفظ ممارسته.

190. المخطئ قد تفسد وسيلته مع سلامة أصل الغاية، والضراري يستعمل الغاية المعلنة غطاءً لوظيفة أخرى.

191. المخطئ يصلح ما أفسده، والضراري يعاقب من كشف الإفساد.

ولا يشترط أن يكون أصحاب المشروع مدركين لكل هذه المراحل إدراكًا كاملًا، فقد يبدأ العمل بمصلحة واعية، ثم تتحول مع الزمن إلى ثقافة يراها الداخلون طبيعية. وقد يرث شخص نظامًا فاسدًا ويمارسه دون أن يعرف كيف بدأ.

وهذا لا يرفع مسؤوليته عن إصلاح ما ظهر له، لكنه يمنع التحليل من تصوير كل فرد مخططًا لكل ما ينتج عن النظام.

الثاني عشر: بناء مناعة اجتماعية ضد النفاق

لا يمكن منع النفاق من الوجود؛ فهو متعلق بقلوب البشر. لكن يمكن تقليل قدرته على صناعة الواقع، وذلك ببناء مجتمع لا يمنحه الثقة والنفوذ بلا بينة، ولا يحول الحذر منه إلى ظلم عام.

وتقرر آية الحجرات أصلًا عامًا في تداول الأخبار قبل أن تتحول الأخبار غير المتثبتة إلى أحكام وأضرار: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]؛ فالتبين حكم قرآني عام، واستعماله في مقاومة الإرجاف وحماية الأبرياء تطبيق لهذا الأصل على باب تداول الأخبار، لا حصر لمعنى الآية فيه.

وتبني السنة في الجهة المقابلة صورة المجتمع الذي يشد بعضه بعضًا على الحق؛ قال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا». رواه البخاري (6026)، ومسلم (2585). فالبديل عن شبكة المصالح الخفية ليس تفكيك العلاقات، بل بناء تضامن تحكمه الأمانة والحق.

إعادة الاعتبار للمعايير — تكون القرارات والترقيات والعقوبات مبنية على قواعد معلومة، لا على القرب الشخصي. وكلما قل الغموض، ضاقت مساحة التلون.

حماية من يقول الحقيقة — إذا كان كشف الخلل يؤدي إلى تدمير صاحبه، فلن يصل إلى القيادة إلا الكلام المريح. ولذلك ينبغي حماية الناصح من الانتقام، مع محاسبته إن كذب أو تجاوز.

توثيق القرارات والمواقف — التوثيق يمنع إعادة كتابة الماضي، ويجعل المسؤولية قابلة للإثبات، ويقلل قدرة كل طرف على صناعة رواية تناسبه بعد ظهور النتيجة.

الفصل بين المقدس والبشري – المشروعات الإسلامية والدعوية والعلمية بشرية تقبل النقد والمراجعة. وتعظيم الدين يقتضي ألا يجعل اسم الدين حصانة لأخطاء القائمين عليه.

سرعة البيان – الفراغ المعلوماتي بيئة للإرجاف. والبيان الصادق، ولو تضمن اعترافًا بخطأ، أقوى من صمت يسمح للشائعة أن تبني الرواية.

عدالة المحاسبة – لا قيمة للقواعد إذا طبقت على الضعيف وحده. والعدل مع القريب والبعيد من أقوى الوسائل لكسر شبكات الحماية.

حماية الثقة دون سذاجة – لا يبنى المجتمع على الشك الدائم، ولا على التصديق المطلق. بل على حسن ظن أصلي، وتثبت عند القرائن، ومحاسبة بالبينات.

توزيع النفوذ – كلما تركزت المعلومات والمال والقرار في يد دائرة صغيرة، زادت قدرة الشبكات الخفية على التحكم. أما التوازن والرقابة وتحديد الصلاحيات فتقلل فرص الاستغلال.

192. عدم مكافأة الصورة على حساب العمل

ينبغي أن ينظر إلى الأثر، والوفاء، والأمانة، لا إلى كثرة الظهور أو القدرة على إرضاء الجماهير.

والغاية ليست بناء مجتمع لا يخطئ، بل مجتمع يستطيع اكتشاف الخطأ وتصحيحه قبل أن يتحول إلى نظام يحمي نفسه.

خاتمة المحور: حين يصبح النفاق بيئةً لا موقفًا

يبدأ النفاق في القلب، لكنه لا يقف عنده. فإذا وجد اللغة التي تستره، والعلاقات التي تحميه، والمؤسسات التي تكافئه، والجمهور الذي يغتر بصورته؛ تحول من فساد فردي إلى قوة تصنع الواقع.

وفي سياق بني النضير والمنافقين يصف القرآن اجتماعًا يبدو واحدًا وقلوبًا متفرقة: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: 14]؛ فهذا المعنى ثابت في سياقه. والاستفادة منه في فهم هشاشة بعض التحالفات المصلحية المعاصرة استئناس وتنزيل، لا تعميم للآية على كل شبكة أو مؤسسة.

عندئذ:

193. لا يعود الكذب كلمة، بل رواية عامة.

194. ولا يصبح التلون صفة شخص، بل طريقًا للترقي.

195. ولا يكون الإرجاف خبرًا، بل مناخًا من الخوف.

196. ولا يكون التفريق خصومةً عارضة، بل وسيلة للسيطرة.

197. ولا يكون المقدس هداية، بل غطاءً يحمي المصالح.

198. ولا يكون الظلم تجاوزًا، بل نظامًا ينتقي من يحاسبه.

199. ولا يكون العدو خارج المجتمع وحده، بل يجد داخله من يقدم له ما يحتاج إليه.

وخبث أثر النفاق اجتماعيًّا أنه قد يجعل المجتمع شريكًا في إضعاف نفسه: يحمي المفسد لأن شعاره حسن، ويطرد الناصح لأن كلامه مؤلم، ويصدق المرجف لأنه يوافق خوفه، ويقدم المتلون لأنه يرضي الجميع، ثم يعاقب الصادق لأنه لا يجيد تبديل وجهه. وهذا وصف لوظيفة اجتماعية إذا ثبتت، لا تسمية للمجتمع نفسه بالنفاق العقدي.

فالمنافق لا يحتاج دائمًا إلى هدم البناء؛ قد يكفيه أن يغير داخله معنى الأمانة والنجاح والانتماء، حتى يصبح الصادق غريبًا، والمتلون واقعيًّا، والمفسد مصلحًا.

لكن مقاومة ذلك لا تكون بإطلاق التهم، ولا بتحويل المجتمع إلى ساحة شك. فالاتهام بلا بينة يهدم الثقة التي نريد حمايتها، وقد يصبح هو نفسه أداة من أدوات التفريق.

وإنما تكون المواجهة بميزان يجمع بين ثلاثة أمور لا يستغني بعضها عن بعض: وضوح في تسمية الأعمال، وعدل في الحكم على الأشخاص، وبناء مؤسسات تقل فيها مكاسب النفاق وتزداد فيها كلفة الكذب والتلون.

نصف الضرار بأنه ضرار، والتفريق بأنه تفريق، والإرجاف بأنه إرجاف، والخطاب المزدوج بأنه خداع؛ ثم نقف عند حدود ما ثبت، ولا ندعي ما في القلوب.

والمجتمع الصادق ليس مجتمعًا يخلو من المنافقين، بل مجتمع لا يستطيع فيه المنافق أن يحول كذبه إلى معيار، ولا شبكته إلى قانون، ولا شعاره إلى حصانة، ولا مصلحته إلى مصلحة عامة.

وحين تكون القواعد أوضح من العلاقات، والحق أعلى من الأشخاص، والمساءلة أعدل من الولاءات، والصدق أكثر أمانًا من التلون؛ تضيق مساحة أعمال النفاق وآثارها، ولو لم تنعدم خصاله من النفوس.

المحور السابع: المواجهة والوقاية وبناء الصدق

كيف نحاصر النفاق من غير ظلم، ونبني ما يضاده؟

بعد ستة محاور من الكشف، ينبغي أن نتغير جهة العين. لا يكفي أن تعرف كيف يمرض القلب وكيف يحرس العقل هواه وكيف يتلون الخطاب وكيف ينتقل الأثر إلى المجتمع. السؤال الآن: كيف يُبنى النقيض؟ كيف يعيش الإنسان بحيث لا يحتاج إلى كذبة تحمي صورته، ولا إلى معيار يتبدل مع مصلحته؟ وكيف تصبح المؤسسة مكانًا لا يخسر فيه الصادق لأنه صدق؟ هنا تجتمع معرفة الله واليقين به، والإخلاص والصدق والعدل والثبات والتوبة؛ لا بوصفها قائمة فضائل، بل بوصفها قوةً تبني إنسانًا وعلاقاتٍ وقواعد تقاوم الطريق الذي كشفه الكتاب.

ليس المقصود من دراسة النفاق أن يتحول المؤمن إلى باحث عن المنافقين في وجوه الناس، ولا أن يصبح المجتمع ميدانًا للاتهام والتخوين. كما أن المقصود ليس أن نقرأ آيات المنافقين بوصفها تاريخًا مضى، ثم نترك أعمالهم تتكرر أمامنا بأسماء جديدة من غير كشف ولا مقاومة.

بين السذاجة التي تغفل عن النفاق، والريبة التي تتهم الجميع، يقيم الوحي ميزانًا أدق.

ومن أصول هذا الميزان أن يبقى العدل قائمًا حتى مع من نكره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: 8]؛ فمواجهة النفاق تفقد مشروعيتها إذا استعملت الظلم أو المعيار المزدوج الذي جاءت لتقاومه.

وهذا الميزان يكشف الصفات ولا يميعها، ويحذر من المنافقين ولا يفتح باب الظلم، ويحاكم الأعمال الظاهرة ولا يدعي علم السرائر، ويواجه الضرر بما يناسبه مع اعتبار المصلحة والمآل، ويبقي باب التوبة مفتوحًا لمن صدق في الرجوع والإصلاح.

فمواجهة النفاق لا تبدأ بكثرة إطلاق الوصف، بل ببناء القدرة على رؤية العمل كما هو، ومنع صاحبه من أن يعيد تسميته، وتقليل ما يجنيه من الخداع والتلون، ثم بناء قلب ومجتمع ومؤسسة لا يحتاج فيها الإنسان إلى وجهين حتى يعيش وينجح.

والسؤال الذي يختم به الكتاب رحلته ليس فقط:

كيف نعرف أعمال النفاق؟

بل: كيف نمنعها من أن تتحول إلى ثقافة، وكيف نبني في مقابلها الإيمان والصدق والثبات؟

أولًا: منهج نبوي يجمع بين الحذر والعدل

وحين يبلغ القرآن موضع التحذير لا يستعمل عبارةً رخوة: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: 4]. هذا وصف صريح لمن كشفهم السياق، وقوة اللفظ جزء من الهداية هنا؛ فلا يهوَّن الخطر باسم العدل، كما لا يُنقل الحكم إلى أعيان لم يثبت فيهم ببيّنة.

ويزيد الأمر صراحةً حين يخاطب الله نبيه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 73]. فالمنهج النبوي لا يبدأ من إنكار وجود العدو الداخلي ولا من تلطيف ألفاظ الوحي، بل من معرفة الخطر ثم التعامل معه بعلم وعدل ومصلحة شرعية.

فالوحي لا يدعو إلى الغفلة عن المنافقين، ولا إلى معاملتهم كأن خطرهم وهم متخيل. لقد سماهم عدوًا، وأمر بالحذر منهم، وكشف أقوالهم وروابط بعضهم ببعض ومواقفهم، ومنعهم في بعض المواطن من المشاركة، وكشف مشروع مسجد الضرار ونهى عن القيام فيه، ونهى النبي ﷺ عن الصلاة على من مات منهم بعد أن ظهر حكم الله فيه.

وهذا الكشف الصريح لم يتحول في الهدي النبوي إلى فوضى في الأحكام؛ فلم يكن التعامل قائمًا على الانفعال المجرد، ولا على قتل كل من ظهرت منه أمارة، ولا على تفتيش القلوب. فالحذر لم يساوِ الاندفاع، والعدل لم يساوِ الغفلة، بل كان النبي ﷺ يجمع بين:

200. العلم بخطرهم، ومراقبة أعمالهم، وكشف ما يجب كشفه، ومنع الضرر حين يظهر، والصبر على بعضهم حين تكون مفسدة المعالجة أعظم، وإجراء أحكام الإسلام الظاهرة على من لم يظهر منه ما ينقضها.

وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: لما تنازع رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فنادى كل واحد قومه، قال النبي ﷺ: «ما بال دعوى الجاهلية؟» ثم قال: «دعوها فإنها منتنة». فلما قال عبد

الله بن أُبيّ مقالته، طلب عمر رضي الله عنه قتله، فقال النبي ﷺ: «دَعْهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ». رواه البخاري (4905)، ومسلم (2584).

فلم يكن ترك قتله جهلًا بحقيقة قوله، ولا رضا بعمله، بل مراعاةً لمآل الإجراء في وعي من لا يعرف تفصيل الحال؛ حتى لا تتحول العقوبة إلى مادة يستثمرها المنافقون في تشويه الدعوة.

وهذا أصل مهم:

ليست كل مواجهة ممكنة مواجهة حكيمة، وليست كل مفسدة تُزال بالطريقة نفسها.

فقد يحتاج الموقف إلى بيان علني.

قد يحتاج إلى منع من التأثير.

وقد يحتاج إلى محاسبة قضائية أو إدارية.

وقد يحتاج إلى كشف الكذب بالأدلة.

وقد يكون الصبر المؤقت أقل ضررًا من مواجهة تمنح صاحب الباطل بطولة لم يكن يملكها.

لكن مراعاة المآلات لا تعني ترك المنافق يعيث في المجتمع. فقد كشف الوحي مسجد الضرار ونهى النبي ﷺ عن القيام فيه، ومنع بعض المتخلفين من الخروج معه بعد أن كشف الله حقيقتهم، وأعرض عن أعذار الكاذبين، وأظهر للناس بعض أعمالهم.

فالموازنة النبوية ليست بين المواجهة والسكوت، بل بين أنواع المواجهة ودرجاتها وتوقيتها.

ومن الخطأ أن يستعمل بعض الناس حلم النبي ﷺ ذريعة لحماية كل مفسد من المساءلة، كما أنه من الخطأ استعمال النصوص في ذم المنافقين لتبرير التهور والاتهام.

المنهج الصحيح يسأل:

201. ما العمل الثابت؟

202. وما مقدار ضرره؟

203. وهل الضرر فردي أم متعدٍّ؟

204. وما الوسيلة التي تمنعه؟

205. وما مآل المواجهة؟

206. وهل توجد بينة تكفي للإجراء المقترح؟

207. وهل يمكن إصلاح الشخص، أم يجب حماية المجتمع منه أولًا؟

فالمواجهة ليست غضبًا يندفع، بل عدل يحمي الحق.

ثانيًا: كشف العمل من غير ادعاء علم القلب

المواجهة القرآنية لا تنتظر فتح الصدور حتى تسمي العمل الظاهر؛ فالكذب يُعرف ويواجه إذا ثبت، والإرجاف يُكشف، والتفريق يُمنع، والضرار يُدفع، والخيانة تُحاسب بقدر ما ثبت. وفي الوقت نفسه لا تجعل المواجهة من الظن علمًا ولا من القرينة المحدودة قلبًا مكشوفًا. فالقوة هنا في أن يكون الحساب على ما ظهر وثبت، لا في أن يتحول المحاسب إلى مدّع لعلم الباطن.

فيقال: هذا كذب، وهذا إرجاف، وهذا تخذيل، وهذا خطاب مزدوج، وهذه مؤسسة تحمي الفساد أو تعاقب الناصح؛ إذا قامت البينة على ذلك. وإذا ثبت قول أو فعل سماه الشرع كفرًا، كالاستهزاء بالله وآياته ورسوله، لم نخفضه إلى عبارة مبهمة من أجل الخوف من الحكم على صاحبه؛ بل نقول: هذا القول أو الفعل كفر، ثم نبحث حكم المعيّن في بابه.

أما الجزم بأن شخصًا بعينه يبطن الكفر، أو تعميم حكم النفاق الأكبر على كل من شارك في مشروع، فلا يثبت بمجرد التحليل أو تراكم القرائن العامة. وهذا غير الحكم على قول أو فعل ظاهر في نفسه؛ فباب السرائر شيء، وباب الأحكام المترتبة على الظاهر شيء آخر.

وهذا الضابط لا يعطل المحاسبة ولا يفرغ الألفاظ الشرعية من معناها؛ بل يجعلها أدق: يثبت الفعل أولًا، ويسميه باسمه، ويعطيه حكمه، ويحاسب على ما ثبت، ثم لا يخترع وراء الظاهر سريرة لم تقم عليها بينة.

ومن أدق الشواهد النبوية على هذا الحد ما جاء في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه في شأن المتخلفين عن تبوك: «فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى

الله». والقصة في البخاري (4418)، ومسلم (2769). وستعود القصة نفسها لاحقًا من زاوية أخرى: نجاة كعب بالصدق، أما وظيفتها هنا فإثبات الفرق بين التعامل مع الظاهر وادعاء العلم بالسرائر.

والقاعدة:

لا نحارب النفاق بأخلاقه، فلا نواجه الكذب بكذب، ولا الإرجاف باتهام بلا بينة، ولا الظلم بظلم آخر.

ثالثًا: لا سذاجة في الثقة ولا مرض في الشك

الثقة ضرورة لبقاء المجتمعات، لكن الثقة التي لا تحميها مساءلة تتحول إلى فرصة للخداع. وفي المقابل، فإن الشك الدائم يهدم كل تعاون، ويحقق للمنافق هدفه في تفكيك المجتمع.

ومن هنا لا يبني الوحي العلاقة على التصديق المطلق ولا على الاتهام المطلق، بل على:

208. أصل حسن الظن.

209. والتثبت عند ورود القرائن.

210. والعدل في المحاسبة.

211. وعدم إشاعة التهمة بغير بينة.

وعندما يدخل الخبر إلى هذا المجتمع لا يسأل الوحي: هل يعجبك؟ بل: هل ثبت؟ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: 6]. التبين هنا يحمي المجتمع من أن يصبح غضبه أو خوفه طريقًا إلى ظلم من لم تثبت عليه الدعوى.

فلم يأمر القرآن برفض كل خبر يأتي من فاسق، ولم يأمر بقبوله؛ بل أمر بالتبين. ومعنى ذلك أن الخبر لا يحكم عليه من خلال انجذاب النفس إليه، ولا من خلال موافقته لموقف سابق، بل من خلال الدليل.

وقال سبحانه في حادثة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: 12].

وتؤكد السنة هذا السياج الأخلاقي الذي يمنع تحويل معرفة النفاق إلى صناعة للاتهام؛ قال النبي ﷺ: «إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا». رواه البخاري (6066)، ومسلم (2563). فالحذر من الخداع لا يبيح بناء الأحكام على الظنون، ولا تفتيش الخفايا طلبًا لتصديق الشك.

فحسن الظن ليس سذاجة، وإنما قاعدة أخلاقية تمنع المجتمع من تسليم أعراض أفراده لأول شائعة. لكن حسن الظن لا يعني تجاهل الأدلة إذا ظهرت؛ بل يعني ألا ننتقل من الاحتمال إلى الإدانة بلا بينة.

يمكن تلخيص الموقف المتوازن في ثلاثة مستويات:

ثقة أصلية — لا يعامل الناس بوصفهم متهمين حتى تثبت براءتهم. فالحياة لا تستقيم إذا احتاج كل إنسان إلى إثبات نقاء قلبه عند كل موقف.

تحقق عند القرائن — إذا ظهر تناقض متكرر، أو خبر خطير، أو أثر متعدٍّ، لم يعد الصمت حسن ظن، بل قد يصبح تفريطًا. وهنا يفحص العمل بهدوء ودون تشهير سابق للحكم.

محاسبة عادلة بعد الإثبات — إذا ثبت الخطأ أو الخيانة أو الإرجاف، لا يعفى صاحبه بسبب مكانته أو قربه، ولا يزاد عليه ما لم يثبت بسبب كراهية الناس له.

السذاجة تقول: لا يمكن أن يفعل ذلك، فهو صاحب مظهر حسن.

والشك المرضي يقول: لا بد أن وراء كل عمل حسن مصلحة خفية.

أما العدل فيقول: نحفظ للظاهر دلالته، ونفحص القرائن، ونحكم بما ثبت.

وفي الجهة الأخرى لا تجعل السنة حسن الظن غفلة متكررة؛ قال النبي ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين». رواه البخاري (6133)، ومسلم (2998). فالمؤمن لا يعيش أسير الشك، لكنه يتعلم من القرائن والتجربة، ويمنع تكرار الضرر من غير أن يحول ذلك إلى اتهام شامل.

والنفاق يزدهر في الطرفين:

212. يستفيد من السذاجة ليمرر أعماله.

213. ويستفيد من الشك العام ليجعل الصادق والكاذب سواء.

ولهذا فإن بناء الثقة الرشيدة من أعظم وسائل مقاومته.

رابعًا: حماية الوعي من الإرجاف والتضليل

لا يستطيع النفاق أن يصنع واقعًا من غير وعي يصدقه أو يتأثر به. ولذلك كانت حماية العقل الجمعي جزءًا أساسيًّا من المواجهة.

وفي أخبار الأمن والخوف يواجه القرآن شهية الإذاعة قبل أن تتحول إلى ضرر عام: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]. ليس كل ما يصلح أن يُسمع يصلح أن يُذاع، ولا كل ما يُعرف يُفهم بلا ردّ إلى أهله.

تكشف الآية ذم إذاعة أخبار الأمن أو الخوف قبل ردها إلى من يستنبط حقيقتها. ومن تنزيل هذا الأصل أن نشر الخبر الحساس بلا فهم أو تثبت قد يؤدي وظيفة الإرجاف ويخدمه أثرًا، ولو لم يقصد الناشر الإرجاف نفسه.

ولهذا تعود هنا -بوظيفة عملية جديدة- القاعدة النبوية: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدِّث بكل ما سمع». رواه مسلم في مقدمة صحيحه (5). وردت قبل ذلك في تحليل الإرجاف، وتعود هنا ميزانًا شخصيًا قبل النشر: ليس كل ما يصل إليك صالحًا لأن يمر عبرك إلى الناس.

وفي زمن المنصات الرقمية لم يعد الإنسان مستقبلًا للأخبار فقط؛ بل صار ناشرًا ومعلقًا ومحللًا في لحظة واحدة. ولذلك أصبح ضبط النشر مسؤولية إيمانية.

وتحتاج حماية الوعي إلى جملة من الممارسات:

التمييز بين الخبر والتفسير — قد تكون الواقعة صحيحة، لكن التفسير المرافق لها مضلل. يقع حدث محدود، فيقال: هذا دليل على انهيار كامل. ويصدر قرار خاطئ، فيقال: لا يوجد في المؤسسة مخلص واحد.

الواقعة قد تثبت، لكن النتيجة لا تلزم منها.

التمييز بين الاحتمال والحقيقة – بعض الخطابات يقدم أسوأ الاحتمالات بوصفها أمرًا واقعًا. وكلما ضعف الدليل، ارتفعت نبرة القطع والانفعال.

تتبع المصدر الأول – قد يرى الإنسان الخبر في عشرات الحسابات، فيظن أن مصادره متعددة، بينما الجميع يعيدون مادة واحدة مجهولة الأصل.

فحص ما حذف – التضليل لا يكون دائمًا بإضافة الكذب، بل قد يكون بحذف السياق، أو إخفاء معلومة تغير معنى الصورة.

مراقبة التوقيت – قد تكون المعلومة صحيحة، لكن نشرها في وقت معين وبطريقة معينة يؤدي ضررًا لا يحققه بيانها في سياق مسؤول.

ولا يعني ذلك إعطاء المؤسسات حق كتمان الأخطاء بحجة التوقيت والمصلحة. فالكتمان قد يصنع فراغًا أخطر من البيان. وإنما المطلوب أن يكون كشف الخلل مقترنًا بالدقة، وبقدر الحاجة، وبما يحفظ القدرة على الإصلاح.

ومن أهم الأسئلة قبل نشر خبر:

214. هل ثبت؟

215. وهل أفهم معناه؟

216. وهل أميز بين المعلوم والمحتمل؟

217. وهل نشره يخدم الإصلاح أم مجرد الإثارة؟

218. وهل أقبل تصحيحه إذا ظهر خطئي؟

219. وهل سأعرض الخبر نفسه لو كان متعلقًا بمن أحب؟

فالمعيار المزدوج في التثبت صورة من صور النفاق العملي: يدقق الإنسان في كل خبر يضر حليفه، ويصدق بلا فحص كل ما يضر خصمه.

ولا تحمى المجتمعات من الإرجاف بمجرد التحذير من الشائعات، بل ببناء مؤسسات تُصدر المعلومات بسرعة وصدق. فالفراغ المعلوماتي لا يبقى فارغًا؛ يملؤه الأكثر إثارة، لا الأكثر صدقًا.

والبيان المتأخر، ولو كان صحيحًا، قد لا يمحو الصورة الأولى التي استقرت في النفوس.

خامسًا: مواجهة أعمال النفاق داخل المؤسسات

لا يكفي أن تطالب المؤسسة موظفيها بالإخلاص والصدق، بينما تكافئ نظمها التملق والتستر. فالأخلاق الفردية تضعف إذا كانت البيئة تعاقبها باستمرار.

والبناء المؤسسي المضاد يبدأ بأصلين قرآنيين جامعين: أداء الأمانة والعدل في الحكم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾ [النساء: 58]؛ وهما أوسع من معالجة حالة فساد بعينها، لأنهما يعيدان تصميم القرار نفسه على معيار يتجاوز الأشخاص والشبكات.

ومواجهة هذا الازدواج المؤسسي تبدأ من سؤال بسيط:

ما الذي يحدث لمن يقول الحقيقة داخل هذه المؤسسة؟

إذا كان الصادق يعزل، والمادح يرقى، والخطأ يخفى، والمسؤولية تلقى على الضعيف؛ فلا تكفي اللوائح المكتوبة ولا الكلمات التحفيزية.

ومن أهم وسائل الحماية:

وضوح المعايير — يعرف العاملون كيف تتخذ القرارات، ولماذا رقي شخص، ولماذا عوقب آخر. فالغموض يسمح للعلاقات الخفية أن تحكم، ثم يجعل كل شخص محتاجًا إلى وسيط يحميه.

توثيق القرار — القرار غير الموثق يسهل إنكاره وإعادة تفسيره. أما التوثيق فيربط المسؤولية بصاحبها، ويمنع المنتفع من نسبة النجاح إلى نفسه والتنصل من الفشل.

حماية الناصح — لا معنى لدعوة الناس إلى الإبلاغ عن الخلل إذا كان أول أثر لذلك تدمير مستقبلهم. لكن حماية الناصح لا تعني قبول كل اتهام؛ بل حمايته من الانتقام، مع مطالبته بالدليل والعدل.

الإفصاح عن المصالح – كثير من القرارات التي تقدم في صورة اجتهاد مهني تحكمها مصالح غير معلنة. والإفصاح لا يلغي المصالح، لكنه يمنعها من التخفي وراء اللغة المحايدة.

عدالة الجزاء – إذا عوقب الصغير على ما يعفى منه الكبير، تعلم العاملون أن المشكلة ليست في الفعل، بل في ضعف الحماية. وعندئذ يبحث كل واحد عن شبكة نفوذ بدل أن يحرص على البراءة.

تداول المعلومات – احتكار المعرفة يمنح صاحبه قدرة على تشكيل الرواية التي تناسبه. وكلما أمكن توزيع المعلومات والرقابة دون الإضرار بالمصالح المشروعة، قلت مساحة التضليل.

الفصل بين الشخص والمؤسسة – القائد يخطئ، ونقد قراره ليس خيانة للمؤسسة. وحين يصبح الدفاع عن الشخص دفاعًا عن الفكرة كلها، يتحول الولاء إلى باب لحماية الأخطاء.

تقويم الأثر لا جودة العرض – قد يكون أكثر العاملين حديثًا عن الإنجاز أقلهم عملًا. لذلك يجب ألا تقاس الكفاءة بالحضور الإعلامي أو القدرة على إرضاء المسؤولين، بل بالأمانة والأثر والوفاء بالمسؤولية.

المؤسسة الصادقة ليست التي لا يقع فيها نفاق عملي أو فساد، بل التي لا تسمح لهذا الفساد أن يصبح الطريق الطبيعي للنجاح.

سادسًا: مقاومة النفاق العملي في النفس

بعد كشف النفاق الأكبر ومشروعاته، يبقى الخطر الأقرب: أن ينشغل الإنسان بالمنافقين من حوله، وينسى ما تسلل إلى نفسه من خصالهم.

قال النبي ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر». رواه البخاري (34)، ومسلم (58) باختلاف يسير.

وقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». رواه البخاري (33)، ومسلم (59).

هذه النصوص لا تجعل كل من وقعت منه خصلة كافرًا في الباطن، لكنها تمنع المؤمن من الاستهانة بالشبه الأخلاقي بالمنافقين.

فالنفاق العملي ليس مجرد قائمة ذنوب متفرقة؛ إنه تدريب للنفس على الانفصال بين ما تقول وما تفعل. وكل مرة يكذب فيها الإنسان ليحمي صورته، أو يخون ليحفظ مصلحته، أو يفجر في الخصومة لينتصر، تتسع المسافة بين ظاهره وباطنه.

وقد يبدأ الأمر صغيرًا: بوعد لا يريد الإنسان الوفاء به، أو مدح يقوله طلبًا لمصلحة، أو رواية يغيرها قليلًا حتى يخرج بريئًا، أو معلومة يخفيها لأنها تضره، أو قول ينسبه إلى خصمه ولم يقله، أو عهد يعيد تفسيره بعد ذلك بما يعفيه من التزامه. وهذه المواضع الصغيرة هي التي يتدرب فيها القلب على الصدق أو على التلون.

ثم يتكرر الفعل حتى يصبح الإنسان سريعًا إلى الكذب، بطيئًا في الاعتراف، قادرًا على تقديم تفسير أخلاقي لكل مصلحة.

ولهذا قال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا». رواه البخاري (6094)، ومسلم (2607).

الحديث لا يصف الفعل وحده، بل المسار: يصدق الإنسان مرة، ثم يتحرى الصدق، حتى يصير الصدق وصفًا له. ويكذب مرة، ثم يتحرى الكذب، حتى يعاد تشكيل شخصيته حوله.

فمقاومة النفاق العملي لا تكون بالتوبة من الواقعة وحدها، بل بكسر المسار الذي يجعلها عادة.

ومن أنفع الأسئلة اليومية:

220. هل قلت اليوم ما لا أعتقده لأحصل على قبول؟

221. هل وعدت بما أعلم أنني لا أريد الوفاء به؟

222. هل غيرت روايتي لأن الحقيقة تضرني؟

223. هل طبقت على خصمي معيارًا لا أطبقه على نفسي؟

224. هل بالغت في خطأ غيري لأنتصر في الخصومة؟

225. هل سكت عن حق خوفًا على مكانتي؟

226. هل مدحت أمام شخص ما ذممته به في غيابه؟

227. هل نسبت إلى المصلحة العامة ما هو في حقيقته مصلحة خاصة؟

هذه الأسئلة لا يقصد بها تعذيب النفس، بل منع الخلل من أن يصبح طبيعة.

سابعًا: محاسبة النفس من غير وسواس

خاف الصحابة والسلف من النفاق على أنفسهم، ولم يحملهم ذلك على اليأس، بل على صدق المحاسبة والعمل.

والقرآن يضبط هذه المحاسبة بنقلها من القلق المجرد إلى النظر فيما قدمه الإنسان فعلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: 18]؛ فالسؤال ليس: هل أستطيع أن أضمن قلبي؟ بل: ماذا قدمت، وما الذي يجب أن أصلحه قبل غد؟

ولكن الخوف النافع يختلف عن الوسواس؛ فالخوف النافع يقود إلى مراجعة عمل محدد، ويبعث على التوبة، ويزيد الحرص على الصدق، ويجعل الإنسان أقل اتهامًا للآخرين، ويفتح له باب الرجاء في الله. أما الوسواس فيتهم أصل الإيمان بلا دليل، ويجعل كل فتور علامة على النفاق الأكبر، ويعيد فحص النية بلا نهاية، ويمنع من العمل خوفًا من الرياء، ثم يغلق باب الرجاء ويشغل الإنسان بذاته عن طاعة الله.

ليس المطلوب أن يضمن الإنسان طهارة قلبه، فهذا لا يملكه، بل أن يأخذ بأسباب الصدق، ويجاهد الرياء والكذب، ويسأل الله الثبات.

ومن علامات المحاسبة الصحيحة أنها تنتقل من الشعور العام إلى عمل محدد.

بدل أن يقول الإنسان:

أخشى أن أكون منافقًا.

يسأل:

228. أين كذبت؟

229. أي وعد أخلفت؟

230. أي أمانة ضيعت؟

231. في أي خصومة تجاوزت؟

232. ما الحق الذي عرفته ولم أقبله؟

233. وما العمل الذي أظهرته للناس ولم أطلب به وجه الله؟

ثم يصلح ما استطاع:

234. يصدق بعد الكذب.

235. ويعتذر.

236. ويرد الأمانة.

237. ويوفي بالعهد.

238. ويصحح المعلومة.

239. ويطلب المسامحة.

240. ويعيد الحق إلى صاحبه.

القلق المجرد قد يبقى سنوات دون أن يغير سلوكًا، أما التوبة العملية فتبدأ بخطوة يمكن رؤيتها.

ومن علامات المحاسبة الصادقة أيضًا أن يكون الإنسان أشد في محاسبة نفسه وأعدل في محاسبة غيره. أما من يفسر كل خطأ من غيره بالنفاق، ويجد لنفسه عذرًا في كل خطيئة، فقد استعمل الحديث عن النفاق ليهرب من نفسه.

ثامنًا: بناء الصفات المضادة للنفاق

لا يكفي أن يقال للإنسان: لا تكذب ولا تتلون ولا تُرائِ. فالقلب لا يترك فراغًا، وإذا لم يبن فيه الإيمان واليقين والصدق، عاد إلى ما اعتاده عند أول ضغط.

والصفات المضادة للنفاق ليست أخلاقًا منفصلة، بل بناء متكامل.

فالصدق يعيد وصل القول بالحقيقة، والإخلاص يحرر العمل من إدارة الصورة، والعدل يكسر المعيار المزدوج، والثبات يمنع القلب من الارتهان للغالب، وحسن الظن بالله يرد الخوف إلى حجمه، والتوبة تمنع الخطأ من أن يتحول إلى هوية تحتاج إلى الحراسة. وإذا انفصلت هذه المعاني ضعفت، وإذا اجتمعت صنعت إنسانًا أقل حاجة إلى النفاق العملي وأقدر على مقاومة طرائق النفاق من حوله.

ويجمع القرآن بين تقوى الباطن وسداد القول وإصلاح العمل في نسقٍ واحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71]؛ فالسداد هنا ليس تجميلًا للخطاب، بل طريق يصل القول بالفعل والطاعة بالمصير.

اليقين في مقابل الشك — المنافق يقرأ الأحداث بميزان القوة الظاهرة، فإذا اشتد الخطر ساء ظنه بالله. أما المؤمن فيأخذ بالأسباب ويرى الواقع كما هو، لكنه لا يخرج وعد الله من حسابه.

واليقين لا يعني توقع النصر العاجل في كل موقف، بل الثقة بأن طاعة الله لا تكون خسرانًا، ولو تأخر أثرها أو خفي.

الإخلاص في مقابل إدارة الصورة — الإخلاص أن يكون الله هو المقصود بالعمل، فلا تتغير حقيقته بتغير الجمهور.

ولا يعني ذلك أن يخفي الإنسان كل خير، بل أن يستوي عنده أصل القصد في السر والعلن. يظهر إذا كانت المصلحة في الإظهار، ويخفي إذا كانت المصلحة في الإخفاء، ولا يجعل قيمة العمل متوقفة على نظر الناس.

ومن وسائل بنائه أن يكون للإنسان عمل خفي لا يعرفه الناس، يعود إليه كلما شعر أن صورته العامة بدأت تبتلع حقيقته.

الصدق في مقابل صناعة الرواية — الصدق ليس فقط مطابقة الخبر للواقع، بل أن يقبل الإنسان الحقيقة حين تكون عليه، وألا يعيد صياغة الماضي لحماية صورته.

ومن أعلى درجاته أن يقول:

241. أخطأت.

242. ولم أكن صادقًا.

243. وكان دافعي مصلحة نفسي.

244. وقد ظلمت فلانًا.

245. وهذا النجاح ليس لي.

246. وهذا الفشل أتحمل منه كذا.

الاعتراف لا يصغر الصادق، بل يرد صورته إلى حجمها الحقيقي.

كعب بن مالك رضي الله عنه - حين كان الصدق أشد كلفة وأعظم نجاة -

وتجتمع هذه المعاني في قصة كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك. فلما عاد النبي ﷺ، كان كعب قادرًا على أن يصوغ عذرًا يحمي به صورته في اللحظة، كما فعل قوم اعتذروا وحلفوا، لكنه أدرك أن النجاة المؤقتة بالكذب ليست نجاة عند الله، فاختار الحقيقة المؤلمة وقال للنبي ﷺ إنه لم يكن له عذر.

دفع كعب كلفة الصدق كاملة؛ فهُجر هو وصاحباه، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وامتد البلاء خمسين ليلة. ومع ذلك لم يرجع إلى صناعة رواية جديدة تبرئه، ولم يجعل طول الكلفة حجة على أن الصدق كان خطأ. بقي واقفًا أمام الحقيقة التي اختارها، حتى أنزل الله توبته وتوبة صاحبيه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118].

ثم جاء الأمر الذي يلخص الدرس كله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. فالقصة لا تعلم أن الصدق يريح صاحبه فورًا، بل تعلم أن المؤمن يختار رضا الله ولو آلمه انكشاف الحقيقة، وأن الكذب قد يحمي الصورة ساعةً بينما يفسد القلب، أما الصدق فقد يكسر الصورة ثم يعيد بناء الإنسان على أساس لا يحتاج إلى التمثيل.

وقصة كعب، بطولها وتفاصيلها، من أوضح النماذج النبوية المضادة لمنطق النفاق: لم يُنكر خطأه، ولم يختبئ خلف مكانته السابقة، ولم يحوّل تقصيره إلى مصلحة، ولم يطلب من الجماعة أن تكذب لأجله. اعترف، وصبر على أثر الاعتراف، ثم صار صدقه نفسه باب نجاته. والقصة مروية في صحيح البخاري (4418)، وصحيح مسلم (2769).

الأمانة في مقابل الانتفاع بالثقة — المنافق يستعمل الثقة التي منحت له للإضرار بمن وثق به. أما الأمين فيرى المعلومة والمال والمنصب والعلاقة مسؤوليات لا فرصًا خاصة.

والأمانة تظهر حين يستطيع الإنسان أن يخون ولا يخون، لا حين يعجز عن الخيانة.

الوفاء في مقابل الانتماء المشروط — المنافق يبقى ما دامت المصلحة، وينسحب حين ترتفع الكلفة. أما المؤمن فيعرف أن العهد لا يقاس بلحظة الراحة وحدها.

ولا يعني الوفاء التمسك باتفاق باطل أو ضرر محقق، بل ألا يجعل الإنسان عن تأويلات تخرجه من التزاماته لمجرد تغير مصلحته.

الشجاعة في مقابل التخذيل — الشجاعة ليست غياب الخوف، بل منع الخوف من أن يصبح الحاكم الأعلى. وقد يكون أشجع المواقف كلمة حق هادئة داخل مؤسسة، أو اعترافًا بالخطأ، أو رفضًا لمكسب يقوم على خيانة.

العدل في مقابل المعيار المزدوج — يعرف الإنسان مقدار عدله حين يكون الحق لخصمه، والخطأ على حليفه. أما الإنصاف حين توافق النتيجة المصلحة فلا يكشف كثيرًا.

استواء السر والعلن – ليس المطلوب أن تتطابق تفاصيل حياة الإنسان الخاصة والعامة؛ فللخصوصية حقها. وإنما المقصود أن يكون له ميزان واحد، فلا يعلن قيمة ثم يهدمها في الخفاء، ولا يطالب الناس بما يعفي نفسه منه.

إن بناء هذه الصفات هو المواجهة الأعمق للنفاق؛ لأن النفاق لا يهزم فقط بكشف المنافق، بل بتقليل المساحة التي يستطيع أن يخدع فيها، وبزيادة عدد من لا يشترون مصالحهم بضمائرهم.

وهكذا لا يكون بناء الصفات المضادة للنفاق تجميلًا أخلاقيًّا يضاف إلى الحياة، بل إعادة توحيد للإنسان من الداخل: مرجع واحد، وميزان واحد، ووجه لا يحتاج إلى التبدل بتبدل الجمهور. وإذا كان النفاق الأكبر يفسد أصل الإيمان، فإن طريق الرجوع منه لا يكتمل بشعور عابر بالندم؛ بل يحتاج إلى توبة تعالج ما أفسده الكفر والكذب والتلون في القلب والعمل والعلاقات.

تاسعًا: التوبة من النفاق ليست كلمة

بعد أن ذكر الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار قال:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: 146].

جمعت الآية أركان النجاة في أربع كلمات:

تابوا – أي رجعوا عن أصل النفاق وأعماله، ولم يكتفوا بتغيير اللغة أو الاعتذار التكتيكي.

وأصلحوا – فالتوبة من فساد متعدٍّ تحتاج إلى إصلاح ما أفسده الإنسان. فمن نشر كذبًا صححه، ومن فرق جمع، ومن خان رد الأمانة، ومن ظلم أعاد الحق.

لا تكون التوبة كاملة مع الإصرار على الاحتفاظ بثمار الخيانة.

والإصلاح يختلف بحسب نوع الإفساد.

فمن صد عن سبيل الله، لا تكفيه توبة سرية وهو يترك آثار صدّه قائمة؛ بل يعين على فتح الطريق الذي أغلقه.

ومن ثبط الناس عن الحق، يصحح خطابه بقدر ما نشر من التخذيل.

ومن أمر بالمنكر أو نهى عن المعروف، يعمل على قلب أثره، فلا يكتفي بأن يترك الباطل لنفسه.

ومن أعان عدوًّا على المؤمنين، يقطع ما يضرهم، ويصلح ما أمكن من الأثر.

ومن استهزأ أو نشر طعنًا علنيًّا، تكون توبته متضمنةً تصحيح ما أفسده بحسب القدرة والمصلحة.

فالتوبة من العمل المتعدي لا تكتمل بمجرد تغير الشعور الداخلي؛ لأن حقوق الناس وآثار الكلمات والقرارات تبقى بعد تغير القلب.

واعتصموا بالله – لأن المنافق كان يطلب قوته وأمنه من الناس والشبكات والمصالح. فلا يخرج من النفاق حتى يغير موضع اعتماده، ويصبح الله ملجأه لا مجرد لفظ في خطابه.

وأخلصوا دينهم لله – وهذا يعالج أصل الانقسام: أن تكون العبادة والانتماء والولاء لله، لا صورةً للناس ووسيلةً للنفوذ.

فالخروج من النفاق ليس تحسينًا لبعض السلوكيات، بل إعادة بناء للعلاقة بالله والنفس والمجتمع. وصاحب خصلة من خصال النفاق العملي يتوب منها بحسب قدرها: يتركها، ويندم عليها، ويصلح ما ترتب عليها من أثر، ويتدرب على ضدها، ويضع نفسه في بيئة تعينه على الصدق بدل أن تكافئه على التلون.

أما الاعتذار الذي يحفظ الفعل ويغير ألفاظه فليس توبة، بل قد يكون امتدادًا للحيلة نفسها.

عاشرًا: مسؤولية الفرد والمجتمع والمؤسسة

النفاق لا يواجه في مستوى واحد؛ لأنه يبدأ في القلب، ويظهر في العلاقات، ويتضخم في المؤسسات.

247. مسؤولية الفرد

248. أن يراقب صدقه.

249. ويحفظ أمانته.

250. ويتثبت قبل النشر.

251. ولا يكون سماعًا للمرجفين.

252. ولا يبيع موقفه للمصلحة.

253. ولا يعين على إسقاط الصادقين.

254. ويعتذر إذا أخطأ.

255. ويرفض أن يكون جزءًا من شبكة تستره اليوم لتستعمله غدًا.

256. مسؤولية المجتمع

257. ألا يحول الخلاف إلى تخوين.

258. وألا يغتر بالمظهر والشعار.

259. ويحمي أهل الصدق من اللمز.

260. ويطالب بالبينات.

261. ويرفض المعايير المزدوجة.

262. ولا يمنح أحدًا احتكار الدين أو الإصلاح.

263. ويبقي باب النصيحة والمراجعة مفتوحًا.

264. مسؤولية العلماء والدعاة

265. بيان حقيقة النفاق من غير تمييع.

266. وضبط تنزيل الأوصاف.

267. وعدم استعمال النصوص في الخصومات الشخصية.

268. وكشف توظيف الدين في الضرار.

269. وتعليم الناس الفرق بين العمل وصاحبه.

270. وعدم منح الشرعية الدينية لمؤسسة أو شخص بلا مساءلة.

271. مسؤولية المؤسسات

272. بناء الشفافية.

273. وحماية الناصح.

274. وتوثيق القرارات.

275. ومحاسبة القوي والضعيف بالمعيار نفسه.

276. وعدم مكافأة التملق.

277. ومنع تضارب المصالح.

278. وتقويم الأشخاص بالأمانة والأثر، لا بالولاء الشخصي.

279. مسؤولية أصحاب القرار

كلما علت سلطة الإنسان، ازداد احتمال أن يسمع ما يرضيه لا ما يحتاج إليه. ولذلك يحتاج صاحب القرار إلى أن يصنع عمدًا منافذ تصل منها الحقيقة، وأن يراقب من يقربهم: هل ينقلون له الواقع، أم يصنعون له صورة مريحة عنه؟

وقد يظن المسؤول أنه محبوب ومحاط بالمخلصين، بينما يكون قد بنى نظامًا لا يستطيع فيه أحد أن يقول له ما يكره.

وأخطر عزلة هي أن يكون الإنسان بين الناس، ولا يصل إليه منهم إلا ما يوافق هواه.

الحادي عشر: برنامج مختصر لبناء الصدق

حتى لا تبقى المعالجة أفكارًا عامة، يمكن للفرد أو الفريق أن يعتمد برنامجًا دوريًّا مختصرًا:

280. يوميًّا

281. عمل خفي لا يطلع عليه أحد.

282. مراجعة قول أو وعد صدر في اليوم.

283. التوقف قبل نشر خبر مثير.

284. الاعتراف بخطأ صغير بدل تغطيته.

285. أسبوعيًّا

286. حصر الوعود والالتزامات المفتوحة.

287. مراجعة موقف استعمل فيه معياران مختلفان.

288. سؤال شخص صادق عن خلل لا يراه الإنسان في نفسه.

289. إصلاح ضرر نتج عن كلمة أو تصرف.

290. شهريًّا

291. مراجعة علاقة المصلحة بالمواقف.

292. فحص ما إذا كانت الصورة العامة أكبر من الحقيقة الخاصة.

293. تقويم طريقة الخصومة.

294. مراجعة الأمانات المالية والمعلوماتية.

295. تحديد عمل صالح يحتاج إلى ثبات لا إلى إعلان.

296. مؤسسيًّا

297. مراجعة قرار كبير: من استفاد، ومن تحمل كلفته؟

298. فحص ما إذا كانت الاعتراضات تصل فعلًا إلى أصحاب القرار؛ مقارنة القيم المعلنة بما يكافأ في الواقع؛ مراجعة حالة عوقب فيها الناصح أو كوفئ المتملق؛ توثيق الدروس بعد الأزمات قبل أن يعاد تشكيل روايتها.

هذا البرنامج لا يضمن سلامة القلب، لكنه يمنع الإنسان والمؤسسة من ترك المسافة بين القول والعمل تتسع بلا مراجعة.

خاتمة المحور

299. من كشف الأقنعة إلى بناء الوجه الواحد

لا تكفي معرفة المنافقين إذا بقيت البيئة تكافئهم، ولا يكفي فضح الكذب إذا ظل الناس محتاجين إليه ليحموا مصالحهم، ولا تكفي المواعظ عن الإخلاص إذا كانت المؤسسة تعاقب الصادق وتقدم المتلون.

مواجهة النفاق تبدأ بالكشف، لكنها لا تنتهي عنده.

وما تناثر في المحاور السابقة من الصدق والإخلاص والعدل والثبات وحسن الظن بالله والتوبة يجتمع هنا في بناء مقصود؛ فهذه الصفات لم تكن فواصل وعظية داخل التشخيص، بل كانت إشارات إلى أن كل مرض كشفه الوحي له في الإيمان ضد يزاحمه ويطرده.

تكشف العمل حتى لا يحتمي باسمه المزيف.

وتحاسب بالعدل حتى لا تتحول المواجهة إلى ظلم.

وتحمي الوعي حتى لا يصنع المرجفون قرارات المجتمع.

وتصلح المؤسسة حتى لا يصبح التلون طريقًا للنجاح.

وتحاسب النفس حتى لا ترى النفاق في الآخرين وتغفل عن خصاله فيها.

وتبني اليقين والإخلاص والصدق حتى يجد القلب ما يعيش به بدل الخداع.

والصدق الذي يضاد النفاق ليس سذاجة، ولا كشفًا لكل خصوصيات الإنسان، ولا جمودًا يمنعه من مراعاة الأحوال. إنه أن تكون للإنسان حقيقة واحدة، وميزان واحد، ورب واحد يقصده في السر والعلن.

قد يختلف أسلوبه باختلاف المقام، لكن مبدأه لا يتبدل.

وقد يخطئ، لكنه لا يحول خطأه إلى حق.

وقد يخاف، لكنه لا يجعل خوفه شريعةً للآخرين.

وقد يعجز، لكنه لا يثبط القادرين.

وقد يخسر، لكنه لا يبيع الحق ليحفظ صورته.

وقد ينكشف تقصيره، فيختار الاعتراف بدل صناعة رواية جديدة.

وقد يشرح التحليل النفسي بعض كلفة حياة الوجوه المتعددة من التذكر والحراسة وإعادة تفسير التناقضات؛ لكن الوحي هو الذي يضع النهاية في موضعها الصحيح: النجاة ليست راحة نفسية من الازدواج فحسب، بل صدق مع الله وصدق مع الناس وتوبة من الكذب والخيانة. فالصدق يجمع الظاهر والباطن، وقد يريح صاحبه من كثير من كلفة التلون، لكن أعظم فضله أنه عبودية ونجاة قبل أن يكون راحة نفسية.

ومن هنا كان الصدق طمأنينة قبل أن يكون خُلُقًا، وكان النفاق قلقًا قبل أن يكون خطابًا.

إن المجتمع الذي نريده ليس مجتمعًا يكثر فيه الاتهام بالنفاق، بل مجتمعًا تقل فيه مكاسب النفاق:

300. الحق فيه أعلى من الأشخاص؛ والمعيار فيه أثبت من العلاقات؛ والنصيحة فيه أكثر أمانًا من التملق؛ والمحاسبة فيه أعدل من الولاء؛ والعمل فيه أصدق من الصورة؛ والرجوع إلى الحق فيه أكرم من الإصرار على الخطأ.

وحين يصبح الصدق ممكنًا، والأمانة مصونة، والمساءلة عادلة، والظاهر متصلًا بالباطن؛ تضيق مساحة النفاق، لا لأن القلوب صارت معصومة، بل لأن المجتمع لم يعد يمنح الكذب ما يحتاج إليه من الخوف والغموض والحصانة.

وفي نهاية طريق طويل من كشف الوجوه المتعددة، يأتي البناء في عبارة واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. لا يكفي أن تعرف أين يقع الكذب، المطلوب أن تختار موضعك أنت مع الصادقين.

فلم يأمر المؤمن أن يعرف الصادقين فقط، بل أن يكون معهم: في ميزانهم، ومواقفهم، وكلفتهم، وطريقهم.

والنجاة من النفاق لا تكون بكثرة الحديث عنه، بل بأن يصبح الإنسان أكثر صدقًا بعد معرفته، وأكثر عدلًا عند مواجهته، وأشد خوفًا على قلبه، وأبصر بطرائق الإفساد من حوله. فلا يخرج من القرآن بقائمة أسماء يطارد بها الناس، ولا يخرج منه مترددًا في تسمية كذب ثابت أو إفساد أو إرجاف خوفًا من التسرع؛ بل يخرج ببصيرة أشجع لأنها أعدل، وبعدل أقوى لأنه لا يطفئ البصيرة.

وعندئذ يحقق الكتاب غايته: لا أن يملأ الواقع باتهامات جديدة، بل أن يرد إلى الأمة ميزانًا ترى به النفاق، وإرادةً تقاوم أثره، وصدقًا يبني ما يحاول النفاق هدمه.

خاتمة الكتاب: من كشف النفاق إلى بناء الصدق

حين تُغلق الصفحة الأخيرة، جرّب أن تؤخر أسماء الآخرين قليلًا. لا تسأل أولًا: كم صورةً من صور النفاق تعلمت أن أراها؟ ولا: من الذي يشبه هذا الوصف؟ اسأل السؤال الذي لا يسمح لك بالاختباء خلف المعرفة: ماذا صنع هذا العلم فيَّ أنا؟

قد يقرأ الإنسان آيات النفاق بعين تتجه إلى الخارج، فيزداد خبرةً بعيوب الناس ولا يقترب من صدق نفسه. وقد يخطئ في الجهة المقابلة فيظن أن العدل يقتضي تمييع الأسماء التي سماها الوحي. وكلا الطريقين يفسد الميزان. فالقرآن كشف المنافقين كشفًا قويًا: سمى كذبهم وإفسادهم واستهزاءهم وإرجافهم وتخذيلهم، وكشف ما ظهر من أقوالهم ومواقفهم؛ لكنه لم يجعل كل مؤمن صاحب فراسة حاكمًا على القلوب. إنما بنى له ميزانًا: بصيرة تسمي الظاهر، وتثبت قبل النسبة، وعدل يقف عند العلم، وقلب يبدأ بنفسه.

فبعد كل ما مر بك، ارجع إلى أقرب موضع لا تستطيع الهرب منه: نفسك. هل يتغير معيارك إذا صار الحق عليك؟ هل تقول في الغياب ما لا تقوله في الحضور؟ هل تحمي صورتك بعذر تعرف ضعفه؟ هل تفرح للحق إذا ظهر على يد غيرك؟ هل تملك شجاعة كلمة: أخطأت؟ وهل لك من العمل الخفي ما لا يحتاج إلى جمهور؟

إذا زادك الكتاب سوء ظن بالناس ولم يزدك خوفًا من الكذب في نفسك، فقد أخذت منه أقل ما فيه. وإذا جعلك أجرأ على الأعيان ولم يجعلك أعدل، فقد انقلب الميزان. أما حين تصير أسرع إلى الاعتراف، وأثبت عند الكلفة، وأشد ثبتًا ووفاءً، فهنا يبدأ العلم يتحول إلى عبودية، وهنا يصبح الأمر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: 119] غايةً تعيشها، لا آيةً تصف بها غيرك.

الصدق هو البناء المقابل للنفاق، لا لأنه يجعل الإنسان كاملًا، بل لأنه يمنعه من بناء حياته على كذبة. الصادق قد يخطئ، لكنه لا يحتاج إلى إعادة تسمية الخطأ صوابًا. وقد يضعف، لكنه لا يجعل ضعفه حكمةً ملزمةً للناس. وقد يخاف، لكنه لا يبيع الحق ليشتري الأمان. وقد تنكسر صورته، لكنه يفضل انكسار الصورة على فساد القلب.

ولأن الصدق ليس لحظة منفصلة بل طريق يتكوّن بالتكرار، جاء الحديث يرسم نهايتي الطريق: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا». رواه البخاري (6094)، ومسلم (2607). كل مرة يصدق فيها الإنسان أو يكذب ليست مجرد واقعة؛ إنها خطوة في جهة.

ولا تحارب النفاق بأخلاقه: لا تكذب لتكشف كاذبًا، ولا تظلم من تراه ظالمًا، ولا تجعل الخصومة رخصةً للاتهام، ولا تستثن حليفك من الميزان الذي تضع فيه خصمك. فالبصيرة التي تفقد العدل ليست بصيرةً قرآنية.

ثم لا تجعل شدة الوعيد بابًا إلى اليأس. فالقرآن الذي قال في المنافقين ما قال، فتح باب الرجوع بعد أشد الوعيد، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: 146].

فطريق النجاة ليس تحسين الصورة، بل التوبة والإصلاح والاعتصام بالله والإخلاص له. وما دام العبد قادرًا على أن يرجع، فليس عليه أن يحرس روايةً قديمةً عن نفسه، يمكنه أن يهدمها بكلمة صدق، وأن يبدأ من جديد.

وسيأتي يوم تسقط فيه الصور كلها. لا تنفع براعة الخطاب، ولا كثرة الأعذار، ولا القدرة على إدارة انطباعات الناس؛ يبقى ما كان صدقًا عند الله. ولهذا يختم هذا الطريق بمشهد لا يحتاج إلى صورة أخرى وراءه: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119]. هناك لا يبقى السؤال: كيف بدوت؟ بل: ماذا كنت عند الله؟

فليكن أعظم ما يبقى من «الذين نافقوا» ألا نصير أمهر في تعقب الوجوه، بل أصدق وجهًا؛ وألا نزداد جرأةً على القلوب، بل خوفًا على قلوبنا؛ وألا نحفظ طرائق الكذب فقط، بل نبني في أنفسنا والمؤسسات التي نصل إليها مكانًا يستطيع فيه الصدق أن يعيش.

اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة. وارزقنا الصدق في القول والعمل، والإخلاص في السر والعلن، والثبات عند الفتن، والعدل مع الموافق والمخالف، والتواضع للرجوع إلى الحق.

وصلّى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

الملحق: الدليل الموضوعي لآيات النفاق في القرآن

تمهيد

توزعت آيات النفاق في سور متعددة، ولم تعرض صورة المنافق في موضع واحد فحسب؛ لأن القرآن كشف النفاق من جهات متكاملة:

301. حقيقته العقدية.

302. ومرضه القلبي.

303. وطريقته في التفكير.

304. وخطابه وأعذاره.

305. وموقفه من الوحي.

306. وسلوكه عند الخوف والتكليف.

307. وعلاقته بالمؤمنين وأعدائهم.

308. وأثره في المجتمع والأمة.

309. ومصيره في الآخرة.

310. وطريق التوبة منه.

ويجمع هذا الملحق ثلاثة أنواع من الآيات:

1. آيات صريحة في المنافقين وأعمالهم.
2. وآيات في الذين في قلوبهم مرض، أو في طوائف اتصل سياقها بالنفاق.
3. وآيات عامة يستأنس بها في بيان معنى أو نمط قريب، من غير نسبة حكم النفاق إلى كل من دخل في عمومها.

ولذلك لا يعني إدراج الآية في هذا الدليل أن جميع أوصافها خاصة بالمنافقين، ولا أن كل من وقع في معناها يأخذ حكمهم. وإنما الغاية تسهيل الرجوع إلى البناء القرآني، مع بقاء السياق والتفسير ودرجة دلالة الآية حاكمةً على طريقة الاستفادة منها.

أولًا: سورة البقرة

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة في الكتاب
البقرة: 8	دعوى الإيمان مع انتفاء حقيقته	حقيقة النفاق الأكبر	المحور الأول
البقرة: 9	مخادعة الله والمؤمنين وخداع النفس	القلب والنفس	المحوران الأول والثاني
البقرة: 10	مرض القلب وزيادته، والعذاب بسبب الكذب	النفس والمصير	المحوران الأول والثاني
البقرة: 11-12	تسمية الإفساد إصلاحًا	الخطاب وقلب المفاهيم	المحور الرابع
البقرة: 13	وصف المؤمنين بالسفه والاستعلاء عليهم	السخرية ونفسية المنافق	المحور الثاني
البقرة: 14	الخطاب المزدوج بين المؤمنين والشياطين	التلون والخطاب	المحور الرابع
البقرة: 15	الجزاء من جنس الاستهزاء والطغيان	المصير	المحوران الأول والرابع
البقرة: 16	شراء الضلالة بالهدى وخسارة التجارة	الاختيار والمآل	المحور الأول
البقرة: 17-18	فقدان نور الهداية والصمم والبكم المعنوي	أثر النفاق في الإدراك	المحور الثاني
البقرة: 19-20	الاضطراب والخوف والتوقف بحسب ظهور الطريق	التذبذب	المحور الثاني
البقرة: 204-205	إعجاب القول، والاستشهاد بالله، ثم الإفساد	صناعة الصورة واختبار الأثر	المحور الرابع
البقرة: 206	الاستكبار عند النصح وأخذ العزة بالإثم	رفض المراجعة	المحوران الثاني والسابع

ثانيًا: سورة آل عمران

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
آل عمران: 120	الحزن لحسنة المؤمنين والفرح بمصيبتهم	الحقد وانقلاب المشاعر	المحور الثاني
آل عمران: 154	سوء الظن بالله ظن الجاهلية	الاعتقاد والخوف	المحوران الثاني والخامس
آل عمران: 156	تثبيط المؤمنين وربط الموت بالسفر والجهاد	التخذيل	المحور الخامس
آل عمران: 167-166	ظهور النفاق عند الاختبار والاعتذار بما ليس في القلب	الاختبار والكذب	المحور الخامس
آل عمران: 168	القعود وقولهم: لو أطاعونا ما قتلوا	لوم الثابتين بعد المصيبة	المحور الخامس
آل عمران: 167	قول الأفواه ما ليس في القلوب	انفصال الظاهر عن الباطن	المحور الأول

ثالثًا: سورة النساء

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
النساء: 60	ادعاء الإيمان وإرادة التحاكم إلى الطاغوت	التحاكم والمرجعية	المحور الخامس
النساء: 61	الصد عن الرسول عند الدعوة إلى حكم الله	الإعراض عن الوحي	المحور الخامس
النساء: 62	الأعذار بعد ظهور نتيجة العمل	الخطاب الدفاعي	المحور الرابع
النساء: 63	العلم بما في القلوب والحاجة إلى الوعظ البليغ	المواجهة	المحور السابع
النساء: 73-72	التباطؤ عن النصرة، والفرح بالسلامة، وطلب نصيب النصر	الانتماء النفعي	المحور الخامس
النساء: 81	إعلان الطاعة والتبييت بخلافها	التآمر والخطاب المزدوج	المحور الرابع
النساء: 89-88	التفرق في الموقف من المنافقين وخطورة الردة الظاهرة	الأحكام والمواجهة	المحوران الأول والسابع
النساء: 91	الرغبة في الأمن من الطرفين والعودة إلى الفتنة	التذبذب والانتماء المشروط	المحور الثالث
النساء: 139-138	اتخاذ الكافرين أولياء وطلب العزة عندهم	الموالاة	المحور السادس
النساء: 140	الجلوس في مجالس الكفر والاستهزاء بآيات الله	الرضا الاجتماعي بالباطل	المحور الرابع

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
النساء: 141	التربص بالمؤمنين وانتظار الغالب	العقل والانتماء	المحوران الثالث والخامس
النساء: 142	مخادعة الله والكسل في الصلاة والرياء وقلة الذكر	العبادة والقلب	المحور الخامس
النساء: 143	التذبذب بين المؤمنين والكافرين	فقدان المركز الداخلي	المحوران الثاني والثالث
النساء: 144	النهي عن موالاة الكافرين على المؤمنين	الولاء	المحور السادس
النساء: 145	الدرك الأسفل من النار	خطورة النفاق الأكبر	المحور الأول والخاتمة
النساء: 146	التوبة والإصلاح والاعتصام والإخلاص	العلاج والتوبة	المحور السابع

رابعًا: سورة المائدة

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
المائدة: 41	المسارعة في الكفر وسماع الكذب وتحريف الكلام	الوحي والخطاب	المحوران الثاني والرابع
المائدة: 52	المسارعة في موالاة اليهود والنصارى خوفًا من الدائرة	الخوف والموالاة	المحور السادس
المائدة: 53	انكشاف بطلان الأيمان وخسارة الأعمال	الأيمان والمصير	المحور الرابع
المائدة: 54	صفات الجماعة المؤمنة التي يقيمها الله في مقابل الارتداد	البناء المضاد للنفاق	المحور السابع
المائدة: 80-81	موالاة الكافرين وسوء ما قدمت النفس	الولاء	المحور السادس

خامسًا: سورة النور

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
النور: 47	ادّعاء الإيمان والطاعة باللسان مع الإعراض عنهما فعلًا	الخطاب والادعاء	المحوران الأول والرابع
النور: 48	الإعراض عن التحاكم إلى الله ورسوله حين يخشى المنافق الحكم عليه	التحاكم الانتقائي	المحور الخامس

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
النور: 49-50	الإذعان للتحاكم حين يتوقع المنافق أن يكون الحكم في صالحه، والإعراض حين يخشى العكس	المعيار المزدوج والتحاكم	المحوران الثالث والخامس

سادسًا: سورة الأنفال

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
الأنفال: 49	قولهم عن المؤمنين: غر هؤلاء دينهم	وصف ثبات المؤمنين بأنه غرور بالدين	المحور الخامس
الأنفال: 49	عجز المنافق عن فهم الثبات القائم على التوكل	الخوف والتفسير المادي	المحوران الثالث والخامس

سابعًا: سورة التوبة

تعد سورة التوبة من أكثر السور كشفًا لصفات المنافقين وأعمالهم، وقد اشتملت على بناء متكامل للنفاق في العبادة والمال والجهاد والخطاب والعلاقات والمجتمع.

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
التوبة: 42	التخلف إذا بعدت الشقة، والحلف الكاذب بادعاء العجز	الأعذار وغياب الإرادة	المحوران الرابع والخامس
التوبة: 43	الاستئذان الكاذب وتمييز الصادق من الكاذب	المواقف الكاشفة	المحور الخامس
التوبة: 44-45	استئذان المرتابين دون المؤمنين	الشك والتكليف	المحور الخامس
التوبة: 46	عدم الإعداد دليل على عدم إرادة الخروج في سياق الآية	التكليف والاستعداد	المحور الخامس
التوبة: 47	زيادة الخبال والسعي بالفتنة داخل الصف	الإفساد من الداخل	المحور السادس
التوبة: 48	ابتغاء الفتنة وتقليب الأمور	ابتغاء الفتنة وتقليب الأمور	المحور السادس

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
التوبة: 49	طلب الإذن بحجة تجنب الفتنة والوقوع فيها	صناعة العذر	المحور الرابع
التوبة: 50	الحزن لحسنة المؤمنين والفرح بمصيبتهم	الحقد والتربص	المحور الثاني
التوبة: 51-52	اختلاف المؤمن والمنافق في فهم المصيبة والنتيجة	تفسير الواقع	المحور الثالث
التوبة: 53-54	عدم قبول النفقة بسبب الكفر والكسل في الصلاة وكراهية الإنفاق	العبادة والمال	المحور الخامس
التوبة: 55	الاغترار بالأموال والأولاد مع كونها سبب عذاب	المصلحة والابتلاء	المحور الخامس
التوبة: 56-57	الحلف بالانتماء والبحث عن ملجأ للفرار	الصورة والخوف	المحوران الثاني والرابع
التوبة: 58	لمز النبي ﷺ في الصدقات وربط الرضا بالعطاء	المصلحة ومعيار العدل	المحور الثالث
التوبة: 59	الموقف الإيماني الصحيح من العطاء والمنع	البناء المقابل	المحور السابع
التوبة: 61	إيذاء النبي ﷺ وقولهم: هو أذن	الخطاب وإساءة تفسير الرحمة	المحور الرابع
التوبة: 62	الحلف لإرضاء الناس بدل إرضاء الله ورسوله	عبودية الجمهور	المحور الرابع
التوبة: 64	الخوف من نزول سورة تكشف ما في القلوب	العلاقة بالوحي	المحور الثاني
التوبة: 65-66	الاستهزاء بالله وآياته ورسوله والاعتذار باللعب	الاستهزاء	المحور الرابع
التوبة: 67	الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي	المشروع الاجتماعي	المحور السادس
التوبة: 68	الوعيد بالنار واللعنة	المصير	المحور الأول
التوبة: 69	الاغترار بالقوة والأموال والخوض كالذين من قبل	التكرار التاريخي	المحور الثالث
التوبة: 73	مجاهدة الكفار والمنافقين والغلظة عليهم	المواجهة	المحور السابع
التوبة: 74	الحلف على نفي القول والكفر بعد الإسلام والهم بما لم ينالوا	الإنكار والتآمر	المحور الرابع
التوبة: 75-77	العهد مع الله ثم البخل والتولي والكذب، وترسخ النفاق	المال والقلب	المحور الخامس
التوبة: 78	علم الله بالسر والنجوى	مراقبة الله	المحوران الثاني والسابع
التوبة: 79	لمز المتصدقين والسخرية منهم	إسقاط الصادقين	المحور الرابع
التوبة: 80	عدم قبول الاستغفار لهم مع إصرارهم على الكفر والفسق	الطبع والمصير	المحور الثاني
التوبة: 81	الفرح بالقعود وكراهية الجهاد والتخذيل بالحر	الجهاد والتخذيل	المحور الخامس

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
التوبة: 82	قلة الضحك وكثرة البكاء جزاءً لأعمالهم	المصير	المحور الأول
التوبة: 83	المنع من الخروج بعد التخلف الأول	أثر الخيانة على الثقة	المحور السابع
التوبة: 84	النهي عن الصلاة على من مات على النفاق	الأحكام والمصير	المحور الأول
التوبة: 85	الاغترار بالأموال والأولاد	الدنيا والمصير	المحور الخامس
التوبة: 86-87	الاستئذان من الجهاد والرضا بالقعود مع الخوالف	التكليف والقعود	المحور الخامس
التوبة: 90	الاعتذار الكاذب والقعود	الأعذار	المحور الرابع
التوبة: 93	الاستئذان مع القدرة والرضا بالقعود والطبع على القلب	الإرادة والطبع	المحوران الثاني والخامس
التوبة: 94-96	كثرة الأعذار والأيمان طلباً للرضا	الخطاب الدفاعي	المحور الرابع
التوبة: 97	شدة بعض الأعراب في الكفر والنفاق وجهل الحدود	البيئة والمعرفة	المحور الأول
التوبة: 101	التمرس في النفاق وخفاء بعض الأعيان	ضوابط الحكم	المحور الأول
التوبة: 107	مسجد الضرار: الضرار والكفر والتفريق والإرصاد	المشروع الضراري	المحور السادس
التوبة: 110	بقاء الريبة في القلوب بسبب البناء الضراري	أثر المشروع على القلب	المحور السادس
التوبة: 124-125	زيادة الإيمان للمؤمنين وزيادة الرجس لمرضى القلوب	الموقف من الوحي	المحور الثاني
التوبة: 126	عدم الاعتبار بالابتلاء المتكرر وترك التوبة	القسوة والغفلة	المحور الثاني
التوبة: 127	التسلل من مجلس الوحي والانصراف عنه	العلاقة بالقرآن	المحور الثاني

ثامنًا: سورة العنكبوت

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
العنكبوت: 10	جعل فتنة الناس كعذاب الله	ترتيب الخوف	المحور الخامس
العنكبوت: 10	العودة إلى ادعاء الانتماء عند مجيء النصر	الانتماء النفعي	المحور الخامس
العنكبوت: 11	تمييز المؤمنين والمنافقين بالابتلاء	الاختبار	المحور الخامس

تاسعًا: سورة الأحزاب

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
الأحزاب: 12	سوء الظن بوعد الله ورسوله	الاعتقاد والخوف	المحوران الثاني والخامس
الأحزاب: 13	دعوة أهل المدينة إلى الرجوع والانسحاب	التخذيل الجماعي	المحور الخامس
الأحزاب: 13	ادعاء أن البيوت عورة طلبًا للفرار	الأعذار الكاذبة	المحور الخامس
الأحزاب: 14-15	سرعة الاستجابة للفتنة ونقض عهد عدم الفرار	الولاء والعهد	المحور الخامس
الأحزاب: 16-17	عدم نفع الفرار من الموت وقلة متاع النجاة	الخوف والمآل	المحور الخامس
الأحزاب: 18	التعويق ودعوة الإخوة إلى القعود	التخذيل	المحور الخامس
الأحزاب: 19	الشح على المؤمنين والخوف الشديد	الجبن والبخل	المحور الخامس
الأحزاب: 19	سلاطة اللسان بعد زوال الخوف	الخطاب بعد الأمان	المحور الخامس
الأحزاب: 20	تمني البعد عن ساحة الخطر والسؤال عن الأخبار	الفرار والتربص	المحور الخامس
الأحزاب: 60	المنافقون ومرضى القلوب والمرجفون	الإرجاف	المحور الرابع
الأحزاب: 70-71	القول السديد بوصفه علاجًا للكذب والفساد	بناء الصدق	المحور السابع

عاشرًا: سورة محمد

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
محمد: 9	كراهية ما أنزل الله وإحباط العمل	الموقف من الوحي	المحور الثاني
محمد: 16	سماع النبي ﷺ دون فقه ما قال	الإعراض عن الوحي	المحور الثاني
محمد: 20	اضطراب مرضى القلوب عند نزول حكم القتال	التكليف والخوف	المحور الخامس
محمد: 21	قول الطاعة ثم مخالفة مقتضاها	الظاهر والباطن	المحور الرابع
محمد: 25	الارتداد بعد ظهور الهدى وتسويل الشيطان	الطريق إلى الطبع	المحور الثاني

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
محمد: 26	طاعة من كره ما أنزل الله في بعض الأمر	الولاء السري والانتقاء	المحاور الثالث والرابع والسادس
محمد: 28	اتباع ما أسخط الله وكراهية رضوانه	أصل الاعتقاد	المحور الثاني
محمد: 29	إظهار الله للأضغان	الباطن والخطاب	المحور الرابع
محمد: 30	معرفة آثار النفاق في لحن القول	اللغة والعداوة المستورة	المحور الرابع
محمد: 31	الابتلاء لتمييز المجاهدين والصابرين وكشف الأخبار	الاختبار	المحور الخامس
محمد: 32	الصد عن سبيل الله ومشاقة الرسول	العمل المضاد للدين	المحور السادس

الحادي عشر: سورة الفتح

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
الفتح: 6	سوء الظن بالله	الاعتقاد	المحور الثاني
الفتح: 11	الاعتذار بالأموال والأهل وقول اللسان ما ليس في القلب	الأعذار	المحور الرابع
الفتح: 12	الظن بعدم عودة الرسول والمؤمنين وتزيين ذلك في القلوب	سوء الظن والتشاؤم	المحوران الثاني والثالث
الفتح: 15	طلب الخروج إلى الغنائم بعد التخلف	الانتماء النفعي	المحور الخامس
الفتح: 16	الاختبار بتكليف جديد وإمكان التوبة بالطاعة	العلاج والاختبار	المحوران الخامس والسابع

الثاني عشر: سورة الحديد

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
الحديد: 13	طلب المنافقين النور من المؤمنين يوم القيامة	انكشاف انفصال الظاهر عن الباطن	الخاتمة

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
الحديد: 14	فتنة النفس والتربص والشك والأماني والاغترار بالله	خداع النفس	المحور الثاني
الحديد: 15	انقطاع الفداء والمصير إلى النار	المصير	المحور الأول والخاتمة

الثالث عشر: سورة الحشر

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
الحشر: 11	وعود المنافقين لحلفائهم بالخروج والنصرة مع كذبهم	التحالفات المصلحية	المحور السادس
الحشر: 12	خذلان الحلفاء عند الكلفة	هشاشة التحالف	المحور السادس
الحشر: 13	شدة خوفهم من المؤمنين	الخوف	المحوران الثاني والسادس
الحشر: 14	الاجتماع الظاهر وتفرق القلوب	الشبكات الهشة	المحور السادس
الحشر: 16-17	الشيطان يغري الإنسان بالكفر ثم يتبرأ منه	الخداع والتحالف الباطل	المحوران الثاني والسادس

الرابع عشر: سورة المجادلة

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
المجادلة: 8	التناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول	العمل السري	المحور الرابع
المجادلة: 10	النجوى من الشيطان لتحزين المؤمنين	النجوى بقصد تحزين المؤمنين	المحور الرابع
المجادلة: 14	موالاة قوم غضب الله عليهم وعدم الانتماء الصادق لأي فريق	التذبذب والموالاة	المحور السادس
المجادلة: 14	الحلف على الكذب مع العلم	الأيمان والكذب	المحور الرابع
المجادلة: 16	اتخاذ الأيمان جُنّة والصد عن سبيل الله	حماية الكذب	المحور الرابع
المجادلة: 18	الحلف لله يوم القيامة كما حلفوا للناس	ترسخ الكذب في النفس	المحور الثاني

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
المجادلة: 18	ظنهم أنهم على شيء	خداع النفس	المحور الثاني
المجادلة: 19	استحواذ الشيطان ونسيان ذكر الله	الأصل الروحي للنفاق	المحور الثاني

خامس عشر: سورة المنافقون

تجمع سورة المنافقون عددًا من أصول النفاق في بناء موجز متكامل.

الآيات	الصفة أو القضية	المجال	موضع المعالجة
المنافقون: 1	الشهادة الصحيحة بلسان كاذب	حقيقة النفاق وصناعة الصورة	المحوران الأول والرابع
المنافقون: 2	اتخاذ الأيمان جُنّة والصد عن سبيل الله	الخطاب والعمل	المحوران الرابع والسادس
المنافقون: 3	الإيمان الظاهر ثم الكفر والطبع على القلب	القلب والمصير	المحوران الأول والثاني
المنافقون: 4	الإعجاب بالمظهر وحسن القول والفراغ الداخلي	صناعة الصورة	المحور الرابع
المنافقون: 4	الخوف من كل صيحة	القلق من الانكشاف	المحور الثاني
المنافقون: 4	الأمر بالحذر منهم	المواجهة	المحور السابع
المنافقون: 5	الصد والاستكبار عن الاستغفار	رفض التوبة	المحور الثاني
المنافقون: 6	عدم قبول الاستغفار لهم مع إصرارهم على الكفر والفسق	المصير	المحور الأول
المنافقون: 7	منع الإنفاق لتفريق الناس عن الرسول ﷺ	الحصار المالي	المحور السادس
المنافقون: 7	الجهل بأن خزائن السماوات والأرض لله	تصور الرزق والقوة	المحوران الثالث والسادس
المنافقون: 8	ادعاء العزة واحتقار المؤمنين	الكبر وطلب المكانة	المحوران الثاني والسادس
المنافقون: 8	العزة لله ولرسوله وللمؤمنين	البناء الإيماني المقابل	المحور السابع

سادس عشر: الآيات الجامعة بحسب الموضوع

311. حقيقة النفاق الأكبر

312. البقرة: 8-10.

313. النساء: 145.

314. المنافقون: 1-3.

315. محمد: 25-28.

316. مرض القلب والطبع عليه

317. البقرة: 10.

318. التوبة: 125.

319. النساء: 155.

320. محمد: 16، 29.

321. المنافقون: 3.

322. الكذب والأيمان والأعذار

323. التوبة: 42، 56، 62، 74، 90، 94-96.

324. المجادلة: 14، 16، 18.

325. المنافقون: 1-2.

326. الفتح: 11.

327. الرياء والكسل في العبادة

328. النساء: 142.

329. التوبة: 54.

330. كراهية الوحي والإعراض عنه

331. محمد: 9، 16، 26، 28-30.

332. التوبة: 64، 124-127.

333. النساء: 60-61.

334. الخطاب المزدوج والتبييت السري

335. البقرة: 14.

336. النساء: 81.

337. محمد: 26.

338. المجادلة: 8.

339. الاستهزاء بالمقدسات والمؤمنين

340. البقرة: 14.

341. التوبة: 65-66، 79.

342. النساء: 140.

343. قلب الإفساد إلى إصلاح

344. البقرة: 11-12.

345. التوبة: 107.

346. المعيار المزدوج والتحاكم الانتقائي

347. التوبة: 58.

348. النور: 47-50.

349. النساء: 60-61.

350. النساء: 141.

351. الخوف وسوء الظن بالله

352. آل عمران: 154.

353. الأحزاب: 12-20.

354. الفتح: 6، 12.

355. العنكبوت: 10.

356. الأنفال: 49.

357. القعود والتخذيل والتعويق

358. آل عمران: 156، 168.

359. التوبة: 42-47، 81، 86-87.

360. الأحزاب: 13، 18-20.

361. الفتح: 11، 15.

362. الموالاة وطلب العزة عند غير المؤمنين

363. النساء: 138-144.

364. المائدة: 51-53.

365. المجادلة: 14.

366. محمد: 26.

367. الفرح بمصيبة المؤمنين والحزن لنصرهم

368. آل عمران: 120.

369. التوبة: 50.

370. النساء: 72-73، 141.

371. الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف

372. التوبة: 67.

373. ويقابله في المؤمنين: التوبة: 71.

374. البخل والشح واستعمال المال للضغط

375. التوبة: 54، 67، 75-77.

376. الأحزاب: 19.

377. المنافقون: 7.

378. الصد عن سبيل الله

379. المنافقون: 2.

380. المجادلة: 16.

381. محمد: 32.

382. التوبة: 47، 67، 107.

383. الإرجاف ونشر الخوف

384. الأحزاب: 12-13، 18، 60.

385. التوبة: 47-48.

386. النساء: 83، مع ما يستفاد منها في رد الأخبار إلى أهل الاستنباط.

387. الاستكبار عن التوبة

388. المنافقون: 5.

389. التوبة: 126-127.

390. البقرة: 206.

391. التربص والتذبذب

392. النساء: 141-143.

393. الحديد: 14.

394. العنكبوت: 10.

395. الأماني وخداع النفس

396. البقرة: 9.

397. الحديد: 14.

398. المجادلة: 18-19.

399. المشروعات الضرارية

400. التوبة: 107-110.

401. المصير الأخروي

402. النساء: 145.

403. التوبة: 68.

404. الحديد: 13-15.

405. المجادلة: 17-19.

406. طريق التوبة والإصلاح

407. النساء: 146.

408. التوبة: 74.

409. الفتح: 16.

410. الزمر: 53 من جهة عموم فتح باب التوبة.

ضوابط الاستفادة من هذا الدليل

411. الآيات تكشف الصفات ولا تمنح البشر علم السرائر

يبين القرآن أعمال المنافقين وطرائقهم وآثارهم، لكن معرفة هذه الصفات لا تعني القدرة على الجزم ببواطن الأشخاص.

وقد يقع المسلم في خصلة من خصال النفاق العملي، أو يظهر منه نمط يحتاج إلى المحاسبة، من غير أن يثبت بذلك أنه يبطن الكفر.

فالعمل يوصف بما ثبت، والنمط يحلل بقرائنه، والمشروع يحكم عليه بوظيفته وآثاره، أما الحكم بالنفاق الأكبر على شخص معين فباب شرعي مستقل.

412. لا تنزع الآية من سياقها

ينبغي الرجوع إلى سياق السورة، ودلالة الألفاظ، وأقوال المفسرين، وسبب النزول إن ثبت، والتفريق بين النص الخاص بالمنافقين والنص العام الذي يستأنس به في وصف بعض أعمالهم.

فالتشابه بين واقعتين لا يقتضي تطابق حكمهما من كل وجه.

413. لا تستعمل الآيات سلاحًا في الخصومات

من إساءة استعمال آيات النفاق تنزيلها على الخصوم وحدهم، وإعفاء النفس والحلفاء من ميزانها، وتحويل الاختلاف الاجتهادي أو النقد العلمي والسياسي إلى دليل على فساد الباطن.

والعدل يقتضي أن يخضع الجميع للمعيار نفسه.

414. ابدأ بنفسك

لا يكتمل الانتفاع بآيات النفاق حتى يسأل القارئ نفسه:

هل يتغير معياري بحسب مصلحتي؟

وهل أقول ما لا أعتقد؟

وهل أقبل الحق إذا كان علي؟

وهل أستعمل الدين أو المصلحة لحماية صورتي؟

فمن قرأ الآيات كلها في غيره، ولم يعرض نفسه على خصال النفاق العملي، فقد فاته جانب من مقصدها التربوي.

415. واجه بالعدل، وأبق باب التوبة مفتوحًا

لا يُكشف الكذب بكذب، ولا الإرجاف بإرجاف مضاد، ولا الظلم بظلم؛ فالقرآن يأمر في قلب الخصومة: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: 8]. وهذا العدل لا يحول الحذر إلى سكوت عن العمل الثابت، كما أن قوة المواجهة لا تغلق باب الرجوع؛ فبعد أشد الوعيد يفتح الله الطريق بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء: 146]. فغاية هذا الدليل البصيرة ومحاسبة النفس وحماية المجتمع، مع إبقاء باب التوبة والإصلاح مفتوحًا.

مركز الدراسات والبحوث | جامعة ابن كثير الدولية

سلاسل مركز الدراسات والبحوث

السلاسل التي ينتجها المركز

- سلسلة العلوم التطبيقية
- **سلسلة موازين القرآن** — السلسلة الحالية
- سلسلة مفاهيم الفكر المعاصر
- سلسلة حقوق وفضائل
- سلسلة طبائع النفس